أنطونيو سكارميتا

عرس الشاعر

ترجمة [illegible] [illegible]ماني



عرس الشاعر



Author : Antonio Skàrmeta
Title : La Boda poeta
Translator :Saleh Almani
Al- Mada :P.C.
First Edition :year 2000
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف :انطونيو سكارميتا
عنوان الكتاب :عرس الشاعر
ترجمة :صالح علماني
الناشر :المدى
الطبعة الأولى :سنة ٢٠٠٠
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ – ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

انطونيو سكارميتا

عرس الشاعر

ترجمة

صالح علماني





إلى نورا وفابيان كريستوبال



السبب المباشر للتمرد الإيليري[1] هو التجنيد الإجباري الذي أمر به تيبيريو[2] في السنة السادسة للميلاد بسبب الغزوات الجيرمانية. أما الأسباب البعيدة والأعم للتمرد، فيجب البحث عنها في نظام الاضطهاد الذي فرضه الرومان في كل المناطق الإيليرية، حيث قاموا بشق طرق ليس لها من هدف سوى استعباد واستغلال مالكي الأرض دون وازع. وكان الماليسيون قد احتفظوا حتى ذلك الحين بالهدوء، ولكن عندما سار تيبيريو مرة ثانية ضد السلت، وتلقى فاليريو ميسالا، وكان آنذاك حاكماً على ماليسيا، الأمر بإعداد حملة قوامها شباب في أوج بأسهم من قواته، لم يجد الماليسيون مجالاً لمزيد من التردد. وقد كان قادة التمرد مجهولين، أو أن المؤرخين الرومان والهيلينيين لم ينقلوا إلينا أسماءهم.

أنطون داميتش

موجز تاريخ سواحل ماليسيا

---

[1] الإيليري: نسبة إلى إيليريا Iliria . وهي منطقة جبلية على امتداد شاطئ البحر الأدرياتيكي ما بين تريستا في إيطاليا وإيستريا في كرواتيا..

[2] تيبيريو Tiberio : ثاني إمبراطور روماني (42 قبل الميلاد ـ 37 بعد الميلاد) كان حاكماً بارعاً ومتنوراً، ولكن طبعه الارتيابي دفعه إلى أقصى حدود القسوة.

استمر الإقبال على نبيذ «جيما» حتى عقدت النمسا الاتفاقية التجارية مع إيطاليا (1891)، التي أقرت ما عُرف باسم بند النبيذ. وأمكن لإيطاليا بموجب هذه الاتفاقية أن تصدّر نبيذها إلى الأراضي النمساوية بشروط تفضيلية. فانعكس ذلك على السوق مباشرة وانخفضت الأسعار. وانهار التصدير بصورة كبيرة. واختفى الدافع لزراعة مزيد من الكرمة. وصار إنتاج النبيذ يُستهلك بكامله تقريباً في سواحل ماليسيا وحدها، مع بقاء فائض كبير. كما توقفت السفن في الموانئ ولم يعد لها مصدر آخر للدخل. وقد اكتملت النكبة عندما هاجمت الفِلُكسِرة[1] الكروم الماليسية سنة 1894 وقضت عليها تدريجياً.

بسبب هذه النكبات عانى الفلاحون، ومعظمهم مزارعو الكرمة، خسائر فادحة. ودفعهم اليأس إلى اللجوء إلى التجار الأغنياء وكبار الملاكين لكي يساعدوهم. وصاروا يبيعون إنتاجهم الضئيل بأسعار بخسة ويدفعون فوائد عالية عن الأموال المستدانة. فأفقرت القروض الربوية الفلاح الصغير أكثر فأكثر. وبسبب عدم وجود أراض لزراعات أخرى، وجد الفلاحون أنفسهم مضطرين إلى الهجرة. وبهذا صار على أهالي جيما، الذين كانوا يوفرون فيما مضى العمل لمزارعين آخرين، أن يذهبوا هم أنفسهم للبحث عن عمل في أراض بعيدة وغريبة.

أنطون داميتش

تاريخ جزيرة جيما

---

[1] الفلكسرة filoxera: جنس حشرات مجهرية يُضر بالكرمة.

مقدمة

حسب ما رواه لي جدي في مدينة أنتوفاغاستا (تشيلي)، فإنه ينحدر من جزيرة شديدة الفقر، حتى أن الرجل الغني في تلك المنطقة كان يعتبر محظوظاً بمستوى القصص التوراتية، أو حكايات الجنيات، أو حروب العمالقة التي يرويها محركو الدمى العابرون. أحد أولئك الحكواتية كان له شعر هذياني مشعث وأنف ساحرة شريرة، ويدعى الرعديد ياكسيتش، هو من نشر في جزيرة جيما الخبر المذهل عن أنه فيما وراء إيطاليا، وأبعد من فرنسا الأبدية، ومن الأطلسي الجامح وجباله الجليدية الهائلة، توجد مدينة تنمو فيها بدل الأشجار عمارات شاهقة جداً إلى حد أن صعود أدراجها يتطلب ثلاثة أيام بلياليها. وقد تمكنت سيدة من الصعود إلى قمة أعلى ناطحات السحاب تلك وعادت بعد ثلاثة أشهر لتقول إنها جلست إلى يمين الرب، وإن الإله يشبه أشكال الخالق المرسومة في كنائس ضيعتنا.

لم يكن جدي يقيم وزناً لكل تلك الترهات والمبالغات، وحاول حتى هجرته التوصل إلى مُركّب خبيث الرائحة يقضي على جائحة الفيلكسيرة، ذلك الداء الذي يعفن الكرمة ويودي بالأسر الفلاحية إلى الإفلاس. وكان يقدم قطعة نقد فضية مغرية طالباً من المتشدقين ألا يأتوا في الرحلة القادمة بمزيد من الأخبار عن تلك المدينة العظيمة حيث يبدو الجميع منتفخين زهواً مثل قرود متباهية، وأن يعودوا بدلاً من ذلك بطن من الكيمياء للقضاء به على وباء الأعناب وليس على رؤوس قروييهم المتخمين بقصص الغرائب والمتلهفين بنهم إلى الطعام.

خبأ خفيفُ يد متعجلٌ مسكوكةَ الفضة في جيبه وأضاف دون رجاء بشفائه بأن النساء في نيويوك يتجولن بتنانير قصيرة جداً حتى أن

«الأعشاب الشهية» في عاناتهن تتكشف مشعثة في أحيان كثيرة لدى جلوسهن في البارات، وأن الأقمشة التي تغطي صدورهن رقيقة وشفافة حتى أن حلمات أثدائهن تظهر مثل أوسمة جنرال بروسي.

وقال إن شعورهن الشقراء تحتوي نقيعاً يبعث الجنون في الرجال، وإن هؤلاء يعانون لدى مرورهم بجوارهن من انتصابات معتبرة، فيجنّون خجلاً ويبتعدون عنهن هاربين بسرعة وكأن لهم ثلاثة أرجل. وهي باختصار هذيانات كثيراً ما كانت تشكل زاداً يغذي الأدب في ديارنا.

ولأن أغنى رجل في القرية كان مهووساً بنيويورك، فقد تخلى عن شكوكه عندما أنهى باني السفن بيزارو سفينة قادرة على اجتياز البحر المتوسط والإبحار نحو أميركا. ويبالغ جدي حين يتحدث عن سفينة وصلت إلى سان بيدرو في أحد الأيام، قبل سنة من هجرته، بحمولة كبيرة من الخشب والحديد، بحيث يمكن إنشاء مدينة جديدة من تلك المواد، وتوفير عمل لمئات من ضحايا الجائحة.

وبوعي اجتماعي طليعي بالنسبة لذلك العصر، ذهب لمقابلة الثري دون جيرونيمو، وقال له في وجهه إن الوطنية ليست في السفر إلى نيويورك للتواقح وراء العاهرات وناطحات السحاب، وإنما في البقاء هنا وتحمل مسؤولية محنة مواطنيه.

لم يتأخر أكثر الرجال ثراء في الرد على حجج جدي النادبة بنص متدفق مازال بالإمكان قراءته في أرشيف الجزر الأدرياتيكية، الذي يمكن الحصول عليه مسجلاً على ميكروفيلم في مكتبة انكونا العامة. وسأوجز منه هنا ما هو متعلق بهذه الرواية وحسب، لأتجنب الدخول في تفاصيل العداوات والنزاعات العاطفية التقليدية التي كانت عادية جداً في تلك الحقبة وتبدو لنا اليوم تافهة وغير مفهومة. الجزء الذي يعنينا من النص يوفر معلومتين لهما مغزى خاص في فهم طبيعة هذه الرواية والتدفق المفاجئ للأحداث التي تنتهي في الحاضر القريب، عندما يغلق قارئ هذه الصفحات - وآمل أن يفعل ذلك بحزن وليس براحة - الكتاب الذي بين يديه.

«بخطابية شعبوية وبائسة يحدثني السيد سكارميتا عن محنة أهالي الجزيرة ويسعى الى جعل قلبي يرق لدموعهم وكأن كلمة

محنة هذه تنطبق عليهم وحدهم.

«المحنة أيها السيد، هي مفهوم لا بد له من أن ينطبق علي أنا وحدي. لماذا علي أن أهتم بمحنة جمهرة منظمة من الكائنات المتحيزة وغير المتفهمة في الوقت الذي كانوا فيه هم أنفسهم، أي مواطنوك، من أبعدوني بتعصب عن الزواج من إحدى بناتهم، بعد الترمل المؤثر والمأساوي لسلفي، والذي ما زال حتى اليوم الموضوع القاسي المفضل على الشفاه في كل القرى والدساكر؟ ما ذنبي أنا في النهاية المأساوية التي انتهت إليها مارتا ماتاراسو؟

«ما هو السيئ في تفكيري بالهجرة إلى نيويورك، المدينة التي تمثل اليوم المستقبل في حين أن الخرافة، والفظاظة، والانتقام ممن يملك أكثر لأنه عمل بصورة أفضل، حالت دون أن تكون لي أسرة في هذه الديار التي أحببتها، ليس لسبب وراثي أو بحكم العادة وإنما لقرار كبرياء يتخذه غريب؟

«وهل تظن أن أحداً من هذه الكائنات التي تعاني المحنة التي ذكرتها حضرتك، سيساعد، يوم أموت، في إلقاء حفنة تراب فوق جثتي؟ وأية ابنة أو ابن لدي يسدل جفوني على عيني عندما يطوقني الموت في فجر أي يوم أدرياتيكي هائج؟

«إنني أستبق تخيل مستقبلي بسوداوية دقيقة: سأبقى متيبساً بين الصخور، متحولاً إلى حزمة من الطحالب، وسيمحو البحر ملامحي وتتولى الكلاب أمر أحشائي.»

بقي سكارميتا الشاب حائراً بهذه السطور التي أظهرت للمرة الأولى أن هناك في دون جيرونيمو شيئاً أكثر من ابتسامته عندما يدير ذراع صندوق الحساب لكي يتلقى الورقة النقدية ممن يدفع ثمن البضائع. بقي جدي طريح الفراش ليومين وقد داهمه فيروس الحزن، مفكراً في أنه بدلاً من استخلاص الحجج ضد مشاعر الرجل الأكثر ثراء، سيكتب رسالة ندم وتوبة مكثفة ينهيها بنداء إلى الرحمة والتآخي بين جميع أهالي الجزيرة. وقد صاغ عندئذ رسالة مؤثرة للطبعة الأسبوعية من الجريدة.

أدت تلك القطعة الأدبية إلى نتيجة فعالة في الجو الخامد للفلاحين، والصيادين، والفوضويين، والمنجميين. وليس هناك عجوز إلا ويصادق

على أن ريشة جدي كانت صاحبة الفضل في فتح الطريق أمام جيرونيمو للوصول إلى الجميلة آليا إيمار، الشخصية الحاسمة في القصة التي ينتظرها فضول القراء:

في سنوات عقد السبعينيات، أجبرتني وحشية دكتاتور بغيض في بلادي على الذهاب إلى أوربا، لأذرع بطريقة معكوسة الطريق نفسها التي قطعها جدي. عشت لسنوات في ألمانيا، وهو عائق تضاءل في الصيف عندما نزلت نحو سواحل ماليسيا، وفي نيتي التهام شمس وأسماك مشوية على الجمر، والحصول على المقال الأصلي لجدي الذي كنت أرى فيه البذرة الأخيرة المحتملة لميولي الأدبية. ولأنني كنت محروماً من بلادي، فقد بدت لي الحياة اليومية في سواحل ماليسيا شديدة التواضع بقدر ما هي مضيافة، وقد أشرت في يوميات رحلتي إلى تلك الهدنة:

الراعي يصعد الجبل مع عنزاته.
الشاعر نازور يصعد البرج ليرعى كلمات.
القوارب الشراعية تمخر خليج القرية.
التجاعيد تمخر وجه جد هرم.
العم يشوي الأسماك على الجمر.
الجدة تحضّر السلطة.
غيوم الجنوب البطيئة تخفف
من وطأة منفاي في سواحل ماليسيا.

بعد سنوات من ذلك، دخلت هذه البلاد، التي أتاحت لي زفرة السذاجة الأخيرة، في حرب أخرى مروعة، ما زالت متواصلة حتى اليوم في مناطق ليست بعيدة جداً عن جيما. إن النظرة الإجمالية إلى النزاعات المسلحة تؤثر فينا كمأساة. ولكن التعرف على تفاصيلها الصغيرة، يكشف عن ثغرات من الكوميديا والسخرية والميلودراما.

وهذا النوع الأخير هو الذي تفوقت فيه جدتي عند موعد القيلولة في أنتوفاغاستا. فقد كان الجميع ينامون إلا هي، إذ كانت تتابع بعينين زرقاوين لا تكلان وبمزاج معكر من تشوش ترددات جهاز الاستقبال من

ماركة فيلكو، الاستماع إلى مسلسلات قوطية وقاسية إلى أن تنتهي من حياكة سترة أو لفاع أو جراب نتلقاه بانتظام هدية في أعياد ميلادنا أو أعياد القديسين الذين نحمل أسماءهم. وكان لدى الجدة على الدوام حدس دقيق لنهاية المسلسلات، وهي بديهة ما زلت أحسدها عليها حتى اليوم بعد أن صرت كاتباً محترفاً.

فقد كانت جدتي تستغل الوقفات الإعلانية لتتنبأ بلهجة ماليسية قوية، تتدحرج فيها الراءات، بما سيحدث للبطلة في الدقائق التالية. «سيساعدها الرب وتسترد بصرها» (إذا ما كانت عمياء)؛ «سيد ما من عائلة محترمة سيُخرجها من الماخور ويتزوج منها»؛ «ستذهب إلى نيويورك وسيشفيها هناك طبيب مشهور من السفلس».

أما استيبان كوبيتا فرأيته مرة في نادي ماليسيا الاجتماعي في أنتوفاغستا وهو يخسر جولة بوكر على طاولة مزعزعة تحت مروحة صاخبة. لا أظن أنني قلت له شيئاً، ولكنني أتذكر أنه نظر إلي مطولاً وكأنني قد شاركت في نصب شرك له عندما كشف جدي بحركة تمثيلية وانتصارية أوراقه وكانت «فول روا». وسأتوقف عند هذا التفصيل، لأن الشيء الوحيد الذي يمكن له أن يضمن حجة دامغة للقصة التالية، هو دوار تلك النظرة الزرقاء التي تبقى أشد غموضاً من كل المقاربات التي أحاولها في روايتي.

أما فيما يتعلق بنيويورك، فإنني أعترف بأني قد تقاسمت الهوس نفسه بها مع رينو كوبيتا، وما زالت هي المدينة التي تسبب لي الدوار على الرغم من تهكمات أصدقائي اليساريين.

لقد رغبتُ منذ سنوات طويلة في كتابة هذا العمل، ولكنني أجلته منتظراً أن يتكامل من تلقاء نفسه. لأن المسائل غير الواضحة، مثلما يعرف قرائي المتمرسين، تتدبر أمرها لتنتظم وتشكل ذلك الزمان والمكان المستقلين للرواية.

إنني أهدي هذا العمل في المقام الأول إلى جديّ، فبعد أن ماتا ودُفنا في تشيلي، لم يعد باستطاعتهما أن يُكذِّبا ما أرويه هنا.

عرس الشاعر

– 1 –

كان يا ما كان، زمن فسيح وكامل في جزيرة بعيدة على سواحل ماليسيا. حيث تنتفخ الأعناب تحت الشمس مثل نواقيس كنيسة مشعة ويبدو المطر أشبه بزيارة أسريّة تبهجنا بمجيئها وتسعدنا حين تنصرف وتبدي الفتيات العذراوات تمنعاً ليناً مع الخطيب المتأجج إلى أن يصهرهما الزواج. كانت مارتا ماتاراسو هي أجمل بناتها، وكان أهالي الجزيرة يتكهنون، في مراهنات أحياناً، عن الرجل الذي سيتزوجها عندما تكمل سبعة عشر عاماً. وما يزال يعيش في ذلك المكان البعيد أحفاد بعض من كسروا حراباً من أجلها، من راقصين ذوي أحذية لامعة، وصيادي أسماك ذوي جلود مدبوغة، وطلاب انتصابيين أكثر منهم مستغلين، وبيروقراطيين بربطات عنق وشوارب متباهية وأصناف أخرى يصعب تفصيلها.

ومع أن ديكارت الطيب كان قد أعلن بأنه ليس هناك ما هو أكثر مدعاة للفرح من الفطرة السليمة، فقد كانت تلك الجزيرة النائية هي الاستثناء. فالتضوعات الربيعية كانت شديدة الزخم في العادة إلى حد أن الذكور لا يجدون السكينة إلا عند قدوم الصيف ومجيء السفن التي تحمل إلى الشواطئ الرملية سويديات تحيط الزرقة بعيونهن وبريطانيات يسلمن بإحسان ليبرالي ما تخبئه بحرص بنات الجزيره وهن يحكن الشراشف بالصنارة بانتظار اللحظة التي تتوّج فيها «لؤلؤةُ شرفهن الحمراء» ليلةَ زفافهن بانتصار، حسب كلمات أغنية تورومبا ما زالت تُسمع هناك.

ومع أن أحداً لم يكن ينقصه شيء، إلا أن الجميع كانوا يملكون القليل، ومن أجل استمالة الفتيات لم يكن لدى رجال الجزيرة أي رأس مال سوى السذاجة. ولكن الأمر تغير كثيراً حين فُتح «متجر أوربي» هائل، على طريقة المخازن الكبرى من نوع هارولدز، غاث وتشافيث، تيمبرلي وثومبسون، ولم يأت افتتاحه تلبية لحاجة الأهالي الذين لا يستطيعون أن يدخروا سوى القشرة في شعرهم والفطور في أقدامهم، بقدر ما كان لخدمة أزواج السويديات والإنكليزيات الساهين الذين يشترون حاجتهم من السكوتش ويسكي والسيجار الهافاني والشمبانيا وقمصان البوبلين الإيطالية دون أن يدفعوا أي نوع من الضرائب.

ولهذا فقد اقتصرت الفائدة على صاحب المخزن والحكومة المركزية التي تتبع لها تلك الجزيرة، وهو وضع قاد بعض الأهالي المتمردين ذوي الأفكار الاتحادية إلى التمرد ضد الإمبراطورية. وتوصلت تلك الجماعات إلى حشد ما يقرب من عشرة عسكريين في صفوفها. وقد نشطت الجماعة الأولى منها نشاطاً واسعاً في أواخر القرن. وجرى استقبال زعيمها جوزيه كوبيتا في مقر الحكومة، حيث سلمه وزير الأراضي والاستعمار دون مماحكات رقاً يمنح بموجبه عن طيب خاطر الاستقلال الذاتي لجزيرة جيما مع كل حقوق الأمة المستقلة، وسلطة إنجاب رايتها الخاصة، بل واستخدام اللهجة المحلية كلغة رسمية إذا ما شاء الأهالي ذلك.

ويقول أحد الشهود إن الوزير اقترب من خريطة البلاد المعلقة في مكتبه، والمصممة في باريس، وطلب من كوبيتا أن يشير له بإصبعه إلى موقع الدولة الجديدة. فأشار المتمرد بسبابته باعتزاز إلى جزيرة جيما على بعد حوالي ألفي كيلومتر عن العاصمة، واكتفى الوزير بالقول «ليست بعيدة جداً ولا قريبة جداً»، وهي جملة مبهمة تعكس نية ما، دون أن تشير بدقة إلى أية نية محددة.

ثم طلب بعد ذلك مباشرة من كوبيتا أن يخبره بأسمائه وألقابه الكاملة، وأملى على سكرتيره مرسوماً، يعين كوبيتا بمقتضاه منذ اليوم رئيساً للبلد الوليد. وعندما سأله أي اسم سيضع للبلاد، اعترف الرئيس

المعين للتو بتواضع بأنهم سيحتفظون باسم الجزيرة نفسه ويضيفون إليه عبارة «جمهورية مستقلة».

فقال الوزير بصوت عالٍ متذوقاً الاسم:

- جمهورية جيما المستقلة... له إيقاع جيد.

نصحت السلطاتُ كوبيتا بأن يُجري بعد فترة معقولة انتخابات ديمقراطية ليتم اختياره رئيساً، لأن المناصب الممنوحة تعسفاً ستثير عاجلاً أو أجلاً سخط المتعصبين للديمقراطية، وهم بهائم تخلط ما بين الإحصائيات والذكاء.

وقد ثمن الرئيس المعين النصيحة، وبعد أن اعتذر لقلة اللياقة، قدم الشكر على الرقين «من أعماق أراضي وطني»، وأطلع الوزير على وجوب مغادرته مقر الحكومة سريعاً لأنه إن لم يفعل ذلك فسيتخلف عن موعد السفينة التي ستحمله عائداً بالبشائر إلى شعبه. ولم يكتف الموظف الحكومي بتبرير تسرع مواطنه السابق المفهوم، بل وضع تحت تصرفه عربة توصله إلى المرفأ، وسأله بلباقة، تَعِدُ بالتكريم، عن اسم السفينة التي ستحمله إلى الجزيرة. فأخرج كوبيتا تذكرة السفر وقرأ بصوت عالٍ اسم السفينة: **كارونتيس**. ابتسم الوزير مبدياً في ابتسامته كل قطعة من أسنانه التي لا تشوبها شائبة، وقال عبارته المبهمة: «اسم مناسب جداً للهدف»

في دردشة غير رسمية ورومنسية أجراها جوزيه كوبيتا تحت ضوء القمر في السفينة **كارونتيس** مع سائحة ألمانية ذات عينين خضراوين صافيتين تدعى آنا ديكمان، فتح لها الرقين اللذين يقران استقلال وطنه وتنصيبه رئيساً.

وفي صبيحة اليوم التالي، أي بعد ساعات قليلة من تلك الجلسة الغرامية تحت ضوء البدر، وبانعدام تام للباقة، دعا بيوتر جيفتانوفيتش، وهو قبطان السفينة **كارونتيس**، جميع الركاب المسافرين في مختلف الدرجات وعرض أمامهم رأس كوبيتا مفصولاً عن جسده بواسطة سيف تركي عريض، حسب توقعه. وبينما هو يلصق بحركة فظة العنق إلى عظمي كتف القتيل سأل إذا ما كان هناك من يعرف هذا الرجل، وإذا كان

هناك بين الحاضرين من يتبنى عملية الاغتيال هذه بحد السيف. فقالت آنا ديكمان، العاجزة عن إخفاء هلعها، والمهتزة من ترملها المفاجئ، إننا نقف أمام الرفات الخالد لرئيس جمهورية جيما وطالبت بالرقين اللذين يوثقان تعيينه.

فطلب الأميرال بيوتر جيفتانوفيتش من السيدة الجميلة أن تدنو من ميسرة السفينة، وعرض عليها زورقين ورقيين داعياً السائحة الألمانية إلى إلقائهما في البحر. وفي زرقة ذلك البحر الثابتة التي غناها هوميروس دون مبالغات، غرق الزورقان الهشان في ثوان قليلة.

– أخشى أن تكون هذه هي الوثائق الرئاسية التي تهمك يا سيدتي.

وحسب ما اعترفت به السيدة ديكمان، بعد سنوات من وقوع هذه الأحداث، فإن جيفتانوفيتش قد أسمعها في تلك المناسبة الجملة التالية التي أعلنت أنها فهمت مغزاها جيداً، لدرجة أنها لم تدلِ بهذا التقرير إلا بعد جنازة الأميرال جيفتانوفيتش بعد عشر سنوات:

«يخيل إلي أن حضرتكِ، وأنت واعية لجمالكِ، يا سيدتي، تُقرين بأن تناسق جسدك البديع ناشئ بصورة أساسية من اتحاد الرأس مع العنق. وسيكون من المحزن جداً لحضرتك ولمعجبيك فصل جزئي جمالك بسبب سوء ائتمانك عليهما.»

فقدت السيدة ديكمان فجأة النبرة النحاسية التي اكتسبتها في المرحلة الأولى من رحلة اصطيافها الماليسية؛ وبدا كما لو أن نمش بشرتها الشهي والحسي قد صدئ بجرة قلم، فابتعدت عن ذلك الأمر، وعن كل تحقيق لاحق، بكلمة ألمانية برغماتية: Versteho (*).

كان لهذا الحادث قيمة نموذجية لسيكولوجية متمردي الجزيرة. ففي التمرد الكبير الثاني ضد المركزية المتروبوليتية، كان المكلف بطرح المطالب هو جوزيه إيست، وهو خياط يهودي مقيم في جيما بسبب افتقاره إلى الجشع وتبحره في الفوضوية، إضافة إلى كونه مغرماً مستتاراً بمارتا ماتاراسو التي أراد أن يبهرها بكراس من ثلاثين صفحة، منشور على ثلاث حلقات في جريدة **لاريبوبليكا** حول المفهوم التحرري للعهد القديم.

(*) مفهوم

استقبله في ميناء القارة الرئيسي وزير الأراضي والاستعمار نفسه الذي بدلاً من أن يمنحه رقاً أو رقين، قدم إليه شيكاً على بياض يحمل توقيعه واشتراكاً في ماخور غوديثا، المعبد الذي كشف فيه إيست باندفاع غرامي عن طاقته الجنسية وعن الأفكار الثورية للكتابات بين تلميذاته المفتونات اللواتي أقمن له وداعاً يليق بمهراجا عندما تأكدن بعد شهر من أن للشيك رصيداً بالفعل.

امتنع إيست بحكمة موروثة عن الأسلاف عن العودة إلى جيما وكتب رفاقه الفوضويون مقالاً في **لاريبوبليكا** يتلخص في عنوان واحد فقط «إيست بقي في ويست».

- 2 -

أفول هالة إيست النبوية من الأفق، جعلت ستاموس ماريناكيس، أول مالك **للمتجر الأوربي**، يشعر بأن أكثر المرشحين منافسة في التودد إلى مارتا ماتاراسو قد استبعد نفسه بنفسه من دور العريس الكامن، فسارع ليعرض إمكانياته الاقتصادية ومواصفاته الجسدية أمام الآنسة باهرة الجمال. وقد كانت الأولى منها واضحة وجلية. فليس هناك في الأدرياتيكي، بمن في ذلك القراصنة، من هو قادر على منافسته في الثراء. فالتوليب الهولندي، ومصوغات ساحل العاج، والزمرد البرازيلي، والشوكولاتة الفينينية، والكافيار الإيراني، والأحذية الإيطالية، وفونوغرافات آر.سي.أي **فيكتور «صوت سيده»**، كانت بعض السندويشات التي أخلى بها الحظيرة من الطامحين المتطلعين إلى مارتا ماتاراسو، وتوصل تحت إذلال الثروة إلى إزاحة نصف دزينة منهم.

أما فيما يتعلق بمواصفاته الجسدية، فلا يمكن الإنكار بأن ستاموس ماريناكيس كان يعنى في الوقت نفسه بشعر تتهدل ناصيته على جبهته مانحة إياه مظهراً رقيقاً يناسب دعاية حليب للأطفال، وتخفي على أحسن وجه أعماق شهيته. وأوضح مثال على تلك الشهية هو المنافسة في التهام المحار التي ابتدعها عمدة جيما نفسه، المواطن ذو الروح اللطيفة والأسلوب الرسائلي البكائي الذي سينقذ بعد عشرين سنة من ذلك جيرونيمو فرانك من وحدته، حيث لم يكتف ستاموس يومئذ بالتهام مئة وعشرين قوقعة، وإنما بادر إلى أكل آخر محارة في الطبق مع صدفتها وكل شيء فيها. وقد «اهتزت» أسنانه حسب مقال في **«مار إي فوتورو»**، ولكنه في حماسه لإظهار قسوة متبجحة «امتص غطاء الرخوية الحجري مسبباً شحوب الذهول لخصومه».

منذ ذلك الحين أطلق عليه أهل الجزيرة بمودة لقب «فاتح العلب».
وقد لبس ستاموس مثل مصارع روماني: قميصاً للصدر مزركشاً بخيوط مذهبة وسترة من المخمل تعرف كيف ترفع تفاحة آدم في عنقه بملاحة، وجاء ليمثل أمام مارتا ماتاراسو مثل كائن شمسي وكلي القدرة، كرجل أعمال يوناني حمّله القدر مسؤولية «متجر قذر» وعزاؤه الوحيد في هذه الأراضي هو أن توافق الجميلة المترعة بالمزايا والهدايا على الزواج منه وتكوين أسرة توفر التقدم والمجد لجزيرة أسلافنا.

بمفردات عملية، أوضحت الخالات للجميلة اليتيمة، بأن ما يُعرض عليها هو أن تكون ملكة سواحل ماليسيا، وأوصينها بأن تتجنب التمنع لأن القطارات السريعة تتوقف مرة واحدة في المحطة ولا تعود بعدها.

وما كان من خالاتها البرغماتيات،«اللواتي تحملن تضحيات كبيرة لإعالتها»، أو الجيران الراغبين في حضور حفلة زفاف القرن، إلا أن صموا آذانهم عن الخبر الذي أشاعه موتي فرانيستش، ضابط الموازنة في مدرسة آد فاريدي الريفية، في الليلة نفسها التي تعادل فيها فريق جيما اكسبريس بهدفين مع فريق تورين الإيطالي، وذلك بفضل تاديو موليان الذي صد ضربة جزاء للفريق الضيف في الدقيقة الخامسة والثمانين.

كانت المباراة حامية الوطيس إلى حد أن أحداً لم يجد الحماس للذهاب إلى دورات المياه على الرغم من براميل البيرة التي سُكبت في المثانات، وعندما أطلق الحكم صفارة النهاية هرع المشجعون المندفعون إلى المباول وهم يركضون وعضو كل واحد منهم مكشوف عملياً. ولم تكن تراود موتي فرانيستش، مثل بقية المشاهدين، سوى الرغبة في التبول، فأغمض عينيه قبالة الجدار المتآكل من البول منتشياً بسعادة الإفراغ الأولية. وحين صار في منتصف الطريق، وتحت تأثير تجاوزه التعجل، رفع رموشه عن عينيه ليكتشف فقط أن فاتح العلب يقف إلى جواره، مغمضاً عينيه في حالة انتشاء، وهو يطلق دفقاً معكراً وأبدياً. لم يكن الميل إلى اللواطة أو التخنث، وإنما مجرد الفضول، هو الذي حمل نظر موتي من شلال بول جاره إلى العضو الذي يرسله، وحين رأى طوله وثخنه، أحس بأن بقية السائل تتبجس في حلقه. وفلسف الأمر مفكراً في أنه لن يكون

بمقدور ستاموس مارينـاكيس بمثل هـذه الأداة أن يشطر قوقعـة إلـى شطرين وحسب وإنما أن يفعل ذلك بدبابة أيضاً.

تمكن موتي من رواية الواقعة في تلك الليلة بالذات. فالتعادل مع فريقٍ نال جوائز كثيرة حمل أهل الجزيرة إلى المجد، ومشجعي فريق جيما إلى الحانات، حيث جولة من شراب السليبوفتش ممزوجة مع البيرة دفعت موتي إلى أن يروي بلسانه الواقعي السحري ما رآه للتو بعينيه. ولكي يشدد على عباراته كان يغطي جفونه بكلتا يديه ويهز رأسه وكأنه يريد التخلص من كابوس. حفظ الزبائن هذا التفصيل، ونسبوا الخبر في أول الأمر إلى تهيؤات ضابط الموازنات، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتجنبوا في الأيام التالية تضميخ مشترياتهم من المخزن الأوربي بنظرات مختلسة من طرف رموشهم إلى سروال ستاموس.

ولأن القرية بسيطة وتقليدية، فقد نصح الأزواج المستقيمون بناتهم بعدم التعامل مطلقاً مع صاحب المتجر، وقدر بعضهم بأن الحكمة تقتضي أن تشمل النصيحة أبناءهم الذكور أيضاً.

«حسد محض»، هكذا قررت خالات مارتا ماتاراسو بقوة الإرادة أكثر مما هي قوة القناعة. فلو أتيحت لمواطنين آخرين فرصة أن يتقدم ستاموس وثروته لطلب يد إناثهم، لما اهتموا حتى ولو كان الرجل جملاً وحيد السنام. وهكذا، عندما جاء الرجل بصورة رسمية ليطلب يد الابنة، قلن له نعم بملء الفم وبالإجماع.

شرب صاحب المتجر أنخاباً عديدة مع خالات الفاتنة، وكان يشرب قطرات من السليبوفيش، ويدير رأسه أحياناً نحو الفتاة التي كانت تنظر إليه نظرات ثابتة بإلحاحِ صورةِ تقويم. وعندما تبدت ألوان الخمر على خدود النساء، انتهز العريس الفرصة بلباقة ليطلب الإذن بالانفراد بضع دقائق مع الخطيبة على الشرفة. وتحت المظلة السماوية الشاحبة في البيت المتواضع، تألقت مارتا ماتاراسو بجاذبية طبيعية بدت معها وكأنها ملكة يزورها وَقَّاد بسيط. كان هناك شيء شاحب بصورة جوهرية في بشرة وجهها يميزها عن الفتيات القرويات اللواتي تبدو وجوههن وأنوفهن وكأنها قد فُصلت بضربات مطرقة بفعل الشمس. استبق ستاموس بتهور

تخيل ما سيكون عليه طعم هاتين الشفتين المرمريتين عندما سيهيجهما بلسانه الناري المتين. وبينما هو يبلل بذلك اللسان الجزء السفلي من شاربه، نظر بمذلة إلى الفتاة.

– أريد أن أقول لكِ إنني لن أجبرك في حياتي مطلقاً على أي شيء. وخصوصاً على الزواج مني إذا كنتِ لا ترغبين في ذلك.

نظرت إليه بفضول طفل يتابع تحركات أم أربع وأربعين.

– ولكنني راغبة في الزواج منك.

– هل تجدينني جذاباً؟

فأومأت الفتاة بالإيجاب وهي تبتسم قائلة:

– أنت متين الجسم، لك أسنان مثيرة، وابتسامة ساخرة. وهناك فوق ذلك المال.

أحس ستاموس بأنه يبتلع نصف لتر من اللعاب قبل أن يمسك شاكراً معصم الفتاة الثلجي الأيسر.

– أنتِ تعلمين أن هناك أموراً تقال عني – أضاف الرجل وهو يطأطئ رأسه ويحرك طرف خفه الفاخر– ولا أريد تجاهل الموضوع.

فقالت ونظرها معلق بالبحر:

– لقد سمعتُ شيئاً. ولكن الناس يقولون أشياء كثيرة.

وتنحنح الرجل:

– بعض... بعض ما يقوله الناس صحيح.

– كم... كم هو البعض الصحيح مما يقوله الناس؟

سحب ستاموس يد خطيبته برفق إلى بنطاله وأتاح للفتاة أن تشكل فكرة واضحة عن طبوغرافيته.

– ما هذا! – هتفت الصغيرة وهي تقضم ظفر سبابة يدها الطليقة. ثم جذبت يدها المعمدة بالعلم، وضمتها إلى الأخرى، ووضعت فوقهما جبهتها كما في صلاة.

– متأسف – قال ستاموس متأثراً من اضطراب الفتاة – لا حاجة إلى عقد الزفاف.

– ليس الزفاف هو المشكلة – سحبت الكلمات ببطء بينما هي تنظر

إلـى الرجـل نظـرة رصينـة. وتذكـرت في لمحـة خاطفـة أن سـتاموس بـدأ نجاحه التجاري بين الوطنيين ببيع بضاعتـه بالتقسيط. فـأخرجت طـرف لسانها من بين سنيها المتوسطين وابتسـمت إلـى أن صـارت عيناهـا كعيـون الصينيات، وقالت:- ألا يمكنك أن تعطيني إياه في أقساط شهرية مريحة؟

- 3 -

بعد عشرين سنة

الانهماك في خطوبة جيرونيمو وآليا إيمار شغل جزءاً كبيراً من ألسنة وتنبؤات سكان الجزيرة وكان يمكن لهم أن يستمروا في صخب التفاهة والنميمة، لولا ما حدث قبل خمسة أيام من حفلة الخطوبة، حين كان القندلفت ومساعدوه المراهقون فوق برج الكنيسة يعلقون أقمشة احتفالية ورايات ورقية، ولمح رينو كوبيتا، ابن البطل الفوضوي مقطوع الرأس، بعيني شاهين وغريزة سياسية، سفينةً غريبةً تقرب من الشاطئ، وتجوبه بأكثر الأساليب الريحاوية كلاسيكية وغموضاً.

لم يفته أن ميمنة السفينة وميسرتها محملتان بالمدافع، ومع أنه لم يميز أي زي عسكري، فقد عرف أن هؤلاء هم جنود الإمبراطورية النمساوية الهنغارية القادمين لتجنيد شباب الجزيرة أو لذبح الهاربين من التجنيد.

عُقد أول اجتماع حول المسألة في أعالي الكنيسة وقد اكتشف رينو إثر تحقيق سريع أن الخوف من العسكريين النمساويين جعل فكرة الاستسلام وارتداء الأزرار المذهبة، والسيف، وسترة التأنق والحصول على وظيفة أميرية لا تبدو فكرة تافهة في نظر جماعة الكاثوليك المحيطين به. فدمدم ابن الزعيم السابق القتيل: يا لأبناء الحرام، يفضلون انتعال جزمات عسكرية على أن يواجهوا منصة الإعدام كمنشقين.

هاج بدماء آل كوبيتا التي راحت تغلي الآن في رأسه وحسب، ففقد أسلوبه الرفيق في الكلام، وأطلق على القندلفت والأتباع تسمية «الأنذال» وقفز من فوق المنبر وركض نحو الشارع الترابي ليجمع

ميليشيا من صيادي الأسماك ومستحلبي الكرمة. ولم يكن هؤلاء قد استخدموا سكيناً من قبل إلا من أجل شق سمكة بيوريس واستخدام لحمها طعماً بغرسه في شص حديدي، أو من أجل تفحص الأخطبوطات على الصخور.

كل أنواع السلاح مناسبة في هذه الحالة، قال رينو ذلك، عندما عرض عليه الصيادون سكاكينهم الصدئة لكثرة ما يفتحون بها قواقع طازجة على صخور الشاطئ. وحدد لهم بحكمة رحيمة أنه يمكن لحد رأس السكين أن يشق قلوب النمساويين، وأن عفن الحديد الذي يغطي السكاكين يجب ألا يثير قلقهم، لأنه من المستحيل أن تصاب الجثث بعد موتها بالكزاز.

بينما كان رينو المندفع يحرض أبناء الجزيرة بخطاباته، كان شقيقه الأصغر استيبان كوبيتا، يدخل المخزن الأوربي الكبير لشراء علبتي تبغ بفضل رأس مال أتاه من بيع حبّار متصلب الأرجل اصطاده وشرّحه بدقة جراحية من أجل عشاء امرأة أرملة. وكان دخوله المتواضع إلى المحل أقل ملحمية بكثير من دخوله إلى أماكن أخرى، وذلك لأن المحل كان خاوياً مؤقتاً. الحقيقة أن لاستيبان عينين زرقاوين شديدتي العمق والاتساع حتى لتبدوان مُصَلّبتين بالكوبالت وتخلان بتوازن أي شخص يعترض طريقه. ولأنه يعي مغناطيسية نظرته، كان يسدل جفونه بتواضع لكي يوفر على الناس مشقة الانبهار.

وإذا كان رينو مكَهرَباً ومكهرِباً، فقد كان لأخيه استيبان بالرغم من سنوات عمره العشرين سكون بحيرة. وكان يميل بدافع وفائه لهذه الصورة إلى الإعلان بأن الحياة تمنح أكثر ألحانها تألقاً حيث يكون المرء موجوداً، وأنه لا جدوى من التنقل. فالمسير حتى الساحة يبدو له إهانة للنظام الطبيعي. ورحلة إلى نيويورك، مثلما يواصل التخطيط فتيان المرفأ، تذهله مثل أعظم الهذيانات. وهذا ما يوضح أنه بعد حصوله على علبة السجائر، جلس على أريكة مريحة في المتجر الأوربي لكي يدخن بالمتعة التي يدخن بها محكوم بالإعدام قبيل تنفيذ الحكم الوشيك به. جزء من فلسفته كان السعي لأن تكون كل لحظة كاملة تماماً بحيث لا تكون هناك

ضرورة على الإطلاق لطرح التساؤل عن ماهية مغزى الحياة. «لم يبق لي عقل للتفكير بذلك»، هكذا فاجأ في أحد الأيام شخاخ حبر كتابي ومتحذلق سيدمر فيما بعد غدته الصفراوية بمقالات في جريدة **لاريبوبليكا**.

وسط ذلك الانكباب المُتعب، حدث أمر يعترف إستيبان بأنه قد نسيه. وهناك من يرون بأنه نسيه لأسباب تتعلق بالأسلوب، أو بالزهيمر، أو بسبب القناعة التي تنصح بعدم العودة إلى الواقع عندما يكون قد تحول إلى أسطورة. والواقعة هي أن آليا إيمار برزت من حجرات المخزن ملفوفة بقطعة من قماش التول الأبيض تتبعها خياطتان فرنسيتان تثبتان القماش على جسدها بدبابيس طويلة ذات رؤوس صفراء. قادتاها إلى المرآة، وأمامها، جاهلة وجود الفتى، راحت الفتاة تلمس روعة صدرها لترى إذا ما كان الثوب يقولب نهديها بالإيحاء المناسب الدقيق، ومسدت براحتيها تموجات التول الممتدة حتى قدمي الزبون الذي كان، كما هي عادته، يطلق سحابة حلزونية من الدخان قبل أن يستنشق التبغ بعمق.

وحين أرادت العروس أن تتأكد مما إذا كان يمكن لطرحتها المثقلة بكيلوغرام من اللؤلؤ والخرز، والتي أعدتها أمها بالذات على شكل أزهار ثلجية، أن تستقر فوق التسريحة الفرنسية الاحتفالية التي تأخذ في الاعتبار رفع شعرها الكستنائي لمنح مقاس قامتها الفلاحي مزيداً من الوقار الراقي والنبيل، عندئذ فقط استطاعت أن تكتشف وجود الدخيل الذي كان يتأمل المشهد، بموهبته الكبيرة في الغياب، وكأنه قد دخل إلى السينما للتفرج عليه.

كانت آليا إيمار على وشك إطلاق صرخة توبيخ، ولكنها أحست مرة أخرى، عبر الطريق غير المباشر الذي يوفره الزجاج المطلي بالزئبق، بدوار هاتيك العينين الكوباليتين على الرغم من الجدية الباسمة التي تراقبانها بها.

هناك عدة روايات حول ما قالته في تلك اللحظة: تُستبعد منها رواية إستيبان، لأن إيجازه، عندما يسألونه عن المسألة، يحمله إلى تحريك عنقه بتشنج دبلوماسي، دون أن يؤكد أو ينفي. أما رواية الخياطتين

الفرنسيتين التي ملأت الصحافة بعبارات شبقة وموباسانية، تليق بصناجات بيزنطيات، فيمكن استبعادها لأنهما تجهلان دقائق اللغة المحلية. ولا يمكن أن تُقبل كرواية تاريخية موثوقة سوى أقوال العروس، مع أنها وثيقة شفهية تعاني تاريخياً من عائق الذاتية، وأدبياً من كونها أسطورة.

تلتفت خطيبة جيرونيمو بحدة نحو استيبان الذي يتفادى أن يرمش لكي يبقى درب الأرواح مشرعاً. وحين تنتبه المرأة إلى أن مرأى هاتين العينين عميقتي الغور دون وساطة زئبق المرآة يبلبلها إلى حد استنفاد الدم الذي يروي دماغها، لا تجد ما تقوله سوى العبارة التالية:

– ما الذي تفعله هنا أيها الأبله؟

يبتسم استيبان وهو يعرض السيجارة التي يدخنها بإيقاع ثابت، وينفث الدخان بمهابة سلطان. ثم يرد:

– مثلما ترين. أدخن سيجارة.

– وإلى متى؟

– بقي منها القليل.

تضغط آليا إيمار القبضة الشاحبة وتهزها بجانب خدها الشاحب الآخذ بالتضرج الآن بالذات بالحمرة وكأنها قد تذوقت نبيذاً قوياً.

– ألا تعرف أيها التعس، أن نكبة تحل بالرجل الذي ينظر إلى عروس وهي في ثوب الزفاف قبل زواجها؟

– لا يحدث ذلك إذا كان الرجل هو العريس – ابتسم استيبان كوبيتا وهو يداعب الزغب وكأنه يملك فعلاً الشارب الكثيف الذي يفكر في إطلاقه يوماً ما.

– ولكن الواقع يقول إن جيرونيمو فرانك هو خطيبي، وحفلة العرس ستقام ليلة السبت.

ينهض الفتى واقفاً، ودون أن يجد مكاناً يلقي فيه عقب السيجارة، يطفئه في راحة يده ويدسه في جيب البنطال.

– بهذه الحالة التي أنتِ عليها لن أنتظر حتى يوم السبت، وسأتزوجك الآن بالذات.

تقـرر العـروس التقـدم لكـي توجـه لكمـة إلـى أنفـه، ولكـن شـيئاً مفـرط البهجـة في شـلال كوبالت أعمـاق عينـي الدخيل يكبحـها، وتفلـت ابتسـامة زلقة من شفتيها المكتنزتين.

ومن أين لك النقود لتعيلني إذا ما تم ذلك؟

يسحق استيبان بقية التبغ في جيبه، ويهرش جبهته بيده الطليقة:

– هذا هو السؤال الوحيد عملياً الذي لا أملك له جواباً.

– معرفة الجواب على هذا السؤال هو ما يميز الرجل عن الطفل.

تومئ الخياطتـان للشـاب كـي ينصـرف، فيغـادر المخـزن مطأطئـاً، مثـل كلـب أنّبـه صاحبـه. ومـا إن يختفـي مـن المحـل، حتـى تديـر الخيّاطـة الفتـاة نحـو المـرآة وتلمـح بذعـر كيـف أن الدبـابيس المتعبـة التـي تشـد الثـوب علـى الجذع راحت تطفر من القماش ضحية الاضطراب المفاجئ في نهدي آليا إيمـار وتصلبـهما كتصلـب قبضتيـها اللتـين تغطيـان عينيـها المغرورقتـين بالدموع.

– ماء. – تتمكن من قول ذلك وحسب قبل أن يغمى عليها.

- 4 -

بدا نقلُ عدوى حماسته إلى المتآمرين الآخرين وكأنه يسبب له راحة شبه صوفية. جاء شامخ الأنف، كما لو أنه يشم أمجاداً في الهواء، وحيا استيبان بغرس إصبعه السبابة في سرته.

- كيف الحال يا baby؟

أطبق الفتى رموشه بنعومة وتلذذ بالنسيم المفاجئ الذي جاء ليهدئ جبهته. وقال بعينين مغمضتين:

- لا تدعوني baby، أتريد ذلك؟

- ولم لا؟

- لأنها كلمة للأطفال.

- لا، ماذا تقول يا رجل! إنها كلمة إنكليزية.

- وماذا تعرف سواها من الإنكليزية؟

- One dollar mister, please.

- وماذا أيضاً؟

- Fuck you.

قاطع إستيبان أصابع يديه العشرة وفرقعها قبل أن يتمطى متثائباً. وقال:

- ما زلتُ مغرماً بآليار إيمار.

- لستَ المغرم الوحيد بها.

- ولكنها ستتزوج يوم السبت من دون جيرونيمو - من أجل المال.

- جيرونيمو العجوز لن يلبث أن يموت. وعندئذ سأتولى أمر الأرملة.

- عمر جيرونيمو العجوز خمسون سنة. فإذا حالفك الحظ ومات في الثمانين، فسوف يترك لك آليا إيمار وهي في نضارة ربيعها الخمسين.

- سأكون عشيقها إذن.

- لن يكون لديك وقت لذلك يا أخي. فالنمساويون سيُلبسونك غداً خوذة وبدلة عسكرية، وستموت في مصر منزوع الأحشاء على يد أحد المسلمين.

أحاط إستيبان الجزيرة بنظرة محترف، وباتساع من يتأمل قارة.

- لن يمسكوا بي.

-وكيف ستتمكن من ذلك؟

- سأهرب.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

- «أي مكان». إنه مكان رائع.

بعد أن أطلق حكمه الحاسم، مضى ماشياً باتجاه الحانة. لا بد أن تناقص حدة الشمس سيستمر لساعات طويلة قبل أن تخيم الظلال على الجزيرة. وعندئذ سيتأكد مما إذا كانت الاستراتيجية التي وضعها صائبة. فجماعة الجنود النمساويين ستتجنب الرسو في المرفأ حتى لا تمنح المجندين المحتملين فرصة الفرار. والأمر شبه المؤكد هو أنهم سينزلون إلى البر في خطم الخنزير، وهي الفرضة الصغيرة الوحيدة على الشاطئ التي يعرفها الأجانب، ومن هناك سيركضون سريعاً في صفوف حيث يتكسر زبد البحر، وخلال أقل من عشر دقائق، يداهمون الحانات ويقبضون على الشبان السكارى ويذبحون من يبدي مقاومة، لتأديب الآخرين.

لحق به استيبان راكضاً. فعض الأخ الأكبر على مقاطع كلماته دون أن ينظر إليه:

- آتدري ما الذي جرى لزوجة استاموس ماريناكيس في ليلة زفافها؟

- لقد سمعت ذلك ألف مرة.

- إذا كان جيرونيمو قد ورث عنه المتجر، فربما يكون قد ورث عنه كذلك موهبة قتل الزوجات. لقد سال الدم حتى الشاطئ.

- بالله عليك يا رينو، التاريخ لا يعيد نفسه.

- لو لم تترك المدرسة لعرفت أن هذا العبارة ليست صحيحة. فالتاريخ يعيد نفسه بصورة منهجية.

أمسكه إستيبان من ذراعه:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- أنا؟

- أنت والشباب. إنهم يحملون في أيديهم من السكاكين أكثر مما في ركبهم من القذارة.

- لا يناسبك أن تعرف.

- ولم لا؟

- لأنها مسألة تخص الرجال يا Baby.

- الشبان يبدون متوترين. أما أنت فتبدو هادئاً جداً. ما الذي سيحدث يا أخي؟

- سننصب لهم كميناً عند صخرة سانتا مارتا. المسافة هناك ما بين البحر والشاطئ ضيقة جداً، ولن يتاح لهم الوقت للتصويب ببنادقهم. سنقفز من الظلال ونشق قلوبهم مباشرة كي لا يتألموا.

أمسك استيبان بعنق أخيه وجعل من مرفقه عتلة ضاغطة إلى أن لم يعد بإمكانه استنشاق مزيد من الهواء.

- لن تفعل شيئاً من ذلك يا رينو.

تأخر دقيقة في استرداد أنفاسه وثانية أخرى في قذف بصقة عنيفة على قدمي المعتدي.

- هل أخافك ما سنفعله يا Baby؟

- أنا أخوك الأصغر، وعلي أن أحميك.

- ولكننا لا نبدو من الأسرة نفسها: فأنا تجري في شراييني الدماء أما أنت فعصير اللوز.

- لا بد لأحد في الأسرة من أن يستخدم عقله. النمساويون جيش، وليسوا عصابة قطاع طرق. سيذبحوننا جميعاً.

- ولكن ليس لهم الحق في إجبارنا على ارتداء الزي العسكري اللعين لكي يذبحنا بعد ذلك عدو لا نعرف حتى من هو.

- الشيء الوحيد الذي أقوله لك هو أنهم جيش لديه البنادق والمدافع وليسوا نادياً لصيادي الأحياء البحرية الذين يفتحون القواقع على الصخور.

داعب رينو حنجرته ونظر إلى الأفق متحدياً. لا شيء في المكان يبدو له غريباً. إنه مصنوع من هذه الأرض ومن هذا البحر.

قال مودعاً:

- سنلتقي.

أوقفه استيبان بمعانقة رقيقة لم يرفضها الآخر. كان لدى الفتى ثقة غريبة بقدرة إيماءاته على الإقناع، وكذلك بذكاء صمته، وبعمق نظرته أولاً وقبل كل شيء. انتزع فجأة المدية من حزام آخيه، وقال هامساً:

- من أجل مزيد من الأمان، سأستبقي السكين معي.

تقبل الشاب هذه المداعبة الأخوية وأكمل هو نفسه حركة الحنان تلك بمعانقته بمودة. ومشيا على ذلك النحو حتى مظلة الحانة. وتحت ظلها، مسح رينو عرقه، ووضع للمرة الثانية في ذلك اليوم إصبعه السبابة في سرة أخيه.

- استبق السكين معك يا baby. فلدي عدد من المدى الأخرى.

في الليل، وجد ثمانية من الشبان الذين أقسموا اليمين الوقت لينقلوا البيانو من صالون بيت السيد جيرونيمو إلى صالة لوسيرنا للحلويات، حيث سيقام أول عرض سينمائي في الجزيرة. إنها واحدة من العطايا الكثيرة التي أراد صاحب المتجر الأوربي أن يعرب بها عن شكره لأهالي الجزيرة لأنهم دخلوا طريق الاتزان وقبلوا به زوجاً لأجمل بناتهم، بعد أن وصم صاحب المتجر السابق، قبل عشرين سنة من ذلك، متجره بالعار والشؤم عندما تُوجت ليلة زفافه من مارتا ماتاراسو العذراء والشاحبة بتعليق صحفي أحمر في جريدة **لاريبوبليكا** تحت عنوان «دماء في القمر». ولم يتأخر مفسرو أغرام[1] ، الخبراء في المجازات، في حل لغز الإشارة إلى كوكب الأرض الثلجي في المقال بالقول: إنه ملاءة الطهارة.

كان جيرونيمو يفضل وصفاً بارداً، وتفصيلياً ومحايداً لما حدث في تلك الليلة المأساوية بدل الإسهال الغنائي للشراح والمفسرين خالقي الخرافات الذين أثروا بقذارتهم على خرافات الشعب التشاؤمية مما أبقاه هو في حجر عاطفي طوال عقد من الزمان، لم يرفع عنه حتى هذه السنة السعيدة من المهادنة وربما من الهدنة.

ولإدراكه مدى الألم الذي أثاره في القرية ذلك الطقس الجسدي بين ستاموس ومارتا، كان جيرونيمو يعتصم بصمت متكبر عندما يتناولون الموضوع، وهو سلوك مناسب جداً للتعامل مع الخبثاء، الذين يبدون وديعين وودودين وهم قريبون منه، ولكنهم لا يتورعون عن سلخه في الساحة.

---

[1] أغرام Agram: هي التسمية الألمانية لمدينة زغرب، عاصمة كرواتيا.

وبالرغم من كل ذلك، اقترف جيرونيمو خطأ تكتيكياً، عندما أثقل عليه حصار الصمت والسرعة التي تهرب بها الأمهات من متجره وهن يسحبن بناتهن اللواتي في سن الزواج، كما لو أنه ستاموس نفسه وليس ارتيابي سالزبورغ المثقف الذي ترعرع في رقة القراءات، فدخل إلى الكنيسة ليقدم للقس الألماني فرانز بريجل اعترافاً مستعجلاً.

وواقع أن التكلم مع الخوري بلغة عادية تتخللها بعذوبة عبارات ملغزة وقديمة، جعل جيرونيمو يشعر بأنه محمي بصورة رجل الرب هذا، ولم يضع عوائق أمام تدفق قلبه المجروح في فرن الاعتراف الحميم. وراح الأب العذب يشجعه ليستنفد أحقاده ومعلوماته، وتعهد له بأن يُدخله في علاقات عامة في جيما تتيح له الانبعاث والعودة إلى الحياة.

وعندما راود التاجر النمساوي التردد وغرق في صمت مكابر، أقسم له الأب بأنه يستطيع أن يتكلم ويبوح متمتعاً بكل السرية التي يضمنها بيت الرب، بغض النظر عن مزاج متلقي الاعتراف الذي حدد نفسه على أنه زاهد وصموت.

وفي رقة هذه الحميمية، في أوج انفعاله، قال جيرونيمو بصوت خافت وقور، إنه بينما كان يجرد البضائع التي هجرها ماريناكيس عندما هاجر إلى الصين، وجد يوميات حياة هذا التي تضم، لاحظ حضرتك أيها الأب، رواية ما جرى في ليلة زفافه المشؤومة تلك. ووقوع مثل هذه الوثيقة أيها الأب بريجل، في أيدي شخاخ الحبر في جريدة **لاريبوبليكا** سيشكل حفلة تشهير ونكأ للجراح، مما يمثل اعتداء على أخلاقياته ورغبته المشروعة في الزواج من وطنية دون أن يحملوه بصورة سوداوية مسؤولية موت مارتا ماتاراسو.

سأله القس أين هي تلك المذكرات الثمينة، فبادر جيرونيمو إلى إخراجها من جعبته ووضعها بين يدي الرجل القديس. فتلقاها هذا بوقار، وخبأها بتواضع تقريباً بين طيات غفارته ذات اللون الأحمر القاني.

– أظن أنك ألقيت عليها نظرة ما.

– بل قرأتها من البداية حتى النهاية عدة مرات.

وماذا تقوله لي عنها؟

- الأسلوب هو خاص جداً بشخص عُمِّد في قرية قليلة التحذلق بلقب **فاتح العلب**، ولكن ربما بسبب الوضع الذي أجد فيه نفسي لا أستطيع أن أقرأ الصفحتين الأخيرتين دون أن أبكي.

- وما الذي تقولانه يا رجل؟

- «لقد كانت مارتا سعيدة، سعيدة بلا حدود»

هذا خبر لا بد أنه سيُسعد ذويها، وكيف ينتهي الكراس؟

- إنني أحفظه عن ظهر قلب يا أبتاه. «لم يعد لحياتي أي معنى الآن. وإذا كان جمع الثروات المادية هو هاجسي في أحد الأيام، فإنني لم أعد أهتم الآن بامتلاك حبة خوخ. وهذه الصفحات لا تعني لي أي شيء كذلك. لقد كتبتها من أجل مارتا، وبغياب من هي موجهة إليها تفقد كل قيمة. الأمر الطبيعي هو إحراق هذه اليوميات، ولكن الوهن يستنفدني. فلتبق هنا بين أنقاض كثيرة في المزبلة التي كانتها حياتي.»

مشى القس حتى الرف وملأ قدر إصبعين من النبيذ الحلو. قدم كأساً إلى الزائر ولمس كتفه بيده الطليقة.

- إنك تبكي يا سيد جيرونيمو.

مسح هذا وجهه بظاهر يده ثم أنزلها إلى قلبه.

- إنني أفكر بما يمكن أن أفعله إذا ما حدث مثل هذا لحبيبتي آليا إيمار.

- إياك من الوقوع في الخديعة أيها الصديق الطيب. ارفع هذه المعنويات، فالقرية كلها تنتظر زفاف القرن.

وفجأة، تهاوى جيرونيمو بصورة مباغتة وصاخبة لا تتناسب مع نبرة الحوار حتى هذه اللحظة، واحتضن بإلحاح ركبتي القس:

- أخبرني بأمر واحد يا أبتاه، هل تحبني آليا إيمار؟

- إنها تحبك بالتأكيد يا بني. انهض.

فرك الرجل جبهته بيأس بمسوح الكاهن:

- وكيف تعرف ذلك؟

- الجميع يعرفونه. فأنتما ستتزوجان.

- الجميع ليسوا أحداً! أنت وحدك من يهمني! فلا بد أنها قد

أخبرتك بالحقيقة في الاعتراف!

انتزع القس نفسه من هذا العناق غير المعهود، وعاد إلى الرف ليسكب في هذه المرة جرعة له وحده.

– لم نتحدث في هذا الموضوع قط. ولو أنها قالت يوماً في اعترافها أدنى كلمة عنك، فإنني لن أرددها. فسرّ الاعتراف هو الذي يوجه بيت الرب هذا. كل ما قلته لي هنا، أُودع في قلبي، وفمي سيكون قبراً أمام الجميع.

نهض صاحب المتجر الأوربي واقفاً وليس به من الهمة ما يكفي لنفض ركبتي بنطاله.

– احرص على حفظ سرّ مذكرات ستاموس ماريناكيس.

– لا تقلق يا دون جيرونيمو.

– هذا هو الاحترام الأخير الذي ندين به لذلك الرجل عاثر الحظ.

– فليساعده الرب أينما كان.

في تلك الليلة لم ينم جيرونيمو وهو يبحث عن رفقة الرب في الطبيعة، إذ بقي يصطاد كويكبات في السماء المفعمة بالنجوم. وبينما هو مستلق على الشاطئ ثبت بصره على القمر وبدا له أن أشكاله تُظهر أحياناً وجه شابة ميتة. أعار انتباهه لبقبقة الأسماك الليلية وتوقف نظره على موقد مشتعل في جزيرة مجاورة. لقد حولت المحادثة مع القس ريبته إلى كرب لا يمكن لغير الزفاف أن يخلصه منه.

في الفجر، عندما كان ثملاً بالبحر والقمر صعد الدرب المبلط بالأحجار إلى بيته يلاحقه صياح ديك صاخب، وانفجرت في عينيه كتابة بالأسود تغطي كامل الجدار الأيسر لدكانه: «ستاموس ماريناكيس، متبجح كاذب».

وبدلاً من أن يحطم باللكمات باب معبد الخوري ناكث العهد، أحس بأنه مثقل بالخيانات والمآسي، فوضع شفتيه على تمثال صغير لمريم العذراء، مضمخاً شفتيه بجص ذليل يمثل شخصية سماوية، وصلى بحرقة إلى الرب طالباً أن يمنحه الشجاعة ليغفر الإساءات التي يتلقاها حتى من كهنته بالذات. ودون أن يحدث أي شيء موحٍ، التقط بصره

عندما فتح عينيه رسماً لنيويورك فوق فراشه. ومن قمة أعلى ناطحة سحاب في العالم كانت تطل يد تلوح بإيماءة داعية إلى المدينة. فأراد الرجل، في لحظة كربه، أن يؤكد لنفسه بأن تلك هي الإشارة التي تقدمها له السماء. لقد ألهبت تلك الصورة دماغه وأفهمته بأنه ليس هناك أي سبب لبقائه مكبلاً إلى جيما، هذه السفينة ذات المجذفين القساة والكارهين للأجانب. سيتزوج من آليا إيمار ويضع نقطة النهاية لوجوده في هذا الدمل المتقيح في جنوبي أوربا، ليذهب إلى تلك الأرض المجهولة بصورة لامتناهية في العالم الجديد، ويغادر نهائياً هذا العدم الكامل والمطلق بالمقارنة مع الكون.

– 6 –

السبت ستقام حفلة الزفاف، والأحد سيبحر مع حبيبته إلى أقرب مرفأ إيطالي، وإذا ما كانت السفينة التي يبنيها له منذ شهور بيزارو هي حقاً مثلما وعده هذا النابولي البارع، فسيواصل الرحلة فيها إلى نيويورك دون أن يخشى جبال الجليد في الأطلنطي.

قاده قلق مفهوم تماماً بقدر ما هو مثقل إلى ترسانة بناء السفن. كان العمال منهمكين بحماس في إنهاء السفينة، وبادر خيرنيمو المهندس الإيطالي دون مقدمات بالسؤال القاطع عما إذا كان، حسب رأيه العليم والخبير، بإمكان سفينة الأخشاب الفاخرة والقاعدة الفسيحة التي ينهي العمل بها، أن تصل حقاً إلى شواطئ العالم الجديد. وكان بيزارو قد راهن معلمه في تراسانات كوبنهاجن متبجحاً بأنه إذا ما أضاف مواد من نوعية جيدة، فإنه سيتمكن من بناء سفينة قادرة على الوصول حتى فينسيا بعد ليليتين من الإبحار. في أثناء برهة الصمت التي تكلفها النابولي قبل أن يجيب، تمكن من سماع دقات قلب جيرونيمو القوية، فقرر أنه لا بد لجوابه من أن يتضمن معنى حذراً وإيجابياً.

– بهذه السفينة يا سيدي، يمكنك الوصول من هنا حتى فينسيا، ومن هناك تستطيع أن تركب عابرة محيطات إلى نيويورك.

– وهل يمكنني يا بروفسور بيزارو أن أحمل سفينتي في عابرة المحيطات؟

رمش النابولي البارع، وهي حركة طالما أتاحت له أن يحول ما هو مالح إلى شيء صالح للشرب. ثم تنحنح، مدركاً أن حفلة الزفاف ستجري يوم السبت وأن أجر معلم الترسانة سيأتي بالتالي مرفقاً مكافأة دسمة، وقال بمهابة:

- هذا ممكن نظرياً.

وقبل أن يسأله المليونير مثلما يقتضي الموقف عادة «وماذا عن الناحية العملية؟»، وجه إليه المهندس فوراً سؤاله عما إذا كان قد قرأ في **لاريبوبليكا** هذا الصباح القصيدة *الرائعة* المهداة من «مجهول» إلى خطيبته آليا إيمار. ولخشيته من أن تكون القصيدة الغنائية من المستوى الفظ نفسه للكتابة ضد ستاموس، طلب من بيزارو بنبرة متوعدة أن يُسمعه دون مزيد من التسويف تلك الأبيات الشعرية التي بهرته.

- إنني عاجز يا سيدي عن ترديد تلك المقاطع الشعرية المبهرة. ولكنني بعد الإخلاء الصباحي علقت في خطافٍ في المرحاض نسخة اليوم من الجريدة. فإذا ما كنت راغباً في التخفيف عن نفسك، فإنني مقتادك إلى الحمام، حيث يمكنك أن تتأكد بنفسك في أثناء ذلك من أنه قد أُنجز بكل أبهة وفخامة، بما في ذلك المرايا الألمانية وأخشاب المانيو[1].

أحس جيرونيمو بأنه محصور بإسهال عرضي أحدثته العناية الإلهية، فمضى بما يشبه الاحتضار، مستنداً إلى كتف الإيطالي، حتى المرحاض. أقفل المزلاج متنهداً، وأنزل بنطاله بسرعة ثم التقط **لاريبوبليكا** عن الخطاف، وركز كل اهتمامه فوراً على الملحق الأدبي.

آليا إيمار

آليا إيمار هو اسمك.
ولكنني «إلى بحر» أريد تسميتك.
لحظة هروب متأججة اختلستها منك
بعاطفة، بظرف، وفن.

ولدتِ جميلة وعفوية
برقة غيمة.
ترعرعت متكبرة وحكيمة
مثل شجرة أرز شامخة.

---

[1] - مانيو mañío او mañiu: تطلق في تشيلي على أشجار حراجية تشبه الأرز، اخشابها ثمينة ومرغوبة.

اليوم لسعادة آخر
يمضي جسدك إلى الزفاف.
ستكونين وليمة الغول
وآلام فتاكِ المراهق.

فلتأت العاصفة من السماء
لتقلب قَدَرَكِ.
نظرة حجرية زرقاء
تبكي كوبالتاً في الغابة.

قبل أن يسمح لنفسه بالذعر من هذه الأبيات الجارحة، تفحص المعلومات التي تساعده في التقصي: مبدع هذه المادة التي كشريحة جامبون، لا يحتفل من مزاياه إلا بخصلتين، أولاهما أنه شاب (اقرأ قوله: «فتاك المراهق») وأن له عينين زرقاوين (يبكي «كوبالتاً» في الغابة). ومن غير المحتمل أن يكون قائل الشعر متفقاً مع خطيبته على الهرب قبل الزفاف، ذلك أنه يبدو حالماً أكثر منه عملياً. فالهروب المحتمل يمكن أن يحدث إذا «أرادت السماء»، هذا يعني أنه يوكل الأمر العملي إلى ربنا، والرب في منزلة تفرض عليه أشغالاً مستعجلة كثيرة لا يتسع له المجال معها للاهتمام بتضرعات استمنائية لمنشد أبله.

وكون الهروب المفترض لا يعدو أن يكون أكثر من خطابية بحتة، تؤكده معلومة أخرى في القصيدة الغنائية، فهو يعتبر أن ليلة زفافها ستتم مع منافسه دون أن يترك مجالاً للشك في هذا التأكيد الحاسم: «ستكونين مأدبة الغول وآلام فتاك». وهذا يعني أنه ما لم تحدث معجزة، فإن الشاعر المحبط لن يجد عزاء آخر لتخفيف أحزانه سوى الاستماع في الغابة إلى صرير نوابض العروس المشبعة بالشهوة عندما يمتطيها زوجها الفحل محلقاً في الطريق إلى السماء. (وصحح ما قاله: «رباه، لا تأخذ هذه العبارة بمعناها الحرفي»).

المعلومة الثانية تشير إلى أنه شخص لا يجيد التحريات والتشمم؛ فقد قدم الأشعار إلى الصحافة، وليس هناك سجين يود الهرب يرسل بياناً إلى مدير السجن يتغنى فيه بمآثره اللاحقة. والمثل العالمي عن «الكلب

الذي ينبح»[1] يأتي هنا في موقعه المناسب تماماً.

النتيجة: ليس هناك ما يستدعي الغم. وأنزل بحماس الورقة التي تضم القصيدة إلى مقعد المرحاض المصنوع من الخزف النمساوي، ومسح بها مؤخرته، وبعد أن فرك كل مليمتر من إليتيه ببقايا مقطوعة الشعر الخامدة الفانية، نهضٍ واقفاً، وشد الذراع الذي من الخزف الإسباني، وأمعن النظر في الماء المالح الذي تدفق في شلال حلل بصورة متوازنة النص الشعري والبراز في منتج واحد مشبع بالماء ليصبا معاً في البحر الأدرياتيكي دون أن يتركا أثراً على البورسلين.

---

[1] إشارة إلى مثل مشهور يقول: «الكلب الذي ينبح لا يعض».

كانت آليا إيمار التي ظهرت في الصورة الملتقطة في صالة لوسيرنا تجلس على كرسي ذي مسند، متشحة بثوب من الحرير الأصفر الليموني، مُعدّ بدهاء، بحيث يبدو أن مهمته ليست تغطية النهدين والخصر والإليتين بقدر ما هي بعث أحلام جيلين من الرجال، ممن كانوا موالين للعادة المتناقضة في الهيام بها والقول إن هذه المرأة ليست لهم. فكمالها لا يمكن هدره وتبذيره في هذه الجزيرة الصغيرة المعروفة بكروم أعنابها وزيت زيتونها ومعيزها الأليفة ونبيذها الحلو.

عندما بدأ جيرونيمو حصاره لأنطونيو ومجدلينا بحمله إليهما بضائع من السفن القادمة حديثاً: سترات بديعة من المخمل اللامع للأب ومشدات ناعمة المرونة للسيدة، أحس شبان الجزيرة بالطمأنينة لرؤية قدريتهم تتحقق: فقد كان تصورهم لها على أنها بعيدة المنال للجميع أشد رهبة من تصورها حبيبة لواحد فريد بين نظرائه.

ويظهر في الصورة إلى جانب آليا إيمار أبوها أنطونيو، بقصة شعر قام بها حلاق جاء إلى البيت بمقصات عالمية، وبدلة زرقاء من الكشمير الإنكليزي ملطخة بخطوط دقيقة حمراء تبرز من صدرها ربطة عنق حريرية صافية، والخنصر متوج بخاتم تقدر التقولات أنه يزن نصف ليبرة من الذهب، وسيجار ثخانته ثلاثة سنتمترات تحت الشنب الإمبراطوري. وفي اليوم التالي جرى وصف مجمل هذه الأشياء في **لاريبوبليكا** بعبارة رحيمة تقول: «كاريكاتير مليونير».

أما صورة زوجته مجدلينا بالمقابل فتقدم درساً في التواضع: ثوب بسيط من القطيفة، وحذاء واسع جدا ذو كعب متوسط، وعقد لآلئ خضراء يتناسب بصورة بديعة مع لون عينيها، وقبعة بيريه سوداء محبوكة

بالسنارة. تتدلى منها إلى منتصف الجبهة شبكة خمار تغطي بصرامة بلاغة نظراتها التمثيلية.

وفي الصف نفسه، تظهر حفنة من الغرباء المتعجرفين ممن نزلوا من السفينة التي أحضرت مؤونة حفلة الزفاف، وهم يروون نوادر بالألمانية والإنكليزية ويحتفلون بها بالضرب على ركبهم ومسح عرقهم بأكمام بدلاتهم وبمناديل مضمخة بالكولونيا.

ويظهر جيرونيمو بالقرب من عازف البيانو الهنغاري آدم بوليزر، المقيم منذ سنوات في سواحل ماليسيا والمعترف به في الأرخبيل على أنه كائن سابق لكل تاريخ، بلا جغرافية ولا لوزتين، وليست له علاقة بهذه النزاعات القديمة التي تنتهي عادة بعمليات ذبح. وهو يعزف ألحان «على الموجة»، و«مسيرة الزفاف»، و«آي يا مريم» في أوساط الحياء المهذب، وأي ترهة من ألحان التورومبا في الأوساط الشعبية، ثم ينصرف مبحراً في أول مركب مع الفجر وهو يحصي الأتعاب والإكراميات التي دسها الراقصون السكارى في قبعته.

لم ينس جيرونيمو أن يغمز بعينه لعروسه ويشير لها بإيماءة من حاجبيه بأن تُنزل تنورتها فوق فخذيها قليلاً، لأن بشرتها تشتت انتباه الضيوف كثيراً.

وتُظهر الصورة أخيراً حشد الألوان غير المتناسقة على المقاعد التي بلا مساند المجلوبة من الكنيسة، وهي تبدأ من الصف الثاني حتى الثامن، وكل الملابس نظيفة وبائسة، متآلفة تماماً مع خشب المقاعد الذي تتزاحم عليه خلال قداس يوم الأحد.

وقرب الباب، كان يقف، فريسة التوتر، مراسل **لاريبوبليكا** موجهاً نظرات ساخطة نحو راعية الحفل والمشاهدين المتشككين الذين يتراهنون بأن الأكاذيب التي يتضمنها شريط السيلوليد، ستكون كما يقال «سيئة بصورة مثيرة لليأس»، ومجرد حيل سحر صبيانية للأولاد.

هو وحده يمكنه أن يحدس مسبقاً بالقشعريرة التي ستحول هذه الكتلة البربرية إلى هلام مكهرب عندما يصوب الممثل جورج بارنس في نهاية **«سرقة القطار الكبرى»** مسدسه نحو الجمهور ويطلق النار. فقد

كانت الشركة الموزعة قد دعته خصيصاً منذ شهور إلى العرض الأول للفيلم في مدينة أغرام، وأدت بعض المشاهد حينئذ إلى حالات من الإغماء والصدمات القلبية حتى بين تلك الكائنات التي وصلت إليها نسبياً عدوى هواء القارة الثقافي.

هذه التجربة أتاحت له أن يصف في طبعة يوم الأحد من جريدته بذهول نموذجي قصة الفيلم، وأن يؤكد كذلك على بعض المظاهر الثورية للفن السابع، متحدثاً عن الكادرات، ومحتفلاً باللقطات التي يحاكي بها بورتر المشاهد المصورة مواجهة، مثلما في المسرح. ثم توسع في التفاصيل حول حادثة مطاردة اللصوص على الخيول، موضحاً ما تعنيه لقطة في العمق من خلال اقتراب الممثلين أو ابتعادهم نسبياً عن الكاميرا. وكان يرغب في كتابة تلك الانطباعات، الجديرة بالتايمز، من أجل جناة اللوز البسطاء في جيما بالرغم من أنهم ما كانوا سيفهمون كلمة واحدة، لأنهم أولاً وقبل كل شيء، لم يشاهدوا السينما مطلقاً من قبل. ولن يتمكنوا بالتالي من فهم التجديدات الكبرى التي يحققها المخرج بورتر.

ومع ذلك فإن هذه التقلبات كانت تقلقه أقل من «الكادر» الواقعي الذي حوله: فقد كان هناك حوالي عشرين شاباً، تتسدل أذيال قمصانهم بفنية فوق بناطيلهم، يفسدون لسبب غامض العادة العريقة بدس القمصان في البناطيل. وكانوا يبدون مثل خدم الكاهن، ولكن النظرة الثلجية العاصفة، شبه الكبريتية التي ينثرونها تحديداً لا تضفي عليهم مظهراً ملائكياً. قرّب الصحفي بافلوفيتش أنفه من رينو كوبيتا الذي كان يبدو أشدهم اندفاعاً، وسأله مباشرة عما يحدث.

فقال رينو:

- سينما.

وحدد بافلوفيتش:

- هذا بالنسبة للخراف. ولكن ماذا بشأن الذئاب؟

وصوب بصره نحو جماعة الشبان المستندين بظهورهم إلى جدار صالة لوسيرنا ثم لمس بخنصره الكتلة المعدنية البارزة تحت قميص رينو عند مستوى الحزام. فابتسم رينو بسخرية.

- لا أصدق يا بافلوفيتش بأنك قد تحولت منذ بعض الوقت إلى مخنث.

- إنني أحمل الصحافة في دمي وسأحاول أن أبقى حسن الاطلاع دوماً حتى ولو أدى بي التهور إلى فقدان إحدى عيني، وحتى لو أهانني أحياناً متعنتر مثلك.

فكر الشاب هنيهة وهو يختم شفتيه بسبابة يده اليسرى، وتفحص الصحفي برمشة عين وجمّد مرة أخرى الابتسامة على وجهه.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- الحمولة.

- ماذا تريد بالتحديد؟

- أهي خناجر أم مسدسات؟

فأمسك رينو كلتا يديه وهزهما بحركة تاجر إيطالي.

- ومن أين لنا المسدسات يا رجل؟

- إنها «خناجر» إذن.

- وحادة «جداً».

انتظر الصحفي إلى أن تخلص الشاب من ابتسامته وعندئذ، بلل شفتيه، ووجه سؤال القرن (بالنسبة إلى حياته المهنية).

- أين، ومتى، ومن؟

أدار له رينو ظهره وخرج ليأخذ جرعة من الهواء. كان الظلام قد خيم. نظر بافلوفيتش إلى اتساع الليل، وترك رجع البحر الرتيب وحده مسموعاً.

- رينو؟

- هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك.

سُمعت في الصالة أول نغمات الموسيقي الهنغاري وهو يجرب البيانو. أطفأ أحدهم النور وانطلقت صرخة تهيج طبيعية أكثر مما هي متصنعة جعلت مؤخرات القريبين منه تستند إلى حافة المقاعد. فهز بافلوفيتش كتفيه بلا مبالاة.

- ربما كان هناك شيء لا تسمح لك حداثة سنك بإدراكه بعد. فهناك الأحداث والتاريخ. وإذا لم تروَ الأحداث، إذا لم يكن هناك من يعرضها،

فإنها تصبح بلا معنى. ومن أجل هذا نوجد نحن الصحفيين.

- هيا! لو لم تكن هناك أحداث لما وجد الصحفيون ما يكتبونه.

- بالفعل، كنا سننشر قصائد. وبالمناسبة، إذا ما عرف جيرونيمو من هو مؤلف نص اليوم الشعري، فسوف يقع حدث يسبب لك مشكلة تاريخية.

- لقد كانت قصيدة مغفلة.

- مغفلة جداً إلى حد أن مؤلفها نفسه سلمني إياها باليد.

أبعده رينو بدفعه جانباً ثم حرّك راحة يده اليمنى على وجهه.

- لا تكن مبتزاً يا بافلوفيتش.

- ليس لدي شيء ضد أخيك، اللهم إلا اشمئزازي من أسلوبه. ولكنني أريد أن أروي القصة لأنني معكم.

- مع من؟

- مع أي كان. لا أطيق النمساويين حتى وهم في فيينا، وأقل من ذلك وهم في بلادنا.

- لن يجندوك وأنت في هذه السن. فماذا تخاف؟

- هناك أشياء أكبر منا يا رينو. الوطن مثلاً.

احمر الصحفي شاعراً بأن حمرة الخجل تكهرب آخر شعرة منه. فقد نطق بجملة شديدة الزيف والتكلف نفر معها العرق من جبهته مثلما ينفر قيح مفاجئ. تطلع باتجاه محيط الميناء، دون أن يتمكن من إقناع نفسه بأن هذه الأرض البدائية هي «وطنه». ولماذا يهتم قيد أنملة بهذا القفر؟

لم يتصور مطلقاً أن يكون لهذا الخطاب المُحلى مفعول في نفس الزعيم المتمرد الذي كان ينظر إليه بعينيه اللامعتين والرطبتين، وتنحنح قبل أن يدلي ببيانه الخطير. وهمس به في أذنه:

- قبل أن ينتهي الفيلم... عند صخرة سانتا مارتا.

ربت بافلوفيتش بمودة على خده الأيمن، وانتهى معلناً:

- ما تفعله الآن هو «الوطن» و«التاريخ».

– 8 –

عند بداية العرض السينمائي بقي رينو واقفاً إلى جانب المتآمرين الآخرين محاولاً تجاهل الاستعراض بالتكتم الريفي لمن يعتقد بأن الواقع ينتهي حيث ينتهي جسده. ولكن بقدر ما كانت قصة الفيلم تتصاعد في تناوب من اللقطات جماعية واللقطات القريبة لوجوه الممثلين، راح يستغرق في سحر شديد الجاذبية حتى أنه تهاوى على حافة المقعد الخلفي إلى جوار طوباويات العرش العالي، وشارك بفمه المفتوح مجموع المثتي فك متهدل التي دوّن عنها بافلوفيتش ملاحظة في مفكرته. وإلى جانب كلمة «فك»، التي تسبب له لذة خاصة، خطر له سطر ليكون عنوان مقالة الغد: «الليلة المزدوجة. *طلقات نارية زائفة في السينما، وسكاكين حقيقية على الشاطئ.*»

على الشاشة المهتزة بإفراط عازف البيانو الهنغاري في الإرتعاش، كان مهاجمو القطار يجبرون المسافرين على الترجل، ويسلبونهم ويقتلون واحداً منهم حاول الهرب، وهو حدث تسبب في صرخة استنكار جماعية من المشاهدين، بمن فيهم رينو كوبيتا.

بعد ذلك يصعد قطاع الطريق بغنيمتهم إلى القاطرة ويجبرون سائق القطار على الانطلاق بها ويختفون في البعيد. تتوقف القاطرة. ينزل اللصوص ويبتعدون عنها بسرعة. يجتازون جدولاً وتبدي الكاميرا الرائعة الخيول التي تنتظرهم تحت الأشجار. يمتطونها وينطلقون في الجري. وفي اللحظة التي يبدو فيها أن إفلاتهم من العقاب صار مؤكداً، تدخل ابنة عامل التلغراف إلى المكتب، وترى أباها الذي قيده قطاع الطريق، فتحرره من الأربطة. ثم يظهر هذا في صالون «الفار ويست» ليجند رجالاً. تنتهي الحفلة في الصالون. ويمتطي الزبائن خيولهم ويمضون في أثر اللصوص، وبنادقهم مهيأة. عند تل مغطى بالشجر يبدأ تبادل إطلاق نار ما بين

قطاع الطريق على خيولهم والأخيار بمسدساتهم الكولت. تتم محاصرة المجرمين، وبعد صراع يائس يعتقلونهم. وفي هذه اللحظة، يلتفت جورج بارنس، زعيم الأشرار، ويصوب مسدسه إلى الجمهور، فيختبئ أبناء الجزيرة في قاعة العرض تحت المقاعد. بمن فيهم رينو كوبيتا.

يضرب عازف البيانو بقبضته ثلاث مرات بقوة أكثر مما هو ضروري للتأكيد على إطلاق الرصاصات، وفي أثناء هذه الخبطة البطولية على طريقة تشايكوفسكي يتحمس المشاهدون للنهوض، ويضيء مشغل الجهاز الأنوار، وتحيي عاصفة من التصفيق جيرونيمو فرانك، الذي أحضر لأول مرة إلى الجزيرة هذا الفيلم مسبب الاحتشاءات القلبية.

تواصلَ التصفيق دون أن يخفَ زخمه لعدة دقائق. فطلب جيرونيمو من خطيبته أن تقدم الشكر لذلك التشجيع كما لو أنها بطلة الفيلم. انحنت الفتاة بمرونة شديدة جعلت نهديها الأصفرين اللامعين، بسبب القماش يضاعفان حماس الزبائن. بمن فيهم رينو كوبيتا.

لقد استغرق الشاب في غيبوبة تامة أبقته مشدوداً إلى الشاشة لوقت طويل بعد تلاشي الصور عنها، وكانت الصور تتوالى بعناد على شبكيتي عينيه. وفجأة، كما لو أن أصماغ الفيلم قد بدأت تتحلل على خديه، انفجر بالبكاء بصخب وعويل طفل، ساكباً دموعاً تتناقض مع سنه وطبيعته الرجولية. هرع الزبائن لمساعدته بكؤوس ماء ومناديل، وتقبلها الشاب بخمود من رأى موت أحد أفراد أسرته الأقربين وصار بحاجة إلى عطف ودفء نصف العالم. داعبوا شعره، أسندوا رأسه إلى وسادة، بثوا فيه الحيوية بجرعة من السليبوفيتش، وحتى آليا إيمار نفسها مسحت جفونه بأصابع باركتها مسبقاً بلعابها اللذيذ.

وعندما صار بإمكانه صياغة عبارة، بعد شرب كأس الخمر والتنفس بعمق، توصل فقط إلى القول:

- لم أرَ... قط... ما هو... أجمل... - قبل أن ينفجر مرة أخرى في البكاء باختناقات واحمرار حساسية في بشرته.

ولكن هذا المشرف على الموت ما لبث أن قفز عن الأرض بالنشاط نفسه لأولئك المهرجين الخشبيين الذين يقفزون بنابض عندما تُفتح علبة المفاجآت، وبحث عن رفاقه في المؤامرة بيأسِ ناجٍ من الغرق.

انتضى الخنجر وعوى على الليل المفعم بالنجوم وانطلق يركض بصدره المدفوع باتجاه الشاطئ. عارُ تخلفه جعله يلهث ساخطاً، والخوف من أن يكون قد ورط مواطنيه في كمين يمكن أن يكون قد أخفق جعل أنفه ينّزف. وكلما ركض أكثر، ازداد خوفه من أن يكون الشبان، بغياب أوامره التكتيكية، قد جُزروا برصاص رماة البنادق النمساويين.

- 9 -

منذ وصوله إلى الأرض الحصوية الكلسية فوق المحجر، رأى فتيانه يلتفون حول موقد، صدورهم عارية، وقمصانهم البيضاء مركونة على الحجارة، ونظراتهم معلقة بتذبذب ألسنة اللهب. عندما قفز المترين الأخيرين ليسقط بجوار الموقد، لم يوله الشبان أكثر من رفة عين ثم عادوا بعدها إلى النار العنيدة التي تستغرقهم. اقترب من رولاندو، وهو الوحيد في رأيه الذي يجاريه في الشجاعة والتصميم، وطلب منه أن يخبره بما جرى.

- لقد قتلناهم.

وانتبه رينو الآن إلى أن كل واحد منهم قد غرس خنجره في الرمل عند قدميه. ولم يبادله أي واحد منهم النظر عندما جال عليهم واحداً واحداً طالباً أعينهم.

انتزع خنجر رولاندو وضغط بيده على نصله فتدفق الدم من أصابعه. وأعاده لصاحبه مقدماً إليه مقبضه وهو يشمخ بذقنه:

- اذبحني.

التفت الشبان إلى المشهد كالمذهولين، وكانوا بكماً، محشورين في ذلك الصمت الخاص المختلف كثيراً عن الصخب الصبياني الذي يشاركهم به رينو عادة. تفحصوا اليد الممدودة النازفة، ومقبض السلاح المقدم بعذوبة تقريباً، ثم موقف رولاندو غير المبالي الذي، بدلاً من أخذ الخنجر، مسح أنفه بذراعه ونشق بقية ما يسيل منه وابتلعه. وعندئذ تقبل المدية، لمجرد أن يغرسها ثانية في الرمل.

اتجه رينو نحو الموقد وركل الأغصان المتحولة إلى جمر مثيراً موجة من الشرر بلغ بعضها أتباعه.

- ألن تكلموني أيها البراز؟ أين هي الجثث؟

أشار له رولاندو بذقنه نحو السفينة الشراعية واستلقى على ظهره، ووجهه نحو النجوم. ألقى الشاب كوبيتا قميصه على الرمل، وتخلص من حبل تثبيت بنطاله الذي من أطلس رمادي، وخاض عارياً في البحر. لم يقبل رونالدو أن يذبحه ولم يعد من الممكن بأي حال الآن أن تمتصه دوامة طحالب وهياكل طيور متفسخة وتُغرقه في ذلك الفراغ حيث لا يعود التفكير مؤلماً.

تسلق إلى السفينة على سلّم الحبال الذي في الميمنة وعندما بلغ السطح داهمته صورة تلك الدزينة من الجنود المبعثرين، الخامدين ما بين سلسلة المرساة ومنتصف السفينة، مجرد حمولة بلا قيمة، أشبه بأكياس مملوءة بنسالة قنب. اتجه إلى المقدمة ومن تلك الزاوية التي توفر رؤية ممتازة شاهد دفة القيادة وأحس بدافع يدفعه إلى الإمساك بها بأصابعه الدامية.

صعد الدرج الصغير حتى جسر القيادة يلاحقه إحساس بوجود من يتنفس على متن السفينة، وكأنه صدى للهاثه. حمد تهوره بأن سبح وهو يضع السكين بين أسنانه مثلما يفعل حين يخرج للغطس مع استيبان في أسابيع موسم الصيد، ويستطيعان أن يريا في كثافة البحر رماحاً ذات ثلاث شوكات، ودلافين وحوريات بحر، وكذلك قناديل البحر التي تبدو مثل أميرات ولكنها تخنق بكتلها اللزجة بطل الحكاية عندما يدنو منها بشفتيه ليقبلها. لمس الدفة بتوقير مقدس فخطفه خشب محاورها المصقول إلى عالم آخر، ليس فيه أي شيء واقعي مثل نيويورك التي سببت الجنون للجميع، وإنما إلى مملكة مماثلة لممالك الحكايات، حكايات السينما، السينما اللعينة التي شغلته ووصمته الآن بالجبن والخيانة أمام رجاله أنفسهم. عندئذ ناداه صوت شديد السرية.

- رينو؟

الانتقال من البريق القمري إلى العتمة التي جاء منها اسمه أصابه بانبهار مقلق. وبعد عدة ثوان من ذلك فقط تمكن من رؤية استيبان يعانق جندياً نمساوياً. قرّب رينو أصابعه من خد أخيه وأحس به ملتهباً بالدموع. ثم رأى أن الشاب الآخر ينتحب أيضاً ولكنه يرفق ذلك بالنفخ بأنفه والارتعاش. كان أخوه يمسك خنجراً بيده المتشنجة. مما يعطي الانطباع بأنه قد بقي وقتاً طويلاً في ذلك الوضع. أمسك رينو رأسه بكلتا يديه وقبله من شعره.

- أأنت جريح يا تيبي؟

- لا يا أخي.

- لماذا تبكي إذن؟

وكان السؤال بمثابة صاعق لكي تفجر تلك الدموع الوجه بالعويل. وفقد الفتى النمساوي كذلك التحكم بأحزانه، فارتعش جسداهما معاً بالنحيب والأنين. شد استيبان أخاه إليه في عناق مؤثر:

- لاتقتله يا رينو.

عندما سمع الرجاء، تفحص الجندي بحذر. له عينان قاتمتان، وأنف مكور، وهو بدين بعض الشيء مثل أولئك الأطفال الذين يمتلئون شحماً في مرحلة الانتقال إلى المراهقة. وكان يبدو نموذجاً كاملاً لابن أمه المدلل، أما بدلته التي ما زالت مزررة حتى الزر الأخير من سترتها، فلم تكن تبدو واقعية. وكان قد ذكّر رينو قبل ذلك بدمية خشبية في طفولته.

- ما اسمك يا فتى؟

- وولف.

- وماذا أيضاً؟

- وولف ميخائيل بريتسليك. من غراز.

- لا أعرف أين يقع هذا المكان.

- في النمسا.

- وكيف تعرف لغتنا؟

- إنهم يعلموننا إياها قبل أن يرسلونا إلى هنا يا سيدي.

أمسك النمساوي بيد رينو الدامية ووضعها على خده. وعندما أراد هذا الأخير سحبها، قبلها الفتى بخشوع.

- لا تقتلني. أرجوك.

تخلص رينو من هذا المتودد بقوة واتجه إلى نافذة الميسرة. تمكن من رؤية الموقد على الرمال، والاثني عشر متآمراً، المستحيلين، البعيدين، كما لو أنهم آتون من مجرة أخرى. ولكنه كان يعرفهم مع ذلك منذ الصغر، فقد لعبوا معاً بكرة السلة، والدومينو، وشاركهم في حل الواجبات المدرسية، وترتيل الأناشيد الوطنية، والرقص مع شقيقاتهم، وتبادل الكلمات تحت أشجار الليمون، والسرقات الصغيرة من المخزن الأوربي. وها هم الآن يبدون غرباء في وضعهم ذاك تحت شحوب القمر المتسلط.

اقترب استيبان منه ورفع ستارة النافذة المستديرة. صورة الشبان التي صارت أكثر وضوحاً وكبراً مع تزايد حجم هذا البحر الذي يقرض بعناد هيكل السفينة بدت له أشبه بصورة شبحية.

- لماذا بقي هؤلاء على الشاطئ يا رينو؟

- ينتظرون.

- وماذا ينتظرون؟

- أن أقتله.

- ولماذا أنت؟

- جميعهم قتلوا. لماذا لم تقتله من قبل؟

- لا أستطيع يا رينو. أنا لا أنفع في هذا.

- لا أحد ينفع في هذا إلى أن يمارسه أول مرة.

نظرا إلى أقصى الجهة الأخرى. كان الفتى قد أنزل رأسه ما بين ركبتيه متكوراً على خوفه. فقال له رينو بصوت خافت وزخم:

– كان عليك أن تقتله منذ اللحظة الأولى. دون أن تنظر إلى وجهه، ودون أن تعرف اسمه، ودون أن تكون قد بكيت إلى جانبه كمخنث.

مسح استيبان عينيه الكوبالتيتين محاولاً محو الصور التي تثقل عليه. وقال بصوت متقطع:

– ربما لستُ رجلاً مثلك ومثل الآخرين. ربما كنتُ مخنثاً مثلما تقول.

– ولكنك أخي وأنا سأصنع منك رجلاً يا تيبي. حتى لو اضطررت إلى تحطيمك بالعصي. لا يمكنك مواصلة العيش في هذه الجزيرة جباناً. الجميع سيتفادونك، وسيبصقون على قدميك عندما تمر في الشارع.

– أريد الذهاب يا أخي. أريد الذهاب بعيداً. إلى حيث لا توجد حروب ولا فقر.

– سيتذكرون كنيتنا كخونة. أنا وأنت لسنا أي واحد من الناس العاديين. إننا نحمل في عروقنا حمية كوبيتا العجوز. ونحن نحب الحرية أكثر من حياتنا.

– لن يجعلني قتل هذا الصبي أكثر حرية.

– صبي مثل هذا يمكن أن يكون من ذبح أبانا.

– مثل هذا ولكن ليس هذا، البراز نفسه يا رينو. إنني عاجز عن لمسه. لا أفهم هذه الحرب، لا أعرف ما الذي أدافع عنه، أفتقر إلى الشجاعة على القتل، فمعدتي تصعد إلى حلقي يا أخي.

وضع رينو راحة يده على جبهة الفتى. وبدا له معجزة أنه لا يهذي وهو محموم بتلك الحرارة. مسح عرق أخيه بقميصه ثم حاول فتح يده المتشنجة على المدية.

– أفلتها يا تيبي. أنا سأفعل ذلك بدلاً منك.

وثب جسد استيبان إلى الوراء مصطدماً بجدار القمرة. وإذا كان ممسكاً السلاح بقوة من قبل، فقد صهر يده الآن معه. رفع الخنجر مهدداً أخاه. عدّل النمساوي من وضعه، وحين رأى الشابين يتواجهان انفجر في النحيب. أفقد اهتزاز السفينة الثلاثة توازنهم، وانتهز رينو الفرصة ليمسك بمعصم استيبان.

– أفلت، يا للبراز، أفلت!

سقطت المدية إلى جانب الصندوق المفتوح الذي تظهر فيه أرقاق الإبحار، وبوصلة وفرجارات، وشدّ رينو أخاه بيقين غريزته. وتمكن من سحبه حتى الباب وفتحه على مصراعيه وطلب منه أن يخرج.

- انتظرني على السطح.

- لن أخرج من هنا.

- لن يروقك هذا.

- إذا ما فعلت له شيئاً فسوف أقتلك بيدي.

- إنك مخبول يا تيبي. هل تفضل قتل أخيك على قتل هذا البدين البكّاء والجبان؟

مشى استيبان حتى الفتى وانهار على خاصرته. بحث النمساوي عن ملاذ في جسد استيبان واختلج وهو يحتضن حاميه.

- اخرج إلى السطح يا أخي.

- لن أخرج.

- لقد سئمت هذه المسرحية التي تنفع للآنسات. الشباب ينتظرون.

- إنهم لا ينتظرون يا رينو. بل هم مشلولون من الرعب.

- يجب علي أن أفي بوعدي مع الشباب، هذا هو كل شيء.

- ولماذا يا أخي؟ ألكي تُرضي تلك الأشباح التي تتغوط هناك خوفاً حتى الموت؟

- أنا من أدخلهم في هذا الأمر، ولا يمكنني أن أخيب ظنهم.

- لقد قتلوا جميع الآخرين. ألا يكفي ذلك.

- قتلوا الجميع ما عدا هذا. ما اسمك الذي قلته أيها القواد؟

نهض الجندي واقفاً وهو يحافظ على توازنه بمشقة بسبب حركة المد البحري، ورد بصوت كامل يكاد يكون غريباً عن مصيره.

- وولف ميخائيل بريتسليك.

- هل سمعت يوماً باسم خوسيه كوبيتا؟

- لا يا سيدي. اعذرني يا سيدي.

- منذ سنوات طويلة...

فنهض استيبان أيضاً متحدياً:

- منذ عشرين سنة لم يكن هذا الفتى قد ولد بعد. ضع حداً لهذه المسرحية يا رينو.

استدار الشاب مذهولاً لمنطقية أخيه الرحيمة، ولعب لبعض الوقت في غرس المدية في الدفة وسحبها منها. ثم اندفع بعد ذلك نحو النافذة الضيقة ملصقاً أنفه بالزجاج وتطلع إلى القمر. هذا هو إذن «الذئبة البيضاء» الذي كان يلهم الشعراء. إنه المقبرة ما بين النجوم والكواكب. وهو الذي يوجه تقلبات البحر. هذا الضوء اللعين الذي يغلله بالظلام. كم يشعر الآن بأنه أخرق وأعزل! لماذا لم يتصرف مثلما كان عليه أن يتصرف ببساطة؟

عرف أنه لن يسمح مطلقاً للوقت بأن يؤجل قراراته. فالوقت هو حليف الخنوع والجبن. إنه البهيمة التي تدوس عقبيك وتمسك بك وتقتلك وتلقي التراب في أنفك. وولف ميخائيل بريتسليك سيموت الآن، وهو نفسه سيموت بعد ذلك بقليل. أن يقتله هو الآن سيكون خدعة للزمن الذي لن يهمه وجود جثة أخرى. هكذا رأى القمر رأس أبيه العجوز كوبيتا يتدحرج بحسام محدب لرجل متطوع لم يرتعش مثلما يرتعش هو بهذه المدية التي تبدو وكأنها ستفلت من يده.

- إذا قتلته سأموت، وإذا لم أقتله سيقتلني - قرر وهو يكشط بظفره أثر ذبابة مهروسة على الزجاج.

ثبت الدفة باتجاه القارة. وبينما هو يمسح يديه بالخشب، قرر أن التفكير يضرّ به. فيقينه وحتى صحته تأتي من الثقة بما توحيه إليه أنفاسه، وهي مصنوعة من أفعال. أما أخوه، أخوه المسكين، فلديه روح مذعنة كروح راعي معيز. ولا يمكن تصوره في بقية الحياة إلا حاملاً عصا وهو يجوس ما بين شجيرات الجبال. أما هو - رينو - بالمقابل، فإنه مستقبل، مشروع. وعندما حرَّضَ أصدقاءه على سحق النمساويين، لم يفعل ذلك من أجل فكرة رومانسية عن الحرية.

قراره لم يكن يستند إلا إلى الرغبة العارمة في أن يكون حيواناً شاباً لا يتقبل أن يضعوا طوقاً حول عنقه، وأقل منها تلك البدلات العسكرية ذات الأزرار الصلبة المذهبة التي تخنق اللوزتين. فحتى لو كان آخر كلب في

هذا الكون، فإن هذا الجسد هو جسده ولن يكون له جسد آخر أفضل منه. لماذا يريد هؤلاء العسكريون ذوو الشعور الحليقة والخُوذ المدببة أن يتصرفوا بحياته، وبموته أيضاً، إذا لم يقبل الرضوخ للإمبراطورية؟

- اقترب - أمرَ أخاه استيبان.

مشيا في الممر باتجاه مؤخرة السفينة متجاوزين حبالاً ودلاء وتوقفا قبالة المنصة الحديدية التي يُنزلون من فوقها المرساة. كانت السفينة جديدة، إذ لم يكن يبدو على السلسلة أثر للصدأ. لم يجدا صعوبة في سحب المرساة من القاع، وشدا الحبل وراحا يلفانه. رفع رينو ذقن استيبان، مجبراً إياه على النظر إلى عينيه.

- هذا هو الحل الذي أقدمه إليك. أن نتركه ينساق مع التيار.

رفع رينو الخنجر وطالب أخاه بالموافقة على هذا الحل. فأقر استيبان ذلك بوضع كلتا يديه على كتفيه. ثم استدار نحو الشرفة اليمنى وراح يتأمل الموقد هنيهة؛ وكانت النار قد بدأت بالخمود لعدم وجود من يسعّرها.

قال رينو:

- كل شيء سيكون على ما يرام يا تيبي.

ورفع أخاه باندفاع لا يمكن كبحه، وألقى به إلى البحر من فوق حافة السفينة. عندما رآه يبرز من بين الموج أومأ له بأن يسبح نحو الشاطئ. ولكن استيبان خبط بذراعيه سابحاً نحو سلم السفينة، فسارع رينو إلى رفع السلم تاركاً إياه دون وسيلة للصعود إلى السفينة.

وعندئذ دخل بالخنجر إلى قمرة دفة القيادة.

- 11 -

الرقصة الاحتفالية التي يرقصونها على سواحل ماليسيا في أي مناسبة كبرى - وحفلة زفاف جيرونيمو وآليا إيمار تتجاوز عبارة «مناسبة كبرى» الملطفة - هي رقصة التورومبا، ذات الإيقاعات المرحة التي تؤدى بطريقتين.

أما في الصالون، وتسمى عندئذ باسمها المعروف «تورومبا»، حيث تبدأ موسيقى خفيفة، بأنغام بيانو وكمانات رخيمة وموزونة لبعض الوقت، ثم يأخذ اللحن بالتصاعد والصخب، مثلما هي الرقصات الغجرية تقريباً، ولكن مع ميزة أنه منذ وقت مبكر من الرقصة، يمسك الرجال بخصور النساء من الخلف، بحركات متمايلة يتعلمونها منذ المدرسة الابتدائية، ويقومون بتلويات وقفزات غير مألوفة في رقص أوربا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

الطريقة الأخرى للتورومبا تدعى بتعبير ملطف «الماخورية». ولكنهم يسمونها باللهجة العامية «تورومبوتا». وتبدأ الحفلات المحلية بنسخة من هذه الرقصة أكثر اعتدالاً وتهذباً ولكنها، وفق سخاء المضيفين بالخمر ودرجة حرارة الليل، تنحرف في تسعين بالمئة من الحالات نحو أشد النسخ تحرراً.

فعلى سبيل المثال، يتنقل الذكور في التورومبوتا بأيديهم من خصور السيدات إلى صدورهن. وهؤلاء، وهن متفهمات، يكن قد قمن بزيارة إلى التواليت، وتخلصن من حمالات الصدر حتى لا يحول شيء دون تلقائية الملامسة.

وينتزع الرجال بدورهم سراويل النساء الداخلية، وكما لو أن هذه السراويل هي غنيمةُ تحميةٍ للتورومبوتا (التي تعتبر اليوم فولكلوراً) تؤججها بصورة معتبرة، ثم يضعون قطعة اللباس المختلسة بين أسنانهم،

ويسعون بتفخيم أكبر من السابق إلى حك أحواضهم بمؤخرات نساء الجزيرة الملساء بينما البيانو والكمانات تشتد طافحة بالحدة.

وإذا ما التزمت الحفلة بعض المتطلبات المرعية، فلا بد عندئذ للتورومبوتا من أن تتوج بحركات رقص تمثيلية يرفع فيها الرجال سراويل السيدات ويلوحون بها عالياً مثل من يودع شخصاً يمضي مبتعداً في قطار وهم يضربون الأرض بأقدامهم بعنف بينما تقوم المرأة، ربما متسترة بالغبار الذي تثيره ضربات الأقدام، برفع تنورتها الداخلية متيحة لأي مراقب نافذ البصيرة تكوين رؤيا للغمامة المشعثة التي تغطي دون انتظام عانات نساء الجزيرة اللذيذة.

النسخ الأكثر تمدناً لهذه الذروة المجيدة معروفة في بلدان من أميركا الجنوبية، حيث تتظاهر النساء بسبب الحشمة وعدم الهمجية، بعرض أردافهن وفروجهن وأثداءهن، ويزهد الرجال بطقس انتزاع السراويل الداخلية، ويستخدمون عند خبط الأرض بكعوبهم منديلاً أبيض، يكون نظيفاً في العادة، وقد يكون موشى في بعض الحالات بإفرازات الأنوف أو ببقع من النبيذ الأحمر.

يوم الجمعة ليلاً، بينما كانت السفينة تعيد إلى أغرام الفيلم الذي استثار أهالي الجزيرة وسيُعقّد حياة الأخوين كوبيتا إلى الأبد، بدأت التمرينات على رقصة التورومبا بهدف رفع الحماس لحفلة الزفاف التي ستجري يوم السبت، مع إشارة صريحة من صاحب **المخزن الأوربي** إلى أن أي انحراف نحو التورومبوتا سيؤدي إلى طرد من سيحاول ذلك.

ولكي يشعر الجميع بأنهم مطالبون بالحذر، جرى تقديم مشروبات غير كحولية، مثل عصير الكريفون، والليما، وشراب خليط فواكه.

رولاندو الطويل الذي أوكلت إليه القيادةُ البحرية في القارة وظيفة ضابط الموانئ، انتزعه من نشاطه الموسيقي صبي جاء ليخبره وهو يلهث بأن قبطان السفينة التي حملت جهاز العرض السينمائي والفيلم يرسل من عرض البحر رسالة مستعجلة إلى الشاطئ، وأن جهاز التلغراف لا يتوقف عن إصدار رنين الإنذار. الخطوات الواسعة التي مشى بها الضابط المولع بالموسيقى، والذي حصل على منصبه بفضل دورة بالمراسلة

على نظام مورس للاتصالات، أوصلته خلال دقيقة إلى مكتب المرفأ. فقام بالاتصال اللازم، وأخبرته الرموز بأنهم قد لمحوا «باستغراب»، إلى يمين السفينة، وباتجاه الشمال، في «اختلاط» الغسق، سفينة شراعية تمضي على غير هدى، مثل «جلجل» تتقاذفه الأمواج، وأنها ستصطدم على ما يبدو، إذا لم تبدل الرياح مسارها، بصخور جزيرة كوريتشا، وتتفتت على جروفها الوعرة.

وأضافت رموز المورس أنه من خلال الضوء الذي يوفره الغروب «الساهي» تمكن القبطان شخصياً من التحقق من أنه لا وجود لرجل واحد على متن تلك السفينة ولتقديره بأن الظاهرة «أصيلة» جداً في سيرته الملاحية الممتدة لاثنتين وأربعين سنة فقد قرر ألا يضع في متناول يد أشباح محتملين مصير ركابه ومصير الفيلم، الذي تنتظره بلهفة قرية أيمونا، فواصل طريقه المرسوم دون أن يعدل مساره ميلاً واحداً. وهو ينصح مع ذلك، بأن يجدف رولاندو وبعض الرجال نحو «تلك الرؤيا» ويتحققوا من «كنهها».

– ما الذي يقوله؟ – سأل الصبي الراصد، حين انتهى «الضابط» من ملء ورقتين وهو يفك رموز الرسالة.

فغمغم رولاندو:

– ترهات.

جعد الورقة دون مبالاة ليلقي بها إلى سلة المهملات، ولكنه أوقف حركته موقناً بأنه ليس هناك أثر أفضل من ذلك الذي لا يترك أثراً، ثم أشعل عود ثقاب وأحرق في يده بالذات ذلك الإنذار الأحمر إلى أن احترق آخر جزء منه بين أصابعه. ثم أمسك رأس الصبي بحركة حانية وأخرجه إلى الشارع مقدماً له قطعة سكاكر. وبعد ذلك بدأا السير معاً، ولكن ببطء هذه المرة، في طريق العودة إلى الرقص.

ولكنهما عندما وصلا إلى الصالون وجدا أن المشاركين في الرقص قد أوقفوا تلوياتهم لكي يلتفوا حول المسافر التشيكي جان بارّودا الذي استثار صحفيي الميناء القاري بتقرير عما أسماه «السفينة الشبح» التي رآها خلال رحلته. وقد أرعب الجمهور المحلي وراقصي التورومبا بتصريحاته

التي كان يدلي بها بصوت يخرج من أنفه مع ذلك الترنم في نهاية كل جملة الذي يميز التشيكيين.

لم يكن هو نفسه شاهد عيان على ظهور تلك السفينة وحسب، بل إن حاسة شمه المتميزة أتاحت له الإحساس «برائحة وهمس يصدران من السفينة القديمة، ذات الأخشاب المتعفنة والحدائد الخربة». ويبدو أن تلك المواد تمارس في تفسخها المقرف تأثيراً حتى على البحر نفسه، ذلك أن السفينة في تقدمها وهي تلوك «عويلاً» كانت تُصدر ضجة «مياه حامضة على المياه الحامضة، محركة السفينة العتيقة فوق المياه العتيقة». النبرة الترتيلية الفاترة للتشيكي الغنائي، أوقفت شعر المستمعين الخائفين من أن تصيب الجزيرة نبوءة قاسية يجهلونها في ليلة زفاف (وانتشرت في الحانة دمدمات تقول«ليلة هولوكست») عزيزتهم آليا إيمار إلى المبذر جيرونيمو. وكانت نظرة التشيكي باروّدا الهذيانية قد رأت فوق ذلك ما تحمله السفينة، وهو «أكياس، أكياس كوّمها إله مكفهر، مثل حيوانات رمادية مدورة وبلا عيون».

اهتم الصحفي بافلوفيتش بزميل الحرف هذا الذي يرى بلسانه ما لم يره بعينيه. ولكن أي لسان لديه، قال لنفسه. فقد أسر لبَّ مستمعيه وأدهشهم بثلاث أو أربع توريات مجازية. ولدى الانتهاء تقريباً، أشار المُقَابَلُ إلى المُقَابِلِ بأن يصمت لأنه يشعر بفمه مملوءاً بالدموع، وافتتح الصمت الموعود بالجملة التالية: «بعد ذلك انتشر ضباب.. ضباب لف السفينة من كل الجهات. وصار من المستحيل معرفة إلى أين تمضي. شيطان البحر العجوز وحده يعرف ذلك.» نهض بافلوفيتش واقفاً وهو ينفض رماد السيجارة الذي سقط على ركبتيه، وقرر بأن ساعة انتصاره قد أزفت، ساعة انتصار الصحفي على الشاعر.

مقالته «الليلة المزدوجة» التي صاغها في سهاد طوعي على اثر الكمين الذي شهده في عين المكان، تقبع في جيب بنطاله الخلفي إلى جانب برقية تؤكد له الحجز في قمرة مزدوجة في عابرة المحيطات «الملكة لويسا» التي ستبحر بدقة المواعيد البريطانية في فجر يوم الأربعاء من جنوة.

وكانت شروط بافلوفيتش تستند إلى النصائح الحكيمة والدنيوية التي

وجهها لنفسه:

1) ستُنشر مقالة «الليلة المزدوجة» بالتزامن في ثلاث صحف يوم الأحد القادم لأنه سيصيب بهذه الاستراتيجية عدة عصافير من جذور مختلفة: فلنقل إن الجيش الإمبراطوري سيرسل ميليشياته إلى الجزيرة صباح يوم الاثنين، ولكن مهما نفخوا من بخار في سفنهم، فلن تصل إلى اليابسة قبل يوم الثلاثاء، وهو الوقت الذي تكون فيه جزيرة جيما قد أخلت سكانها الذكور مئة بالمئة. ومع أنه كان يشعر بلهفة شرسة في رؤية المقالة مطبوعة في صبيحة الهجوم، وبالرغم من أن طموحه للوصول إلى أمجاد الصحفي النجم ستتأخر بذلك بضع ساعات، إلا أنه لا يريد لأي سبب من الأسباب خسارة حفلة زفاف الألفية، ورقصة التورومبا التي ستدور بطريقتيها، ومقالته عن حفلة الزفاف نفسها التي سيكتبها على متن عابرة المحيطات وهو متلفع بشال ويرشف كأساً من المارتيني السك.

2) المكافأة على حصرية النشر يجب أن تزيد بما يكفي من الجنيهات الإسترلينية للاستقرار في بلد آخر، إضافة إلى تذكرة السفر في الدرجة السياحية في «الملكة لويسا»، إلى الوجهة الأخيرة التي تتوجه إليها عابرة المحيطات المذكورة.

3) أن تعينه جريدة سالزبورغر زويغي مراسلاً براتب شهري أياً كانت البلاد التي سينزل فيها، حتى ولو كانت نهاية الأرض.

دخل الشاب استيبان إلى الصالون.

– ماذا قالوا؟

فضحك رولاندو:

– سفينة شبح.

– وماذا تحمل؟

– يبدو أنها تحمل أكياساً... أكياس شيء ما.

– كم عدد الأكياس؟

– أكياس، بعض الأكياس. وماذا تهمك الأكياس؟

– كم كيساً هي؟ - صرخ الشاب أمام استغراب الجمهور.

فرك عازف البيانو الهنغاري يده وكأنه يحدس العنف في أناملها.

أمسك بافلوفيتش الشاب من مرفقه، وأخرجه بلطف إلى الشارع، ثم اقتاده باتجاه المرفأ. وأنبه وهو يبلل وجهه بلعابه المتطاير:

– الرواية الرسمية هي التي قالها رولاندو. فكل ما يقال عن السفينة هو مجرد «ترهات.. ترهات محترمة».

– لقد قالوا «أكياساً» أيها المجاز.

– حسن. فلتكن أكياساً. أكياس محترمة مملوءة بترهات.

– ولكن كم عددها؟

– وماذا يهمك ذلك؟ أي براز يهمك في أن تزيد أو تنقص كيساً؟

– لأن الأمر لن يكون سواء بالنسبة لي إذا كانت عشرة أكياس أو أحد عشر كيساً.

شحذ الصحفي غريزته وأراد النظر إلى عمق عيني الشاب لكي يقدر السبب الذي يحاصره من أجله بذلك الإلحاح. ولكن محاولة التكهن تحللت في أعماقِ كوبالتِ حدقتي الفتى. لقد كان يؤججهما سُعار لا يُقاوم؛ إذا ما كان عليه أن يصفهما في مقال فسيكتب «سيد نظرة لا يمكن الغوص فيها». ثم أضاف «والغرق فيها كذلك». لو آن الفتى كان أكثر فطنة، لاستطاع أن يحقق نجاحاً باهراً في السينما. ولكن ها هو ذا ما بين غاضب ونائح، بينما معشره الإيجابيون، يصنعون حريتهم في حفلة ودم.

– هذا يعني – جازف بافلوفيتش – أن ليلة السكاكين القصيرة لم تنته حيث انتهت.

– لن أبلغ من الحماقة يوماً حد إخبار صحفي بذلك.

– ولكن أخاك فعل، وهذا يتيح لحياة أسرتك في مبرزة السلاحف هذه أن تنتقل إلى التاريخ بوقار.

– ما الذي أخبرك به رينو؟

– كل شيء. ورأيت الكمين بعيني. والنهاية.

– حتى أي مرحلة؟

– إلى أن حملوا الجثث إلى السفينة.

– وبعد ذلك؟

– استيبان؟

– إذا كنت قد تكلمت مع رينو، فلا بد أنه أخبرك بما انتهت إليه تلك

الليلة اللعينة. وأريدك أن تخبرني.

- رينو لا يقول إلا ما لا بد منه.

- ألم يخبرك بما جرى بعد ذلك في السفينة؟

داعب بافلوفيتش ذقنه أخيراً. فهو لم يحلقها منذ ثلاثة أيام لانشغاله برؤية الأحداث، والتفاوض على مقالته، وكتابتها بخصيتيه. بالتسرع الذي تفرضه عظمة الموت.

ولكنه بالإهمال نفسه الذي يعامل به خديه، ربما يكون قد أفلت شيئاً مهماً أيضاً يمكن له أن يعفن مقالته قبل أن تُنشر.

- هل تعرف أنت ما جرى؟

- أريد معرفة ذلك بصورة مؤكدة لكي أتخذ قراراً.

احتفظ الصحفي بوجه غير مبال، على الرغم من الابتسامة التي أراد رسمها على شفتيه. يا للجبان استيبان، الأمير هاملت لسواحل ماليسيا، يقول إنه سيكون قادراً على اتخاذ قرار. حول أي موضوع وفي أي قرن من الزمان أيها الفتى؟

- وإذا كان الأمر بهذه الأهمية بالنسبة إليك، فلماذا لا تسأل أنت نفسك أخاك عنه؟

- لأنني لم أعد أكلمه.

كان يقترب من المرسى مركب ملون بألوان كوريتشا. وكان يحضر تعزيزات من عازفي الكمانات الجهيرة والخفيضة من أجل حفلة الزفاف الراقصة. وكان الموسيقيون يرتدون ملابسهم الاحتفالية، مستعدين للتفاوض مع جيرونيمو حول أتعابهم في المرسى بالذات.

- آي، يا فتى - هتف الصحفي بمرح - يا لروعة حلاقتك. خداك يلمعان مثل نهدي راهبة. كيف توصلت إلى ذلك؟

لمس استيبان خديه وتأكد فعلاً من انسيابية تلك الحلاقة بالمتعة نفسها التي سببها له إتقانها أمام المرآة قبل ساعات من ذلك. لا حاجة لإخبار باصق الحبر هذا بأنه حلق حتى الشعيرات التافهة بدافع اليأس. لقد كان يتفحصه وكأنه يلمس وجهه بعينيه.

- السفينة جلبت يوم أمس دفعة من شفرات الحلاقة إلى المتجر الأوربي.

- من أي ماركة؟

- هناك ثلاث ماركات: جيليت مذهبة، وجيليت زرقاء، والفيلق الأجنبي.

- وبأيها تنصحني؟

- من أجل ذقن مثل ذقنك، استخدم الزرقاء. إنها أغلى سعراً ولكنها تتغلغل حتى جذور الشعر.

- «جذور الشعر». من أين خرجت بهذه العبارة الـ... وبحث عن صفة لطيفة ليستبدل «الحمقاء» وقال:- المثقفة؟

- من الإعلان في لاريبوبليكا. لقد ظهر في اليوم نفسه الذي نُشرت فيه قصيدتي.

- آه، طبعاً. القصيدة. واترلو آخرى يا سيد نابو، أليس صحيحاً؟

بالرغم من أنه لم يستطع فهم السخرية، إلا أن حمرة خجل المعية لطخت وجهه في برهة ولمعت عيناه الكوبالتيتان الشهيرتان بأسلوب آخر من البراءة.

هز الصحفي بعض قطع العملة في جيب بنطاله وأشار إلى الطريق المؤدي إلى الأوربي.

- جيليت زرقاء إذن.

لماذا كلما أرى هذا الظهر المستدير والمحكم أرغب في امتلاك حجر لأقذفه على رقبته؟ ولماذا كان العالم خرائياً بكل فظاظته البلهاء ليهيم على العماء في المجرة؟ ولماذا كان من الصعب بصورة خاصة امتلاك عشرين سنة؟

مرّ بأصابعه مرة أخرى على وجنتيه، ثم عض معصم يده اليمنى بنزق كي لا يوجه سؤاله إلى درب التبانة صارخاً. هل قتل رينو الجندي وولف ميخائيل بريتسليك؟

- 12 -

لكثرة تقلبه في التاريخ، كان بافلوفيتش يعرف بأنه إذا ما تم إدخال الحصان إلى طروادة حتى يصبح بالإمكان غزوها كاملة.

كان رينو كوبيتا المندفع قد حدد له موقع الكمين لأنه أحس برهبة **الإغفال**. وبالرغم من كونه مناصراً لصنع التاريخ أكثر من مناصرته لكتابته، فقد أدرك بصواب بأنه إذا كان الفعل هو الأساس، فإن التاريخ يعيد الفعل في كل مرة يجد فيها قارئاً يحاول فهم أحداث العالم. لقد كان رينو هو روح الثورة والخلية الأولية التي نقلت عدوى «البطولة» إلى أبناء الجزيرة. ومع ذلك، فإن الزعيم الذي يجب عليه أن يحمل الراية، وينفخ بوق النضال التحريري المهيب، لم يكن على رأس أتباعه في ليلة السكاكين القصيرة.

ففي حين كان هو، بافلوفيتش، يرى أسلحة أبناء الجزيرة تخترق أجساد الجنود النمساويين من القلب إلى الرئة، كان طبل الاستعراض الأكبر يجلس فاغر الفم في مواجهة القاتل جورج بارنس في فيلم صالة لوسيرنا. هل كان ذلك الافتتان بالسينما مرضاً دواراً جعله يحلق بعيداً جداً عن المشاكل الحقيقية إلى حدّ نسيان الوقوف على رأس رجاله في المعركة الحاسمة، أم أن صدمته الفيلمية لم تكن سوى نذالة وحيلة دنيئة للهرب من النزاع الحقيقي، مثلما يفعل الكثير من الزعماء ذوي الخطابات النارية الخبيرين بإرسال آخرين إلى الموت لكي يقرؤوا فيما بعد قائمة الموتى من أتباعهم في منفى هادئ؟

لقد اختار أخوه اللامبالي إستيبان ألا يكلمه اليوم. هذا الموقف يفترض، في احتمال ذي أساس، اللجوء إلى شريعة الصمت الجليدي لمعاقبة الـ... وقد ضايقه التفكير بكلمة «خائن». ولكن، بما أن الأمر مجرد افتراض، فقد استخدم الكلمة، إنما ضمن قوسين.

التفاتة واحدة إلى اليمين كانت كافية لجعله يتخلى عن الذهاب إلى المتجر الأوربي ويعود إلى صالة الرقص. فقد انضم الموسيقيون المحليون إلى الفرقة الوترية الآتية من كوريتشا، وأخذت زوبعة الغبار التي تثيرها التورومبا تدفع إلى التنبؤ بأنه إذا كان التمرين بمثل هذه الشراسة، فإن حفلة الغد ستكون قيامية. ويمكن التخمين من خلال الرائحة ومن خلال ردف مبكر مكشوف بكل نعومته، أن نظام منع الكحول قد خُرق بحماس نضالي.

عثر على رينو كوبيتا وراء بعض الهياكل الخشبية المسرحية يحاول فتح بلوزة كونستانسا لازيو، وهي فتاة مليحة جزئياً ما بين العنق والخصر. كانت تمنع محاولة المغازل بتغنج أكثر من الحزم. وفي أثناء ذلك كان الراقصون يضبطون تلك الموسيقى الماليسية التي لا يمكن حتى للسخونة أن تخل بها، وكانت كلمات أغنية التورومبا الرائجة تقول:

على بحار الموت،
ألعب بقَدري، ألعب بقدري.
وتحت السماء المظلمة،
أمضي إلى البراز، أمضي إلى البراز.

قرر الصحفي أن يبادر خصمه بضربة مباشرة إلى الفك. فقال له ذلك وهو يمسح ذرة غبار متخيلة عن أنفه:

- مرحباً أيها البطل.

ودون أن ينظر رينو إليه، أحنى رقبته على الاستدارة العلوية لنهد الفتاة الأيسر، وقبّل من فوق القماش قمة حلمتها المنتصبة، ثم عمد بتأن عندئذ، وبهدوء ذلك الحريق، إلى إغلاق زر البلوزة الذي كان قد فتحه بجهد جهيد. ثم ضغط يده الإيروتيكية نفسها إلى أن حوّلها إلى قبضة صخرية، وجمع كل اندفاع سنواته العشرين ليلتف بجسده ويضرب بكل عنف فك بافلوفيتش الذي أوقع في سقوطه جزءاً من الديكور الخشبي مزيناً برسوم راقصات اشبيليات.

وبينما هو مطروح على الأرض غير المريحة قرر أنه في وضع استراتيجي يتيح له تفادي تقديم فكه الآخر بأخلاق مسيحية.

- غريب - قال له مجازفاً بأن يطير عنقه بركلة من حذائه - إنك تضربني وأنت لم تقرأ بعد روايتي للأحداث في الجريدة.

- ماذا كتبتَ عني؟

- يمكنك قراءته غداً. ستكون طبعة مطلوبة جداً لأنها ستتضمن رواية الأحداث، وتحليلاً جمالياً لفيلم جورج بارنس وتفاصيل الإعداد لحفلة الزفاف. وربما كان الموضوع الثاني يهمك أكثر من الأول. مع أنني أخصك بعنوان فرعي في الموضوع الأول.

وبينما هو يقول ذلك التقط عارضة خشبية من الديكور ليحمي نفسه من الركلة المحتملة.

- أريد أن أعرف الآن. ما الذي يقوله العنوان الفرعي؟

- «تألقَ بغيابه.»

تذوق بافلوفيتش من مهانة موقعه على الأرض تلك اللكمة التي وجهها إلى خصمه. وتحول الشاب إلى الشحوب على الفور، فأمر كونستانسا لازيو بأن تغادر الكواليس. ابتلع لعاباً وفرك يديه. ثم تمهل قليلاً وأخفض صوته:

- هل طُبع المقال أم أنه مازال قابلاً للنقاش؟

- إنه قابل للنقاش.

أحنى الشاب رأسه:

- أعذرني لهذه الدفعة التي وجهتها إليك.

وبالرغم من أن فكه ما يزال ملتوياً، فقد ابتسم بافلوفيتش في أعماقه متأكداً من جديد بأن أهالي جيما معلمون بارعون في تلطيف الكلام. فإطلاق تسمية «دفعة» على هذه المجزرة، له في الحقيقة وقع مهذب. قبل دعوة الفتى إلى زجاجة من السليبوفيتش، وقبل أن يمرر جرعة الخمر من حلقة تغرغر بها لتخدير ألم فكه. ثم أومأ له بأن يجلس إلى جواره.

- أبطل أم خائن؟ بدأ بافلوفيتش الاستجواب.

سمع رينو السؤال ونقل يديه إلى أذنيه كما لو أن الخيارين نواقيس تقرع في رأسه. هذا السؤال البسيط اللعين وضعه للمرة الأولى في سنواته الشفافة أما شيء لم يشعر به قط: الشك، الغموض. وبدا له غريباً أن

تخرج الجملة التالية من فمه:

- هذا يعتمد على الزجاج الذي تنظر من خلاله.

- هذا يبدو لي شديد الغموض. كل واحد من الشباب قتل نمساوياً، فماذا كانت مساهمتك في تلك الحفلة الخيرية فضلاً عن التحريض الخطابي؟

- لا يمكنني قول ذلك.

- ولم لا؟

- من أجل أخي.

- استيبان.

- إذا ما قلتُ ذلك سأحطم قلبه.

- دعك يا رينو، فالقلوب لا تتحطم بالكلام إلا في الروايات. أما في الواقع فإنها تُشق بالسكاكين. والليلة الماضية بقي قلب واحد لم يشق. إنه القلب الذي كان عليك أنت أن تشقه.

انتزع منه الشاب زجاجة السليبوفيتش وشرب جرعة كبيرة. أغرق رأسه ما بين ركبتيه بطريقة شديدة الخذلان إلى حد أن بافلوفيتش نفسه أحس بأنه مجبر على مداعبة رأسه. فرفع الفتى جبهته بملامح من يشعر بأنه محاصر:

- لم يبق أي واحد.

- أنا كنت هناك بفضل المعلومة التي قدمتها لي، وقد تخلفت أنت عن المجيء. فكيف تفسر الأمر؟

- هذا أمر لا يمكن تفسيره.

- حسن يا رينو- قال الصحفي وهو ينهض وينفض مؤخرة بنطاله - فلنبق كما نحن إذن.

- ماذا تعني؟

- «تألقَ بغيابه.»

اندفع رينو نحو الصحفي وثبته إلى الجدار.

- لا يمكنك عمل ذلك.

- أيها الفتى، لقد رضرضتني أكثر من سفرجلة تلميذ. ألا يمكنك أن تهدئ أعصابك؟

– إذا ما اقترفت معي هذه النذالة فسوف تدمرنا.

– أدمر من؟

– أنا، واستيبان! وحتى أبينا كوبيتا العجوز!

– لقد كان أبوك رجلاً حقيقياً ودفع حياته ثمناً لذلك. لا يمكن لأحد أن يشوه سمعة بطل مثله.

– ولكن هناك ما هو أشد خطراً. فمقالتك ستفتقر إلى الحقيقة.

في تجعيدة الاهتمام الجديدة التي بدت على وجه بافلوفيتش، انتبه الفتى إلى أن زمام المبادرة قد انتقل الآن إلى يده. فأرخى ضغطه وقضم ظفر بنصره.

– بأي معنى؟

– إذا أخبرتك بالأمر، هل تصمت عليه؟

– أيها الفتى، أن تطلب هذا من صحفي هو أشبه بانتزاع موزة من قرد.

– هذه هي الطريقة الوحيدة لكي أخبرك. هل توافق؟

مرّ بافلوفيتش براحتي يده على وجنتيه وسجل ملاحظة ذهنية بوجوب المرور على المتجر الأوربي للبحث عن شفرات الحلاقة. لقد نصحه الأخ الأصغر بشفرات جيليت الزرقاء. تساءل عما إذا لم يكن كل تاريخ البشرية نسيجاً لا نهائياً من الكائنات والأعمال التافهة — مثلما هي حال هؤلاء الفتيان المشوشين – المحفوظة دون صدى في صحف نائية مثل صحيفته.

– موافق – كرر دون حماس.

مسح رينو مطولاً فم زجاجة السليبوفيتش وأمال الزجاجة بحيث ينسكب السائل في حلقه مباشرة، وهي مأثرة يتعلمونها في جيما في السنة الأخيرة من المدرسة الإعدادية التي تعادل في الوقت نفسه، وبتوافق محظوظ، السنة الدراسية الأخيرة المتوفرة في الجزيرة.

– لقد كان هناك في تلك الليلة يا دكتور بافلوفيتش ميت آخر لم تُحصه.

– وأنت من تولى مسؤولية هذا... **الإحصاء**؟ – همس بافلوفيتش متذوقاً أسلوبه.

رباه! بأي عدم إلهام من القدر قبل وظيفة مراسل صحفي في سواحل ماليسيا بدلاً من البرتغال؟ لو أنه ذهب إلى لشبونة لكان ترفع الآن إلى محرر أخبار فنون الطعام.

بلل رينو شفتيه بطرف لسانه. وجعل طعم السليبوفيتش جانبي فمه يتأججان.

– ليس من عادتي التبجح والتوعد. ولكنني أقسم لك بأبي بأنني سأذبحك إذا ما نشرت هذا الكلام.

قال الصحفي لنفسه بكآبة عميقة إنه يستطيع في مثل هذه الحالة أن يوفر على نفسه شفرة الجيليت والحلاقة الدقيقة التي كان ينوي أن يغازل بفضلها إحدى الفتيات على إيقاع التورومبا خلال حفلة الزفاف.

– أقسم بأبيك بأنني لن أنشر سطراً واحداً – قال ذلك وهو يجلس على مقعد دون مسند قدمه إليه الفتى، بينما هو يُخرج دفتر الملاحظات.

ونزع بعد ذلك غطاء قلم الحبر بأسنانه مستبقياً الجزء العلوي منه معلقاً بين شفتيه.

- 12 -

في الساعة الرابعة من فجر يوم السبت الدافئ المؤرق، انتُزعت آليا إيمار من ملاءات فراشها البيضاء المتألقة برسوم تطريز تمثل رماحاً من العصور الوسطى، واقتادها الاختناق إلى النافذة الصغيرة في الطابق الثاني. ولدى استنشاقها هواء بارد يحمله اضطراب الموج، ارتفع صدرها حتى حلّ العقدة الوردية التي بين نهديها كما لو أن عشيقاً ماهراً وخاطفاً قد فكّها بأسنانه.

حبست ذلك الهواء المخلص في رئتيها وراحت تفلته في صفير بطئ دون موسيقى إلى أن تحلل في الليل فعادت تستنشق كتلة مماثلة تلقتها قصباتها الهوائية المباركة. أخبرها هذا النسيم بأن كل روائح القرية قد تجمعت على حافة شرفتها كما يبدو، روائح ثمار وأزهار الشجر، ونعناع الأوكاليبتوس، وزخم الياسمين الحاسم، وطعم الزبد المالح، وتقطر الراتنج الحامض في الغابة العالية.

ربما تحملها هذه النسمة الآن مع جيرونيمو إلى نيويورك. فالسفينة على وشك أن تصير جاهزة. ولكن ماذا بعد ذلك؟ لم تستطع أن تفهم مطلقاً في أي حدث من الروتين القروي فقدت اللهفة إلى الغياب وعرفت، دون أن تعبر عن ذلك، أن هناك شيئاً لا يتجزأ بين المشهد وبينها. إنها تسكن بكاملها في عالم بلا كسور حيث كل شيء هو حضور كامل؛ لا يمكن فصل الغناء عن الصوت، القبلة عن الشفة، الضوء عن تذبذباته في الهواء، الشمس التي تتقشر في غبار ناعم شديد الشبه بذاك الذي يتساقط على القديسين في سجاجيد الكنيسة المعلقة على الجدران.

بالتوافق مع هذه الصورة، دوى صوت الناقوس البرونزي الكئيب أربع مرات، أصوات شديدة العمق والرصانة بالنسبة إلى أبعاد الجزيرة

وخفتها. فتحت الريح قميص نومها، فقاطعت ذراعيها على صدرها تريد أن تجد في هذه الحركة حماية وصفاء ذهن. لماذا قُرعت الأجراس الآن إذا كانت منذ مولدها في هذه الأنحاء المقتضبة والمنسية لا تُقرع إلا في أيام الآحاد في الساعة السابعة من أجل القداس أو في الخامسة مساء عند الإعلان عن جناز؟ لم يخرق الخوري من قبل هذا الروتين قط، ذلك أن الصعود ثلاثين درجة حتى برج الأجراس يؤذي مفصل ركبته اليسرى.

فمن جهة، وحيث أن الساعة هي الثالثة فجراً بالضبط، هناك شيء من الهذيان في الحدث. فليس هناك من أقدم في تاريخ الجزيرة التافه على قرع هذا المعدن الجنائزي الموروث من أزمنة الاحتلال الفينسي في مثل هذه الساعة من الليل. ربما كان ما يمليه المنطق - تنهدت آليا إيمار - هو العودة إلى الفراش وإتاحة المجال للحلم كي يفسر هذه التحولات الغريبة.

ولكن ما فعلته بدلاً من ذلك هو إلقاء قميص النوم جانباً، وإخراج فستان التول الخفيف الأخضر بخفة من جهاز عرسها الوفير الذي زودها به جيرونيمو طوال شهور، وارتدته بحركة بسيطة، وركضت حافية نحو الكنيسة.

كانت قدماها تعرفان بصورة يقينية كل حصاة، وشوكة، وجدول أو نبتة عليق، واقتادتاها دون عثرات إلى المعبد الذي عمدوها فيه، والذي أدت فيه كذلك مناولتها الأولى، ونظرها مصطبغ بالعذوبة نفسها التي لنظرة العذراء المصنوعة من الجص. كان للكنيسة تاريخ يُقلقها وتجهله وقد أرادت أن تتوصل في هذه الليلة إلى اليقين عن كل شيء. لقد كان الحجر التأسيسي الخشن منقوشاً برسوم ملائكة وكلاب تقذف ناراً من ذيلها أو أحبار بعباءات بهتت ألوانها بفعل الغبار الذي يصفع به الهواء الجدران. كل غزوة وضعت في الفناء المقدس شلواً من بلاطاتها، فقد كانت هناك تباريق بيزنطية مذهبة، ومنمنمات آسيوية، وأهلة عربية، وجوار ببراقع مخادعة، قبل الجندولات والعباءات الفينسية.

لم تعرف آليا إيمار قط لماذا تغص جزيرتها في أحد القرون بأضواء

وندماء متثاقلين، وتُهجر وفي قرن آخر وتترك للريح وحدها تعيث بضوء الزبد البحري وتسوط الحيوات المقفرة بعد الوباء: وباء الفلكسيرة الذي عاث خراباً كذلك في حقول بوردو متسبباً في شح في النبيذ في حانات فرنسا وقصورها الدوقية.

لقد كانت الريح قد خفت في هذه الليلة المنزهة متحولة إلى نسيم لطيف. مع أنه لا يمكن حتى لريح الشمال، التي هبت قبل بضعة أسابيع هائجة ومثيرة الرمال حتى قبة الكنيسة، أن تكون قد زحزحت برونز الناقوس السميك سنتمتراً واحداً. لدى وصولها إلى البوابة، ابتسمت الفتاة لتفكيرها المنطقي. لم تكن تهب ريح الشمال بالطبع، ولكن حتى لو اشتدت هذه الريح بعنف، فلن تكون مدربة إلى حد التحكم بنفسها وقرع الأجراس في الساعة المحددة أربع ضربات إيقاعية كالبندول.

كان الناقوس قد بقي قابعاً عند أقدام المعبد في جيما طوال خمس وخمسين سنة، دون أن يجدوا آلية لرفعه إلى البرج، وكانت كتابات كثيرة، منها الغرامية و البذيئة، محفورة بإزميل نحت أو بمقصات صدئة على سطح الناقوس المتسامح. وأول من كتب حول تلك الظاهرة، هو الصحفي بافلوفيتش بالذات. فقد كتب تحقيقاً بعنوان «ناقوس الكتابات» وأنهاه بـ «مختارات جوهرية من النصوص المكتوبة على الناقوس» عمدها بتسمية مجهولة حتى ذلك الحين في جيما: «**الكتابات الجدارية**». وكانت أفضل حكمة دينية بين تلك الكتابات حسب رأيه هي: «جميع الآلهة **كانوا** خالدين». أما العبارة التي اعتبرها رقمه الأول في موضوع الحب فكانت: «سولارا، أحبك بعاطفة شديدة الحرارة، لا يمكنني البوح بها وجهاً لوجه». وكانت أشد تلك الكتابات بذاءة هي القائلة: «هنا ضاجعتُ البابا».

لم تستطع أن تعرف إذا ما كان وهماً، ولكنها حين مرت بيدها على سطح المعدن البارد، أحست بأن التذبذب مازال يهز ألياف البرونز وأن تلك الألياف تنقل إليها دغدغتها حتى النخاع. أغمضت عينيها مسندة خدها إلى السطح المعدني، وأسلمت كيانها لتلك الذبذبات التي بدت

وكأنها تريد أن تقول لها شيئاً. لم تشك في أن الرب قد اقتادها إلى هذه القبة التي من حجر وغبار لكي تفسر بنفسها إشارة ربما سيعطيها إياها بإحضارها إلى معبده. عندئذ أطلقت بكل عذوبة السؤال الذي كان على رأس لسانها منذ عدة شهور:

- أنا سأموت غداً، أليس كذلك؟

- 14 -

اشتعل لهب خفيف في أكثر أركان برج الأجراس ظلمة. ومج الرجل الذي يضع السيجارة بين شفتيه نفساً من التبغ، فكشف توهج الجمرة وجهه. ثم أطلق بعد ذلك ستارة من الدخان اخترقتها حشرة مضيئة. دنت آليا إيمار من الفتى، وأومأت إليه طالبة منه السيجارة، أخذت منها نفسين بصمت وهي تشعر بأنها تهوي من البرج إلى الفراغ.

- ما الذي تفعله هنا؟

- مثلما ترين، أدخن فكرة.

وضع السيجارة بجانبها مرة أخرى وعادت آليا إلى شفطها بشهية.

- وفي أي شيء كنتَ تفكر؟

- في الشيء نفسه الذي سألتِ الرب عنه.

- ثم؟

حبس الفتى الدخان مطولاً في رئتيه ثم راح يطلقه ببطء. ولاحقت هي مساره إلى أن تلاشى في الليل.

- الرب يوحي إلينا بالأسئلة، ولكنه لا يقدم لنا الجواب.

- ما الذي تريد معرفته؟

- لماذا أنا جبان. إنني عاجز، وأنا أحمل سكيناً في يدي، عن تقشير ثمرة دراقن.

- عندما يتعلق الأمر بقتل أحد نصبح جميعنا جبناء.

- أخي ليس كذلك. فقبل أن يفكر بما سيفعل يكون قد فعل.

- أنتَ كنت في الكمين، أليس كذلك؟

- وكيف عرفتِ؟

- الرمال إلى جوار الصخرة تلمع ببقع من الدم. القرية كلها ذهبت لرؤيتها. هل قتلتَ أحداً؟

- أنا؟

- وأخوك؟

- أرجو من الله ألا يكون قد فعل.

مسحت أنامل آليا إيمار جفون الفتى ثم جابت بظفري إبهاميها رموشه الملتهبة من جانب إلى آخر. وفكرت: هذا أشبه بالطواف حول بيت لا يمكن لمسه، فعينا استيبان الكوبالتيتين لا تنتهيان أبداً ولن تكون هي سيدة هاتين الحدقتين، مالكة هاتين الجوهرتين الصلبتين، هاتين الشعلتين المزركشتين بدوار في أعماقهما. الشمس لم تطلع بعد، ولكن حزام الضوء الأحمر الذي يسبق طلوعها كان كافياً لإشعال القرية الصغيرة.

انضم صياح أول ديك إلى صياح ديك آخر بعد دقيقة، ثم إلى صياح مئات الديكة بعد قليل.

- يقال إن الجيش النمساوي سيدخل الجزيرة ويقتلنا جميعنا.

- من يقول ذلك؟

- بافلوفيتش. إنه ينام وتذكرة سفر في عابرة محيطات في جيب بيجامته.

- لماذا تصدقه؟ إنه رجل أناني وجبان.

- ربما كان كذلك. ولكنه وطني.

كورت آليا إيمار رؤيا الجزيرة كلها. إنها تعرف كل بيت، والكثير من أثاث الصالونات، والشهور المشطوبة في التقاويم، وأسرة الحديد البيضاء في المستشفى، والشقوق التي في قاعة المدرسة، وحمامات أشقاء صديقاتها الصغار، وعش غربان البحر، والميزان الألماني حيث يزنون في هذه اللحظات بالذات الخبز لكي يوزعوه من بيت إلى بيت على دراجة ذات ثلاث عجلات، وهي تعرف كل قائمة الأغاني التي يترنم بتصفيرها شبان الساحة، والتوريات التي يوجهها إليها بالإجماع المعجبون بردفها وكاحليها، والرجال الذين يتحرقون عارضين عليها لحس صواني أذنيها، بل وكعبيها كذلك، بلعاب مفرقع ومنوي. أتكون هذه الحفنة من الصغائر هي الوطن؟

- هنا لم يكن يحدث أي شيء قط، والآن أتت السياسة لتقلب كل شيء رأساً على عقب.

- بل حدثت أشياء. لقد حدثت أشياء لا تُنسى.

- ذكرني بحدث واحد على الأقل.

- النيزك الذي انفجر عند صخرة الظل الطويل.

- ياه! في كل مكان تسقط نجوم من السماء.

- ولكنكِ كنتِ أول من وصل إليه.

- حسن، ركضنا في جماعة وتخلف البعض لأن شرراً كان يتطاير.

- وأنا كنت مع تلك الجماعة، وأعرف أنك ركضت بقوة أكثر من الجميع.

- عن أي أشياء تحدثني؟

- أحدثك عن أشياء حدثت. حدثت مناولتك الأولى. اجتزتِ يومذاك القرية برفقة أبويك وخلّفت أثراً من الثلج في كل خطوة.

- ثلج في جيما؟ أنتما ابنا كوبيتا مجنونان لا علاج لكما. أنت وأخوك.

- ويوم أصابتك الحمى في المستشفى، وبينما كانوا يضعون لك كمادات جليدية على جبهتك، كنت تنظرين دون أن ترمشي إلى الجدار ورويت ما كنتِ ترينه بلغة لم يفهمها أحد؟

توصلت آليا إيمار إلى قهقهة حملها الصدى إلى عقد القبة. نظر إليها استيبان وهي تضحك برصانة موثق عقود، إلى أن اهتز للسعادة التي تنبثق من كل سن من أسنان الفتاة، فانفرج فمه أيضاً عن ابتسامة، ودنت عيناه القسريان منها بلطف.

- أهذا هو الوطن بالنسبة إليك؟

فقال استيبان مباشرة بجدية:

- هذا ما أظنه.

- ولكن إذا ما أجريت الحسابات يا تيبي، فسيكون الوطن حسب ما قلته مختزلاً في شخصي المتواضع.

- وفي كل ما يحيط بكِ بالطبع. لا يروقني أن يُلبسوني بدلة عسكرية ليقذفوا بي بعيداً عنكِ.

لا بد أن موزع الجرائد يستلم في هذا الوقت طبعة **لاريبوبليكا** من السفينة البخارية. فالسفينة تدخل في هذه الساعة إلى المرفأ بصمت، ولكنها لدى المغادرة ستطلق صفيرها، وفق اتفاق بين القبطان والخوري، لكي يتجنب هذا الأخير المصاب بداء النقرس الصعود ليدعو إلى صلاة الفجر في الساعة الخامسة فجراً. وهو يهدي إليه في كل شهر مقابل هذه الخدمة زجاجة من نبيذ توكاي المعتق مخبأة في سردابه قبل زمن طويل من جائحة الفلكسرة التي أجدبت المزروعات.

- هل تعني أنك تشعر بالسعادة التامة في الجزيرة؟

- ليس إلى هذا الحد. ولكنني عندما أشعر بأن هناك ما يضايقني أكتب أشعاراً.

أطلقت مرة أخرى ضحكة سمعها حتى الأب بريجل وهو يرسم إشارة الصليب قبالة ذلك المذبح حيث ينتصب المسيح برفقة تمثال صغير بني ورمادي للقديس روكي، شفيع الصيادين والقراصنة. تشرب استيبان هذه السعادة الكاملة، ولم يدر كيف انفجرت من فمه، هو الذي لا يجود بأكثر من ابتسامة يُخرجها بصبر من أعماق روحه مرة كل شهر، قهقهة ضحكة لها صخب حجارة متهاوية.

- قصائد يا تيبي؟ هناك معجب أهدى إلي مقطوعة شعرية في **لاريبوبليكا** قبل أيام. هل قرأتها؟

- لا - قال الشاب بتعجل، قاطعاً ضحكته بوضع قبضته على شفتيه - وما رأيك بها؟

كانت آليا إيمار تتهيأ للبحث مرة أخرى عن قهقهة الفتى المتواطئة لتعلن بعفوية «مثل البراز»، حين داهمها شحوب صحوة تليق بالأعالي الكنسية حيث يتبادلان الحديث، فحبست أنفاسها، وبدلت ما كانت ستقوله بكلمة لا تكاد تُسمع «عبقرية»، ولكنها كانت واضحة بما يكفي مع ذلك لكي يكتسب استيبان لون سائح نرويجي بعد يومه الأول تحت شمس شاطئ جيما.

«إذا كنتُ أنا الوطن في نظر هذا الرجل، فليس غريباً أن يكون هو من أهدى إلي تلك الأشعار ليحول دون زفافي».

– بعد قليل ستصل السفن محملة بعشاء الحفلة. وسيأتونكِ بالهدايا من كل السواحل. وسنرقص الفالس والتورومبا، ويوم الاثنين فجراً، قبل أن تشرق الشمس، سنكون جميعنا ميتين.

احتضنت العروس، وهي ما تزال محبوسة الأنفاس، صدر استيبان ملتصقة به بشدة، كما لو أنها تريد استعارة قلبه ليضخ هواءً في قلبها. لقد صفعتها خطبة الفتى معيدة إياها إلى الواقع.

– أنت تعرف الجواب على السؤال الذي صعدت لأوجهه إلى الرب، أليس كذلك يا استيبان؟

رمش الفتى، ثم أطبق جفونه بقوة محاولاً أن يركز على هذا القاع الصخري، حيث خلَّف مرور الأمواج العميقة كتابات مماثلة لتلك التي يشعر بها محفورة في دماغه. ودون أن يفتح عينيه، تلعثم بريبته:

– شيء خبيث يحدث لك يا آليا إيمار. لدي إحساس بذلك ولكن ليس لدي الكلمات للتعبير عنه.

عادت هي لتلتصق به. ولكن الشاب كان ينطفئ دون صحو لكي يقول:

– هل سأموت هذه الليلة؟

أبعدها من كتفيها، مستبقياً إياها على مسافة قريبة، وداعب صواني أذنيها كما لو أنه فقد شيئاً. بحثت عن عينيه ورأتهما معكرتين بماء غريب. وضعت إصبعاً على أنفه ورسمت خطاً من أرنبة الأنف، مارة بالصدر والخصر، إلى أن توقفت بجماع يدها فوق طرف عضوه الصلب. أمال الشاب عنقه وصفعه الحياء مرة أخرى حتى أذنيه.

– لقد سخنتَ - قالت له هامسة.

داعبت عضوه ثم رفعت تلك الأصابع إلى أنفها وهي تحس بأن إفرازات منيه قد نفذت من البنطال، فشمتها بتوقير مضطرب، ثم التفتت إلى استيبان وقالت له بصوت خافت:

– شكراً لطرقات الناقوس الأربع.

– آليا؟

– طرقات الناقوس الأربع. لقد أحضرتني إلى هنا عندما قرعتها.

تقدم الشاب نحو الفتاة ملاحظاً كيف أن وريد حنجرته يكبر من ثانية إلى أخرى.

- أنا لم أقرع الأجراس قط.

سُمع الآن الصفير الصاخب الذي تطلقه السفينة-المنبه، وسُمعت معه الشتيمة التي وجهها أحد الجيران إلى السفينة وأمها.

- ولكنك سمعتَ تلك الطرقات، أليس كذلك؟ فقد كنتَ في البرج بالذات.

- آليا إيمار. لا.

نظرت الفتاة هنيهة إلى أظفارها، وبرمت إحدى يديها وعضت عقدة الإصبع الوسطى. ثم ألقت شعرها إلى الوراء في حركة ناعمة. وقالت:

- حسن يا استيبان.

ونزلت الدرج.

اتسع الأرق كجائحة. وبقي جيرونيمو مسهداً طوال الليل، بالرغم من أنه كان يخطط لأن يبدو في يوم زفافه أكثر شباباً وفتنة مما كانه على الإطلاق. لم تنقصه النقود قط، ولكنه كان يفتقر بالمقابل إلى الجذور. ولهذا كان ينفق ثروته بسخاء ارتيابي، مبذراً على تحقيق سعادات صغيرة لأهالي الجزيرة. وقد كان العرض السينمائي مثالاً على ذلك. ولكن أكثر أبناء الجزيرة فضولاً كانوا قد تعرفوا على الفن السابع قبل ذلك بالطبع من خلال غزواتهم السريعة إلى أغرام، بل إن بعضهم عمل في السفن التي تنقل مفاخر نبيذ توكاي، ورجع إلى بيته بأخبار عن الأعمال السحرية التي يحققها الأخوان لوميير.

كان يمكن لجيرونيمو لو أنه عاش في زمن آخر ومكان آخر أن يكون أميراً خادماً لشعبه. ولكنه لدى وصوله إلى سواحل ماليسيا لم يبحث سوى عن قطع علاقته ببعض عاداته الأسرية. فمرض أبيه، المصرفي المشهور في سالزبورغ والمرتبط بالنخبة السياسية، كان إيذاناً بموته الوشيك، والانتهاء المحتمل بذلك لحقوقه البنوية. وهو، حسب ما يتذكر، لم يتبادل مع أبيه أي جملة جوهرية على الإطلاق.

لم يكن جيرونيمو يأمل بميراث كبير من أب يقتر عليه بنفقاته الشهرية في الحياة، وقد تصور بأن ما سيورثه إياه سيكون أسهماً أو أوراقاً طويلة الأجل تقطر عليه فوائد حتى الشيخوخة متفادياً بذلك أن يبذر وريثه في المغامرات ما توصل هو إلى جمعه بالعمل والتقشف.

لقد كان في حالة من الغيبوبة ثم من الضجر حين انضم إلى المعهد العالي في مدينة مولده، حيث أبدى اهتماماً بدروس القانون الدولي، في قارة على عتبة حرب ستخرق ليس القوانين وحدها وإنما أبسط الحقوق

الإنسانية كذلك. أما في بقية المواد فبقي ضمن جملة العاديين دون أن يرفع رأسه حتى عندما يسهر معه بعض الأكولين لكي يهيئوه لامتحان ما. وكانت درجته الممتازة في مادته المفضلة هي الوحيدة التي تتيح له متوسطاً سنوياً ضئيلاً فوق الحد الأدنى المقبول، وهي فضيلة كان المعلمون يكافئونه عليها بجبر الكسور العشرية من درجاته إلى الرقم الصحيح الأعلى.

ومع الأخذ بعين الاعتبار كذلك أن معظم أساتذته كانوا زبائن معروفين في مصرف أبيه، يتلقون منه قروض رهون بفوائد تفضيلية، وأحياناً منسية، فإنه يمكن اعتبار درجاته الأكاديمية محصلة توازن تجاري.

اهتمامه بمواد القانون الدولي دفع أستاذ كرسي هذا الفرع إلى دعوته إلى ندوة أبحاث في لوبيك، في شمال ألمانيا، حيث البارون فيتينغهوف، القلق من بعض الظواهر العنصرية والتسلطية في وطنه، دعا إلى معهده أساتذة لامعين وشباناً واعدين ليناقش وإياهم السبيل الذي يمكن من خلاله للقانون الدولي أن يشكل إطاراً يكبح جماح السياسيين الألمان إذا ما قادهم تطرفهم القومي إلى التعصب والحرب ضد جيرانهم.

وفي فقرة أخرى، كانت الدعوة تتضمن كذلك التأمل حول مواضيع مثل سيطرة قوانين الإنسانيات على التشريعات القومية في حال تعديها من خلال التعذيب والجريمة السياسية على حقوق الأقليات الإثنية، أو حقوق المتمردين ضد السلطة. والوثائق الاتهامية المجهزة في إضبارة سميت «بيضة الأفعى» بدت لجيرونيمو مدوية جداً إلى حد أُصيب معه بنوع من المرض العصبي الذي تُرجم إلى قرف من كل ما يؤكل. وقد أمضى أسبوع المناقشات شاحباً ومزرق العينين، يتعشى عند الظهيرة مربى تفاح وحسب.

وفي قطار العودة، بينما هو يتأمل بإعجاب ازدهار بافاريا بمروجها الفردوسية وجبالها المنخفضة التي رسمها الرومنطيقيون، طرح على نفسه فكرة الهجرة من النمسا إلى أراضٍ أقل «تاريخية»، خصوصاً وأنه

وافق بشحوب على النتيجة التي استشهد بها معلمه عند افتراقهما في «فيين مايت»:

«التاريخ ما هو إلا صورة جرائم ونكبات».

وفي اليوم التالي تفحص بواسطة عدسة مكبرة مجسماً للكرة الأرضية راح يديره ببطء ويؤشر على تلك المناطق التي لا تشد إليها جشع الجمهوريات العسكريتارية. وبعد نصف ساعة من البحث، تمنى بحرقة لو كان هناك كوكب آخر. ومع ذلك، فقد استثارت مخيلته ثلاثة أماكن:

نيويورك، الميتروبول الجنونية حيث الرجال المرموقين يشربون الشمبانيا في الليل على أرداف شقراوات متهتكات ومدمنات على الكوكائين، ويشيدون في النهار ناطحات سحاب وهم يلعبون البوكر في مكاتب مبطنة بالمخمل والجلود.

تشيلي، البلاد غير المركزية، النحيلة والمعزولة في أقصى طرف العالم، والتي تتحلل أقدامها في بقعة جليد قطبي بحيث لا يمكن لها - مثلما فكر- أن تشتثير جشع أحد.

وهذه الجزر الصغيرة المبعثرة على سواحل ماليسيا التي لا يمكن رؤيتها إلا بعدسة مكبرة، والتي لا تنتج ذهباً ولا يورانيوماً، لا نيكلاً ولا نحاساً، لا كوبالتاً ولا فحماً، لا حديداً ولا قصديراً، وإنما تنتج فقط زيت زيتون، ونبيذاً أبيض من السلالات الفرنسية، ولاعبي كرة سلة وراقصي تورومبا، وهي على مرمى حجر، في متناول اليد مثل عسل على رقائق.

بعد أسبوع من ذلك اكتسبت مساعيه الجغرافية واقعية غير متوقعة بموت والده. ففي الساعة الأخيرة من حياته طلب الأب من الطبيب أن يحقنه بأونصة من الأفيون في الوريد مباشرة، وطلب من ابنيه أن يمسكا بيديه ويصليا من أجله. كانت أخته باولا تعرف كل الصلوات المناسبة ورتلت بصوت رزين النصوص القيامية الممزوجة بمسرة الانبعاث الوشيك والسعادة الأبدية.

قاطعها المحتضر لكي يعبر عن هاجس بدأ يؤرقه منذ تبين له أنه مصاب بالسرطان قبل شهور.

- هل تعتقد يا بني بأنهم سيعترفون في الحياة الأخرى بمكانتي

الاجتماعية؟ هل تعتقد بأنه يتم التمييز هناك بين أناس من أمثالنا والعمال العاديين؟

- إنني أضمن لك ذلك يا أبتاه - ردت باولا دون أن يرف لها جفن - فالكتاب المقدس يغص بآيات تقر الامتيازات الدنيوية وتحترمها.

عندئذ توجه الأب ببقية من صوت إلى جيرونيمو:

- وماذا عن ذلك الذي يقال عن الجمل والإبرة؟ [1]

انتهز الشاب فرصة إغماض المريض عينيه، فهز كتفيه، ثم حث أخته على الرد على هذا السؤال المفاجئ.

فقالت:

- أبتاه. إنك تذكر نصاً يتقبل الكثير من التفسيرات.- وحين أحست بأن أصابع أبيها تتشبث بأصابعها بتلقائية الوداع، قررت إطالة كلامها إلى أن يتوقف تنفسه تماماً -. كل الآيات المتعلقة بالحيوانات تتميز بشيء من الإبهام الخيالي الذي يقدم ومضات غامضة. مثلما تقدم مخيلة الشعراء الملونة تلاعباً بالكلمات، فإذا رُتبت معكوسة تقول شيئاً وإذا وضعت سوية تعبر عن العكس. ولنتوقف عند الجمل وحده. ما علاقة مثل هذه الدابة بمملكة حيواننا المحلية وتجربتنا الحياتية؟ هل رأيت طوال حياتك يا أبي جملاً؟ وهل تعتقد بأنه يمكن نقل أشياء من ثقافة محكومة بالجغرافية المحلية بكل طرافتها الحالمة وشذوذها إلى ثقافتنا القنوعة والزاهدة والروحانية؟

توقفت باولا وقفة طويلة بما يكفي للتأكد من أن العجوز قد مات. وقالت عندئذ: «إلى آخره»، ثم أضافت «آمين»، وانتزعت ببعض الجهد أصابع يدها من أصابع يد الميت، ثم ساعدت جيرونيمو في التخلص من قيده، وبعد أن قاطعت يدي الميت تحت فكه، رسمت برصانة إشارة الصليب، وبعد رسم الخشبة الأخيرة من صليبها الوهمي، مرت بأصابعها على رموشها وكأنها تُزيل دمعة.

---

[1] إشارة إلى قول السيد المسيح: «دخول الجمل من ثقب إبرة أهون من دخول غني ملكوت السموات».

بعد دفن المصرفي في مقبرة كومونال- فريندهوف، ذهب الأخوان إلى مكتب المحامي ليطلعا على تفاصيل الوصية والميراث. ولم تخب توقعات الأخت الكبرى، إذ حصلت باولا على إدارة المصرف، وعلى المنزل في كيسردرام، وسيارة الأوبل المكشوفة الزرقاء ذات النفير الخارجي المطلي بالفضة، ومستودع اللوحات حيث لم يكن هناك ما يستحق الذكر، لولا أعمال شاب كنيته موديلياني مستقر في فرنسا، وينتظره مستقبل أكثر من الحاضر، وقد وُضع ضمن الإرث العائلي كضمانة غير مؤكدة لقرض غير مدفوع منح للاستثمار في مشرب بيرة في لينز.

فيما يخص جيرونيمو، فإن ملخص ممتلكاته جاء مرفقاً برسالة تحمل توقيع أبيه يعرض فيها وجهات نظر، وينصح باتخاذ إجراءات، ويملي تعاليم جيوبوليتيكية. قرأها المحامي وهو ينزل النظارة فوق أنفه بصوت رتيب، موضحاً بأنه يبعد بذلك الألم العظيم الذي يشعر به لموت زبونه وصديقه:

بني:

بالرغم من أنك كنت غريب الأطوار منذ صغرك، فإنني أحبك. لم أقل لك هذا قط لأنني كنت أفتقر إلى الوقت. في طفولتك كنت تقول أشياء شديدة الغرابة والشذوذ إلى حد أنني عمدتك بلقب «الشاعر». أرجو أن تكون قد شفيت من تلك الآفة. إنني أترك المصرف لأختك لأنها تعرف ما الذي تفعله. لأنك إذا ما توليت مسؤولية هذه السفينة الضخمة فسوف تغرق في أول بركة ماء تواجهك. ولهذا، ستتلقى حساباً مصرفياً كرأس مال يعادل الممتلكات الثابتة التي تعرف أختك كيف تديرها. استخدم هذا المال بتعقل. اشتر بيتاً في ألمانيا، فهي القوة العظمى الجديدة؛ وأفتتح كفيتريا بالقرب من ساحة مسقط رأس موزارت. فحركة السياحة نحو الجنوب ستستفيد من مدينتنا، لأنه ليس هناك من يريد أن يكون من الفظاظة بحيث يُكسب قدمه لوناً برونزياً في سواحل ماليسيا دون أن يتلقى قبل ذلك وخزة ثقافية في سالزبورغ. وليكن إنفاقك متواضعاً بصورة خاصة على الطعام، ولا تتزوج قبل أن تتأكد من أنها تحبك لشخصك وليس للمال الذي ورثته. لديك ما يكفي لإسعاد الكثير من

النساء، ولهذا تصرف بتريث وهدوء. وأتوسل إليك قبل كل شيء أن تنهي دراستك الجامعية. فليس جميع المحامين لصوص، أو أنهم ليسوا كذلك طوال الوقت، وهذا ما يثبته عزيزنا الدكتور غيسنر. لن تضيف الشهادة الجامعية شيئاً إلى أموالك، ولكن حصولك على الدكتوراه في القانون سيجعلهم يسرقونك محاذرين من أن يكونوا قد تمادوا.

بعد انتهاء الإجراءات، توجه الأخوان مشياً على الأقدام إلى المقر الرئيسي للمصرف، اشتريا من دكان الطحان بابست قطعتي حلوى، والتهماهما مع كابوتشينو ذي رغوة احتفالية، وقد ابتسما حين رأيا صورتيهما في المرآة بشاربين رفيعين أبيضين. ولم يمحوا تلك الشوارب متذكرين إحدى التواطؤات الطفولية، بل إنهما تجاهلا سخرية النادلة التي أشارت إلى اللطخات البيضاء فوق الشفاه.

خرجا إلى الشارع وذهبا بالمزاج نفسه إلى المصرف. وضعا نظارتين سوداوين لكي يكملا مظهر الحداد، وأشارت باولا إلى سكرتيرة الأب لكي تدعو أمناء الصندوق والإداريين إلى البهو المركزي لكي تلقي عليهم بياناً. اتخذت موقعاً إلى جانب أخيها عند منتصف الدرج الرخامي، وبعد دقيقة من التأمل الصامت، كما لو أنها تصلي، رفعت وجهها ذا الشارب الحليبي وقالت عبارتها التقليدية «السيدات والسادة». وحين لمحت بعض التململ بين جماعة العشرين موظفاً، سألتهم دون أن تتوجه إلى أحد بعينه، إذا ما كان هناك ما يسبب لهم الاستغراب أو القلق.

أنكرت الجماعة ذلك بتفخيم، وظن حاجب المدير وحده بأنه ينقذ الموقف بالقول «إنه الحزن على موت أبيكما العزيز فقط». «أتفهمُ الأمر» أكدت باولا ذلك، ثم التفتت نحو أخيها وأشارت له بسبابتها: «هناك شارب من حليب على وجهك.» فسارع جيرونيمو إلى مسحه، ورفعت هي ذقنها باعتزاز لكي يسود الشارب الأبيض الوحيد الآن بمهابة متفردة. «يخيل إلي أيها السيدات والسادة أنكم قد علمتم بأن المدير الوحيد للمصرف الآن هو أنا. وأبدأ مهمتي تحت شعار: 'الصرامة والانضباط'».

عندما تفرقت جماعة الموظفين ذهبا إلى مكتب المتوفى حيث وجدا

فوق حافظة الأوراق المغلفة بالجلد، إضبارتين كُتب عليهما بخط يده اسما الوريثين. عندما وصل الأخ الأصغر في الصفحة الثالثة إلى التأكد من المبلغ الذي أودع لحسابه، قال بغم إنه يملك أموالاً كثيرة تكفيه للانغماس في كل الرذائل التي يمكن تخيلها طوال ما تبقى من حياته، وأن يترك بقية منها لفرخٍ عرضي قد ينجبه. أما باولا من جهتها فتأكدت من أن كل شيء منظم مثلما عرضه الدكتور غيسنر، ولم يكن هناك سوى مغلف مغلق بث شيئاً من الغموض في طقوس الاستلام. وبعد أن فتحته وقرأته دفعة واحدة، قدمته بابتسامة غير مبالية إلى أخيها. كان النص موجزاً: «تحذير أخير. باعتبار أن معظم زبائننا ينحدرون من بافاريا، فإنني أوصيكِ بأن تبدئي بالتخلص بتكتم من موظفينا اليهود: الحاجب فريدمان، وموظفة الصندوق ميرابفيل، والكاتب ليلينكورن. احصلي لهم على عمل آخر هنا أو هناك حتى لا يبقوا في الشارع.»

نظرت باولا إلى شاربها في مرآة المكتب المنسية، ومسحته الآن بفركه بأحد أصابعها.

– كيف وجدت «كلمتي الافتتاحية»؟

– حازمة.

– لقد جعلتهم جميعهم يتغوطون، صحيح؟

– مسحتِ الأرض بهم.

– المصرف سيسير الآن بدقة ساعة سويسرية.

– بالضبط. مثل ساعة ألمانية.

خرج جيرونيمو إلى الشارع وركب سيارة أجرة لتحمله إلى الجامعة. أخرج من غرفته «**الموجز في القانون الدولي**»، يلهمه يقين غامض بأنه قد ينفعه يوماً في شيء ما، مرّ على مينسا ليشرب زجاجة مياه معدنية، وهناك ترك بقية كتبه الدراسية منسية. ذهب إلى مكتب العميد، وطلب من الموظفة ذات الشعر المرفوع فوق رقبتها، والنظارة المدورة، والأسنان الملطخة بالتبغ، بأن تأتي بدفتر التسجيل، وأكد عليها بأن تشطب اسمه بحبر أحمر.

– هل ستذهب في إجازة؟

- بالضبط.

دونت المرأة ملاحظة عن انقطاعه عن الفصل الدارسي ثم طلبت منه أن يحدد بدقة فترة تغيبه.

- آه، سجلي «غير محدودة ولا نهائية».

جعدت الصدمة جبين الموظفة.

- سأسجل «ما بين أربعين وخمسين يوماً» أيها الشاب جيرونيمو. فالسيد والدك لن يروقه أبداً هذا الذي تفعله.

أخرج جيرونيمو ورقة من فئة الخمسة شلنات، وقذف بها إلى المرأة بنشاطِ وضعه الجديد:

- أحسنتِ صنعاً بتذكيري به. أرجوك أن تستخدمي هذه النقود في شراء أزهار وحملها إلى ضريحه في المقبرة.

على بعد مبنيين إلى الجنوب كان هناك محل صغير حيث تباع وتصلح أدوات مختلفة تحت الاسم الأكاديمي «العيادة». وكان صاحب المحل الإسباني الضئيل ذا الأصابع الدقيقة يتفحص أنابيب أجهزة راديو واضعاً مونوكل جواهري على عينه اليمنى.

- هل تريد إصلاح شيء يا سيد؟

- ليس لدي ما أصلحه حالياً. ولكنني مهتم بالإعلان المعلق على نافذتك.

الإعلان المعلق على النافذة؟

- «نحتاج إلى مساعد».

- آه، هذا إعلان قديم. لم يعد إيراد المحل يكفي الآن لاستخدام مساعد - ولكن بارقة حماس شجعته، فحك صوان أذنه بمتعة وقال:- هل تفهم في أجهزة الراديو؟

- أعرف كيفية إشعالها وإطفائها.

- وما عذا هذه الموهبة الهائلة، هل تعرف شيئاً عن آلية عمل هذا الجهاز؟ تركيب أجزائه ووظيفة كل «آلة» فيه؟

- آه، لا. لا شيء من ذلك.

لم يفقد الإسباني حس المزاح لهذا الجواب، بل بدا سعيداً بهذا الوضع:

- وتريد أن تكون مساعدي؟

- هممم، هممم.

- صدقني أيها الشاب أنني أقدر تقديراً هائلاً اهتمامك وتأهيلك الأكاديمي في مجال الإلكترونيات، ولكنني لا أملك ما يكفي لأدفع لك ما تستحقه إمكانياتك.

رفع جيرونيمو مخروطاً يضم كابلات رفيعة جداً متنوعة الثخانات، ثم أدخل بعد ذلك يده في علبة مصهَرات.

- ليست هذه هي المشكلة. لأنني أنا من سيدفع لك مقابل عملي مساعداً.

دوت أجراس كاتيدرائية سالزبورغ أربع مرات واستمع إليها الرجلان باحترام مبالغ فيه. ثم تتحنح الكهربائي:

- هل أجرح مشاعرك إذا ما استبدلنا صفة «مساعد» لتحديد وظيفتك السامية بصفة «متدرب»؟

- ولا بأي حال. صفة متدرب تبدو لي مطابقة تماماً.

وبقفزة واحدة فتح له الفني الطريق ليدخل إلى جواره وراء الطاولة.

- وما الذي قادك إلى هذا الاهتمام بأجهزة الراديو يا سيد...؟

- ... فرانك، جيرونيمو فرانك.

- وهل أنت قريب المصري فرانك؟

- قريبه المقرب يا سيد...

تورينتيس. وما هي دراجة القرابة؟

- إنني ابنه. - ثم صحح قائلاً: حسن، أعني يتيمه.

راح الفني يمشي بعصبية من جهة إلى أخرى في الدكان الضيقة، متعثراً بمعدات، وعلب كرتون، وأكوام صحف قديمة، وحتى بمرساة سفينة. لقد فقد في ثانية واحدة كل قدرة على التحكم بنفسه.

- آه، رباه! - هتف دون أن يتوقف عن التعثر، محاولاً في الوقت نفسه

إعادة ترتيب ما أوقعه، ثم قال: حضرتك لا تعرف مقدار المبالغ التي أدين بها للسيد أبيك! كل هذا الذي تراه مرهون. حتى آخر برغي هنا. لا بد أن لديه انطباعاً سيئاً جداً عني. ولكن المحل كما قلت لك لا يوفر ما يكفي لشخصين. والحقيقة أنه لا يكفي لشخص واحد كما أظنك لاحظت. فالناس ببساطة ليسوا معاصرين. إنهم لا يرون في المذياع إلا مصدر أصوات صخب مشوشة. ولكن كل شيء سيتغير يا سيد فرانك إذا ما تحقق ما أحاول اختراعه. لأن هذا المحل، واعذرني لهذا الغش، ليس إلا واجهة. أجل يا سيدي، إنه مظهر وحسب. أما ما هو جدي فعلاً في هذه الزريبة يا سيدي العزيز فموجود وراء هذه الستارة. اسمح لي.

سحب قطعة القماش ذات النوعية الخشنة والقاتمة، وكانت شمس الساعة الرابعة في سالزبورغ جنوبية بما يكفي لكي تشعل بالضوء ركن الفني تورينتيس الخاص. وفكر جيرونيمو: لا يمكن وجود مثل هذه الأجهزة الجهنمية إلا في عيادة الدكتور فرانكشتاين. ففي حوض استحمام، ما بين أباريق وطسوت، كانت هناك حدائد مرفوعة مثل هوائيات، وأحجار كبريتيد الرصاص مع صفائح مشعة، وسوائل ذات ألوان لا يمكن تحديدها تنزل منها قطرة كل ثانيتين عندما تحقنها شرارة.

نظر تورينتيس بغبطة إلى ما كان الآخر ينظر إليه بتقدير ورهبة. وفي لحظة حميمة مفاجئة أمسك بمرفق الشاب وهزه وكأنه يقف أمام رؤيا للأرض الموعودة، وقال:

- انظر يا سيدي. كل مشكلةِ التخلص من التشوش هي في إلغاء السكون. فإذا ما توصلنا إلى جعل عمل هذه الشرارة متواصلاً وغير متقطع فسيصفو الاستقبال ويصير بالإمكان الاستماع بوضوح كامل حتى إلى أعمال موزارت التي تبثها فيلهارومنيكا لندن. النمسا يا سيدي تُنشّط التجارة، ولكن ليس الفن. آه، رباه، لا بد أن السيد أباك يكرهني.

- حسن، لقد مات يوم أمس.

- لا بد أنه كان يكرهني كثيراً.

- بحماس يا سيد تورينتيس - قال جيرونيمو مهدياً إلى المخترع

الضئيل لفتة تعاطف مَدين مفاجئة حدسها الرجل الضئيل شاكراً.

– إذا لم تعد الشرارة مشتتة وصارت متواصلة، فإنني سأدفع لك كل ما أنا مدين به مع زيادة كبيرة.

– يجب ألا تغتم كثيراً لهذا الأمر. اسمح لي أن أكون مساعدك، لأن لدي اهتماماً عميقاً بعالم الراديو.

– موافق.

– سأدفع لك مقابل دروسك ومقابل تعليمي كل الخطوات التي خطوتها لإلغاء السكون.

– بكل سعادة أيها الشاب فرانك. ولكن لا حاجة لأن تدفع لي.

– آه، بلى. رغم كل شيء.

– فلنقل شلن واحد في اليوم.

– ولا بأي حال. إنني أقدر موهبتك تقديراً كبيراً بحيث لا يمكنني أن أبدي البخل.

– حدد الأجر أنت إذن أيها الشاب.

– ما هو مجموع الديون المترتبة عليك للمصرف يا سيد تورينتيس؟

انفجر الرجل ضاحكاً وفككته قدرته الدافعة مرة أخرى بضرب قذاله بالتقويم.

– لقد فقدت ذاكرتي تماماً. لم أعد أذكر أين ولدت ونادراً ما أتكلم الإسبانية. فتخيل إذا ما كنت سأتذكر حجم ديوني الخارجية.

أخرج اليتيم اللامع من جيب سترته الداخلي دفتر شيكات مغلف بجلد أخضر وملأ نموذجاً بحروف فاخرة لا تشي بجهله بهذا الفرع، بمبلغ ألفي شلن وقدمه صارخاً «ها هنا».

– لا أفهم لماذا تقدم لي هذا الجميل الذي لا أستطيع رده. فمثل هذا المبلغ من المال يتجاوز قدرتي على التخيل. إنه حصيلة سنوات طويلة من الإخفاق. لماذا تفعل هذا يا صديقي الطيب؟

– حباً بالفن يا معلم.

– تعني حباً بالتقنية.

– فلنتفق على القول «حباً بالشعر» يا سيد تورينتيس. فأنا أيضاً لا

أطيق فرقة سالزبورغ السيمفونية ولا مديرها المدعو برايل.

– لا تذكر اسمه أمامي. إنه عازف كمان أول مشؤوم، عازف كمان رديء... بسكون؟

– هكذا بالضبط. إنه من نمط ساليري[1]. متى نبدأ الدرس الأول إذن؟

الآن يا سيد فرانك. هل أعدّ لك فنجاناً من الشاي؟

– بكل سرور. قال المتدرب فرانك ذلك وهو يشد ذراعيه بتثاؤب انتصاري.

---

[1] انطونيو ساليري Salieri: موسيقي ايطالي (1825.1750)، ومؤلف اعمال اوبرا وموسيقى كنسية.

اقترح هو نفسه تغيير الاتجاه وركب أول سفينة متوجهة إلى الجنوب. كانت اليونان هي وجهة السفينة «**فاليريا لوبيركا**» لكن قبطانها اعتاد أن يدنو من بعض الجزر الصغرى ويلقي على أطرافها أكياس مهربات إلى قوارب يبدو المجذفون فيها وكأنهم محبوسون في السجن. ولم يسبب ذلك التأخير أي ضيق لجيرونيمو.

إنه يريد إيقاعاً آخر، زمناً مختلفاً، فضاءات أقل كثافة سكانية، لقاء بالشمس والهواء ينحت شيئاً أكثر رجولة في وجهه الشاحب. وقد كانت الفرصة تدعو للتفاؤل. فهناك شاعر فرنسي شاب على سبيل المثال هرب إلى أفريقيا متلهفاً إلى التخلص من احتقان روحه الغريبة، وقد حقق حسب قول جريدة «**سالزبورغ ناخريشتين**» نجاحاً باهراً في مسعاه حتى أنه توقف عن الكتابة، بالرغم منأن فيرلين[1] نفسه اعتبره عبقرياً.

عندما دنت السفينة من إحدى جزر الأرخبيل، لفت اهتمامه بإلحاح الحضور اللجوج لناقوس في الكنيسة لا يتناسب مع البرج والأرض والمنطقة. تلك المضخة الصوتية تليق بكاتدرائية وليس بهذه الزرائب. ولهذا لم يجد صعوبة في الاستنتاج بأنه إذا كان الأهالي يتقبلون مثل ذلك الشذوذ، فإنهم سيتسامحون بالتأكيد مع شذوذ آخر. طلب من صاحب الزورق الذي استأجره أن يحمله إلى المرفأ، واستعلم بالغريزة التجارية للمصري العجوز فرانك عن أهم ما تفتقر إليه جزيرة جيما.

فأوجز المجذف بكآبة بأن هذه الجزيرة هي الأكثر هجراناً من يد الرب، بالرغم من أنها مشهورة يا سيدي بسمعة إنتاج أجمل الفتيات في

---

[1] بول فيرلين Verlaine : شاعر فرنسي (1844-1896) عاش حياة بوهيمية معذبة انعكست في أشعاره.

سواحل ماليسيا، جميعهن «عذراوات وحاميات»، «إلى أن يتزوجن».
وأخبره المجذف ذو الوجه الذي يستحق الشنق: لا أحد يهاجر من هنا بالرغم من توفر الفرص، لأن السفن ما أن تلقي فتات المهربات حتى تنطلق إلى وجهات لانهائية. ذلك أن الرجال هنا يختارون امرأة منذ الطفولة، ومجرد التفكير في ترك خطيبتهم المحتملة عرضة للشطط الهورموني لمرشحين آخرين «يسمرهم» إلى هذا الميناء.

والواقع أيها السيد أن هذه الجزيرة عرفت أياماً مجيدة، وإن لم تكن ثمة أيام ثراء قط. تصور أنه كان هناك في جيما متجر كبير على نمط أفخم متاجر القسطنطينية أو باريس. كان المتجر هناك، في ذلك البناء الأزرق ذي الصاري الأبيض، وكانت السفن تزوده بالمواد الغذائية الأساسية أو المأكولات الغريبة. أنت اليوم تراه هكذا، حائل الألوان، مقشر الطلاء، مكسر الزجاج، جحراً للفئران، عشاً للخفافيش، مشخة عامة. ولكن لو أنك عرفته قبل عشر سنوات. أية فخامة، وأي تموين، وكم من البحارة، وكم من الحفلات!

كان بإمكان الناس حتى دون أن يعملوا أن يعيشوا من البقايا التي يخلفها مرور السفن من حولهم.

كرمة، زيتون، أسماك، بعض الرخام، زيت، الكثير من المنتجات الطبيعية. نبيذنا كان يُشترى في فرنسا. وكان الإيطاليون واليونانيون يأتون في موسم جني المحصول. ثم أُغلق المتجر فيما بعد لأسباب أُفضّل الاحتفاظ بها يا سيدي. إنها مأساة لا يمكن إيجاد اسم لها يا سيدي.

خلال الغزوات يا سيدي، كان البرابرة يمتنعون عن البقاء في الجزيرة بسبب التكاليف البشرية لمثل هذه العملية. حاول الأتراك ذلك في إحدى المرات فأعيدوا إلى بلادهم والسيوف مغروسة في حلوقهم. الطريقة الوحيدة هنا يا سيدي لإقرار ثقافة، أو حضارة كالنمساوية، هي في إبادة الجميع بقوة السلاح، وإعادة استيطان الجزيرة بأناس محبين للعمل وبذل الجهد: صينيين، يابانيين، بروتستانتيين إنكليز.

بدت المحادثة مع المراكبي لجيرونيمو أكثر تعليمية من سنوات الأكاديمية الطويلة. فالوصف الذي قدمه لهذا العدم كان سماوياً تقريباً.

لقد كان يحمل في حقيبته ما يكفي من الكتب لتمضية بعض الشهور، وما يكفي من المال للحصول على أسماك فاخرة مقلية ونبيذ، وما يكفي من الصحة والمظهر للبحث عن عروس بين الجميلات اللواتي أكد عليهن تقرير رجل الزورق بشاعرية. ومعرفته المتعمقة بكتاب «الوجيز في القانون الدولي»، فصل «الرسوم الجمركية»، سيفيده في وقف موظفي الضرائب عند حدهم وربما تمكن ببعض الابتزازات الصغيرة من إقناعهم بإقامة متجر متواضع وأفضل من السابق، فيه سجاد جدران، وأخشاب فاخرة، وستائر، ومقاعد من الجلد. سيحصل على المحل المخرب بسعر بخس، هذا إذا لم تقدمه له البلدية هدية مراعية تأثير الإمبراطورية في مستعمراتها المقرفة.

استفسر في المرسى عما إذا كانت هناك أسرة دون ذُرية قد فقدت آخر أفرادها وإذا ما كان هناك بيت شاغر في ضواحي العالم تلك يمكن أن ينفع لراحة عظامه هذه الليلة. ولكنه عندما اشترى في اليوم التالي البيت الكبير الأزرق مقدماً شيكاً ذا خط بليغ إلى الخازن البلدي لوكاس لاوسيتش، بدأت تدور الإشاعة بأن الغريب يعد العدة لأمور فاسقة. فبيت بتلك الأبعاد وكل تلك الشرفات، والحجرات والأفناء السرية، لا يمكن له أن يكون وكراً لشخص متوحد.

ولم يكن بإمكان الجزء الخلفي من رؤوسهم أن يولّد أي فكرة أخرى سوى الماخور. فمنذ اليوم الأول بدأ أهالي الجزيرة يقيمون جيرونيمو وفق أحكامهم المسبقة. فوسط غياب الأحداث، تضخم حدث وصوله إلى حدود أسطورية. فالغازي الخبيث ينوي انتزاع أجمل الجميلات المحليات من بيوتهن العذبة ليقدمهن مقابل مبالغ طائلة إلى بحارة ستتوقف سفنهم بالضرورة في هذا العدم لمجرد معرفتهم بشهرة طزاجة وبراءة هؤلاء الفتيات اللواتي يدفعن ذكور الجزيرة «الفقراء إنما الشرفاء» إلى الحلم بعزاء الزواج، المرتكز في التاريخ المشترك، على صلات الدم والأمل بأيام افضل.

وقف الموظفون البلديون الواقعيون ضد هذه النظرية المعادية لجيرونيمو بعد أن تأكدوا من أن الشيك الذي قدمه له رصيد، وفعل

مثلهم خوري جيما الذي أحس بأن مرتبة كنيسته ستتحسن بتدخل هذا الأجنبي الغني. فهو لا يستطيع طلب الصدقات للكنيسة من مؤمنيه الذين يعيشون هم أنفسهم على الصدقات. ولولا المواد العينية، والنبيذ، والزيتون الذي يحمله إليه أهالي الجزيرة أيام الآحاد، لمات القس العنيد جوعاً. ولكن إذا ما توسعت الأبرشية فقد يكون بالإمكان حبك خطة حاذقة لطلب مساعدة مطران أغرام. وعلل الخوري نفسه بأنه ربما كان الأجنبي يفكر فعلاً في إقامة ماخور للاستفادة من موقع الجزيرة الاستراتيجي ما بين أوربا واليونان، وهذا البلد الأخير بالنسبة إليهم هو أشبه بالقطب الجنوبي. ولكنه واجه مع ذلك المرتابين بحماس، فمن مستحيل المستحيلات أن يُعرّض المهاجر المتأنق والناضج نفسه لسكاكين الآباء الفاضلين أو الشبان القلقين. ولا بد أن يكون قد اطلع في إحدى الموسوعات على سكاكين الوطنيين الحادة، ولهذا لا بد أن يكون هدفه من إقامة «مركز الملذات الترفيهي» هو إخماد تأجج انتظار الذكور بإحضار نساء من موانئ أخرى، يكن خبيرات برقصات هز البطن، ورقصات الفوكستروت والتشيمي والتشارلستون الأمريكية، وربما التورومبا أيضاً.

بعد أسبوع من ذلك، استطاع الخوري أن يرى جيرونيمو، من خلال حدائد بوابة الكنيسة المشغولة بإتقان والمزينة بأشكال للقديس فرانسيسكو والذئب، وكان فكه متهدلاً حتى الأرض المرصوفة وهو يتفحص معجزة ذلك الناقوس الذي يزن خمسمئة طن، معلقاً بخفة فراشة في برجه الصغير.

ولأنه كان يعي فضول الغرباء والسياح الكبير بأعجوبة الهندسة تلك، فقد كتب الأب حيثيات للمعجزة على رق عتّقه وأبلاه بتغطيسه في اللينوليو والأفاويه العربية. وقد أضفت هذه المعالجة على الوثيقة مسحة من عصر النهضة. وفيها يؤكد مايكل أنجلو، ذاك نفسه المعروف، بأنه بفضل يد الرب ودماغه هو تمكن من جعل بقرة تطير، ولم يقتصر على ذلك وحسب، وإنما استنتج كذلك من هذه التجربة بأنه من الممكن تصميم أجسام ميكانيكية طائرة قادرة مثل طيور حجرية ضخمة، على حمل الإنسان من بلد إلى آخر في الأجواء. وبمثل هذه الوثيقة كان الأب بريجل

يقدم مايكل أنجلو على أنه رائد الطيران، ويقدم الجزيرة البائسة، «حيث يقوم هو على خدمة الرب دون أن يتلقى مقابل ذلك سوى الخطايا في حجرة الاعتراف وحبات زيتون في كيس الصدقات»، على أنها المكان المُلهم الذي استوحى فيه العبقري متعدد المواهب كل إنجازاته، ابتداء من الطائرة وحتى كنيسة السيستين.

«مثل هذه الوثيقة ستعتبر في أي مكان من العالم يا سادتي لقية أثرية ثمينة، وربما اعتبرت صرحاً وطنياً، وكنزاً تراثياً إنسانياً. ولكن النوى عاقب جيما بإغفال تاريخها وفنها وثقافتها. فمن أجل أشياء أقل بكثير من هذا الناقوس الذي يمكن له أن يخرق الأرض حتى الجحيم إذا ما سقط من موقعه العجيب، يحتفلون بعبقرية المهندسين المصريين وأهراماتهم ويعدون صلوات وتراتيل في لورديس[1] من أجل معجزتين مؤثرتين عاطفياً وضئيلتي العلمية. فإذا ما قدم السياح مبلغاً زهيداً، أو تبرعاً ما ذا طبيعة رؤوية، مثلما يفعل مناصرو الفنون والآداب، فإنه سيتمكن من تحويل هذا الموقع ذي الطبيعة البربرية إلى تاريخ، وربما إلى مكان يتوافد إليه الحجيج.»

وبينما هو يضع القلم بين أسنانه، يعرض بعد ذلك قائمة موجزة للسائحين المتبرعين الذين قدموا مساهمات للكنيسة، والذين ستُنقش أسماءهم بإزميل على ناقوس مايكل أنجلو من أجل مجد أسرهم ومجد الرب، في اليوم الذي سيعلن فيه البابا المقدس بشخصه هذا المعبد منتدى مقدساً للإنسانية. ولا مناص من أن يسقط عندئذ مارك، أو جنيه ما، وربما فرنك في حصالة النقود، ولم يكن الخوري يتحسر إلا من ندرة المصطافين ووفرة الهاربين من العدالة الذين ينزلون لبضع دقائق في الميناء ليحتموا من العدالة. فلو أن أحداً يتمكن من جعل مزيد من الناس يزورون الجزيرة لأي سبب آخر، فإن خدماته للرب ستجد تعويضاً مجزياً. ولهذا، وعلى الرغم من حدة شمس الظهيرة، فقد خرج ليصافح الأجنبي،

---

[1] لورديس Lourdes : مدينة فرنسية في جبال البيرنيه. مركز حج. فيها كنيستان مكرستان للعذراء، إحداهما تحت الأرض.

واستغرق بذقنه المفلتة في التأمل مع جيرونيمو بتوازن ذلك الناقوس المستحيل.

– أبتاه، أنا مثل جميع الناس، ملحد بعض الشيء ومؤمن بعض الشيء، حسب الظروف. ولذلك أرجوك أن تعاملني كراشد عاقل ولا تحدثني عن معجزات وحماقات. لقد درستُ شيئاً قليلاً من الهندسة انطلاقاً من بعض المسائل المتعلقة بالسكون، وما أراه يبدو للوهلة الأولى مستحيلاً، اللهم إلا إذا كان الناقوس من الورق المقوى.

جلا الخوري حنجرته من أجل خطبته الروتينية وداعب في جيب ثوبه الكهنوتي مفتاح السرداب حيث توجد مخطوطة مايكل أنجلو، عندما حلت هرطقة مفاجئة محل النص السياحي في فمه. فبدلاً من أن يبدأ متهللاً بالحديث عن «**مايكل أنجلو**»، قال:

– ماخور.

– Wie bitte, Vater?[1]

– من الأفضل أن تنشئ ماخوراً. العقبات قليلة والفوائد كثيرة.

أخفض وريث المصري في فرانك بصره بالتفصيل من جبهة الكاهن إلى أن توقف عند الحاجبين الكثيفين المتهدلين نحو الأرض، مثل رسوم الكاريكاتير التي يرسمها الأطفال لرجل حزين، قبل أن يواجهه بحدقتيه النافذتين.

– أبتاه، أنا أتقن الألمانية جيداً ولدي خبرة بالكلمات البذيئة. ولكن عندما تقول حضرتك «ماخور»، هل تعني بذلك، واعذر فظاظتي، ما يعرف باسم «دار العاهرات»؟

– بالضبط أيها السيد. ما تحتاج إليه هذه الجزيرة هو إنشاء دار للعاهرات.

تحسس الأجنبي جيوبه بحثاً عن التبغ. وقدم سيجارة إلى الأب الذي تقبلها دون تردد، وأشعل كلتا السيجارتين.

– وكيف توصلت يا أبتاه إلى التخمين الغريب بأن هذا هو السبب الذي جاء بي إلى جيما؟

---

[1] بالألمانية في الأصل: «ماذا قلت، من فضلك يا ابتاه؟».

أخذ الخوري نفسين عميقين لكي يتجنب انطفاء السيجارة.

– من خلال التحليل الموضوعي لما لك وما عليك. أو بعبارة أفضل، بعد كارثة الشح الكبرى التي تحول دون الترقية الكنسية لخوري من المرتبة الأخيرة مثلي.

– إنني مهتم بما تقوله يا أبتاه، ولكنني أخشى أننا أمام ما يسمى في الفن المسرحي Gegenbesetzung.

– لقد غادرتُ المدرسة الإكليريكية منذ سنوات عديدة. هل يمكنك أن تنورني حول هذه النقطة؟

– بالمناسبة. في المسرح يطلقون تسمية Gegenbesetzung على العمل الذي يملؤون به دوراً بنمط أخلاقي وجسدي لا يتوافق مع الشخصية. كأن يكون المختار لأداء دور المسيح على سبيل المثال شخصاً أحمر، يستخدم مذراة بشعبتين، وله قرون، وتنبعث منه رائحة الكبريت، ويطلق تنانين من فتحتي أنفه.

– يبدو لي ما تقوله مرعباً جداً، وأخشى أن يكون فيه نوع من التلميح.

– أي تلميح وأي كلب ميت يا أبتاه! إذا كنتُ قد فهمت ما قلته بصورة صحيحة، فإنك أول خوري في تاريخ البشرية يقترح انتصاب ماخور. ما الذي يُضحكك؟

– كلمة «انتصاب». تبدو لي مناسبة للمقام.

– أرى أنك ما زلت محتفظاً بلاتينيتك تماماً[1].

أحاط الخوري الغريب بذراعه وقاده إلى أقرب ظل. سحبا نحو نفسين من التبغ، وقال الأب عندئذ بإبرام:

– دار عاهرات ومتجر.

---

[1] يستخدم الخوري في السطر السابق لفظ ad hoc اللاتيني للإشارة إلى توافق اللفظ مع المقام.

- 17 -

بالرغم من تفكير الأغلبية بأن رينو قادر على السير فوق الجثث، بل وقادر كذلك على رقص التورومبا في جنازة أمه، إلا أنه وقع ضحية الأرق في تلك الليلة. لقد جفاه النوم في المقام الأول بسبب غراميات استيبان وآليا إيمار. لم تكن تروقه في شيء تلك القصة ذات التصنعات العذبة، والقصائد المغفلة، والرقة في مواجهة العدو، وامتداح السلبية. هو لم يحظ ببلادة الحب، ولكنه لو كان ضمن دائرة المعجبين بآليا إيمار لكان أعطى الأولوية لغريزته وفض بكارة العروس في أي مكان بين الصخور حتى ولو أدى ذلك إلى قيام النسماوي في اليوم التالي بتقطيع خصيتيه وتعليقه على مشنقة في ساحة القرية. لقد كانت الفتاة جميلة، ولكن على طريقة جمال الملائكة الفاسدين الذين هم في السابعة عشرة ممن يمزجون الشهوات بالبراءة.

إنه يخرج عن طوره عندما تحين ساعة العمل السياسي ويرى واحداً من دمه، من المنحدرين من آل كوربيتا غارقاً في ذلك التردد الضبابي. فإذا ما قتل النمساويون أخاه الآن - أولاً نمساوي المتجر وبعد ذلك نمساويو الفرقة التي ستأتي لشن عملية عقابية - فإنه سيسلم روحه إلى الرب في السذاجة النقية نفسها التي خلقه بها على سواحل ماليسيا. سيموت دون أن يكون قد ضاجع امرأة ودون أن يكون قد قتل عدواً. لقد تخلى أخوه المسكين في حالتين مثيرتين عن المجد الذي قدمه التاريخ إليه.

إنها بكل اختصار ليست إلا تخنثات تليق بأخيه استيبان! أما هو، وبعد السكرة وعض مؤخرات الفتيات في حفلة الرقص ولحس حلمات نهودهن، سيكون عليه أن يحافظ على صفاء ذهنه من أجل الإعداد للهرب. فهو لا يريد رؤية أخيه تيبي مطعوناً بحراب النمساويين-الهنغاريين، ولا أتباعه العشرة ممزقين إرباً إرباً في مرفأ الجزيرة، ليُلقى بهم إلى البحر كطعوم

لأسماك المنشار. لا بد أن جماعته مازالوا مسرنمين بسبب الاغتيالات. صحيح أنهم سيذهبون إلى حفلة الزفاف وبعد كأسين أو ثلاثة كؤوس من السليبوفيتش سيغادورن الماورائية وشقائق النعمان للانغماس في الصدور والأفخاذ الدافقة والمماحكات الإيروتيكية. ولكن حين تنغمس رؤوسهم في شذا فروج الجميلات المحليات، من سيكون الاستراتيجي المتيقظ الذي سينظم الهرب عندما ينقض الجنود من الأفق وهم يبقرون بطوناً ويقطعون رقاباً وقضباناً؟

موضوع آخر كان يقطع أنفاسه. فعند الفجر، حين تهز صفارة السفينة الأحجار، سيأتي بائع الحليب الذي يضع له الفطور عند عتبة بابه، مع الطبعة المحلية من لاريبوبليكا التي تُطبع في مطبعة أسبالاتون الرحوية. لقد وعده الصابوني الزلق بافلوفيتش بأن ينقذ كرامة اسمه برواية ما حدث في السفينة الشبح، مثلما رواه هو، مع إسهاب في التفاصيل ولكن بتوسع مجازي يُبقي شرف رينو عالياً بالقدر نفسه الذي يُبقي فيه الوقائع ملتبسة بالنسبة إلى استيبان. ما الذي عناه بقوله «يمكن لتورية مجازية أن تُخفي بقدر ما تكشف وأن تكشف بقدر ما تُخفي»؟ لقد كان عالمه واضحاً بصورة قاطعة وها هي جماعة من المتملقين، المستهترين، الجبناء يحاولون تعكيره، يحاولون الفت في عضده بالدموع و«المجازات». ما الذي كتبه «الوطني» بافلوفيتش من خلال مصادره السرية؟ إذا ما زاد العيار ميلمتراً واحداً على ما عرف كيف يوحي به إليه، فإنه يمكن لأخيه استيبان في اندفاع انفعاله، أن يرتكب عملية قتل أخ كاملة، ويحرم النمساويين بذلك من متعة سحق خصيتيه حياً. أي براز باستثناء أبيه، يمكن أن يهمه جلد وولف ميخائيل بريتسليك ومحتويات جسده الهلامية اللزجة؟

ما الذي أدخل أخاه ليزرع البلبلة في عقله وفي يديه الواضحتين؟ لو أن الشفقة كانت موزعة بصورة ديمقراطية مثلما هو النمل والطحلب موزع في الجدران فلربما انبثق منه فجأة نوع من الرقة. ولكنه استنفد هذا الشعور وهو في الحادية عشرة. لقد كان هو وأخوه يتضرعان إلى الرب بألا تموت أمهما. «لا مفر - قال لهما الخوري -، فالسرطان ينخر

عظامها بسرعة. والوصفة الوحيدة لتخفيف آلامها هي المورفين، ولكنه يكلف غالياً.»

بعد سنوات من ذلك، وبينما كان الأخوان جاثيين لتناول القربان، توقف الأب أمامهما وقال لهما: «لقد كبرتما وحيدين ومسيحيين. إنني أبارككما وأعلنكما ابنين جديرين بجوزيه كوبيتا وبأمكما. اسمعا لمرة وحيدة ما قالته لي تلك السيدة الطاهرة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة: **هناك في كل رجل ذئب وحمل. لدى رينو الكثير من الأول ولا شيء من الآخر. ولدى استيبان الكثير من الآخر ولا شيء من الأول. اعمل أنت يا أبتاه لكي تتصالح البهيمتان اللتان يحملانهما داخلهما.»**

خففت الذكريات من توتره فغفا في أكثر الساعات أهمية. لم يسمع صوت مجيء بائع الحليب وبدلاً من أن يجد **لاريبوبليكا** إلى جوار إبريق الصفيح، كان عليه أن يواجه رسالة مكتوبة بخط اليد ومثبتة بخنجر مغروس في المقعد الخشبي.

اخي .

لم تبق إلا طريقة وحيدة لإقرار الموت فيما بيننا بعد أن لم أجد الشجاعة لانتزاع حياتك؛ لا أريد رؤيتك بعد اليوم ولكي أتجنب ذلك سأرحل اليوم بالذات عن هذه الجزيرة، دون وجهة محددة، ولكن إلى الأبد. لقد رأيت جوزة حنجرتك تطفر كلما ابتلعتَ لعاباً ولم أستطع استخدام المدية، كما لو أن يد أمنا أو يد الرب كانت تمسك بمعصمي بقوة.

استيبان.

شرب رينو جرعة حليب كبيرة من الإبريق مباشرة وهو يتردد ما بين الحزن والغضب. لقد كان استيبان يعني كلماته، إذ أنه أخذ قمصانه وأحذيته وسراويله من الخزانة وهرب بحقيبة الجلد القديمة التي دبغها كوبيتا الأب. ذهب إلى باب بيت الجار ورفع إناء حليبه ليسحب **لاريبوبليكا** من تحته. كان العنوان يحتل نصف الصفحة الأولى بالضبط وبدت الكلمتان كما لو أنهما تقفزان ناتئتين في الحبر. **«الليلة المزدوجة»**. ركض الشاب إلى حجرته وألقى بنفسه على السرير ليقرأ المقال وهو يقطعه بعينيه.

أي حفلة مزدوجة عظيمة من أجل بدء حقبة جديدة! وقت للحب والكرامة. وقت عهود عاطفية وإنجازات عملية. يا لهذا اليوم الذي تحتفل فيه القرية بأسرها بزفاف اثنين من أبناء جزيرتنا اللامعين! ففريدة الجمال آليا إيمار ستقدم جسدها الإلهي لفراش النبيل فرانك المقيم بيننا والذي بعد سنوات من العزوبة، لم يخفف منها سوى النجاح التجاري في مواد البقالة، يحطم اليوم نُذر حزنه ليقترن بأجمل آنساتنا وعلينا بصفته هذه أن نحترمه ونحبه. لقد جاء إلى هنا بقلب مفتوح منذ عشر سنوات، واستقر في هذه الأراضي البدائية حباً بمناظرها، وإخلاصاً للسلام الذي كنا ننعم به، وللعاطفة التي أثارتها فيه آليا إيمار.

لن نعيد اليوم تكرار الإشاعات، والفرضيات الشاذة، والأقاويل المعادية للأجانب التي غذت تاريخنا التافه، بوضع حادثة حب، مثل حادثة مارتا ماتاراسو وستاموس ماريناكيس، على المستوى نفسه لمآثر جوزيه كوبيتا أو المعجزة المعمارية التي أمكن بها تخفيف الناقوس البرونزي على قبة معبدنا الكبير الوحيد الرقيقة مثل قشرة بصل.

سنذهب الليلة إلى الكنيسة لتقديم التهنئة للعروسين، لنحمل إليهما هدايانا المتواضعة التي يتيحها لنا اقتصادنا القروي المثقل، ولنرقص الفالس والتورومبا إلى أن تُستنفد الأجساد والأرواح.

ولكن الأمر لن يقتصر على حفلة الزفاف هذه في الساعات القادمة. وإنما يجب أن يعلم شعبنا، والعالم بأسره من خلال هذه المقالة، بأنه بينما كانت الاستعدادات تجري للحدث السعيد، غادرت جماعة من أكثر شبان القرية نبلاً وشجاعة مسرح الأفراح لكي ينجزوا تحت جنح الليل

البهيم مهمة وطنية ستسجل أسماءهم يوماً - في أزمنة الحرية - على رخام أحداث تاريخنا.

بينما كانت تُفتح الستائر والموسيقيون المستوردون يدوزنون كماناتهم الغجرية في صالون لوسيرنا، توزعت جماعة من الأبطال، لا يتجاوز عمر أي واحد منهم العشرين، في أنحاء الجزيرة بصورة استراتيجية لمواجهة غزوة قاتمة وشبحية من الجيش النمساوي نزلت تحت جنح الظلام إلى الشاطئ بهدف تجنيد شبابنا رغم أنفهم، وهم مجتمعون في التحضير للحفلة، وذبح أولئك الذين يقاومون التجنيد المشين لخدمة قوة عظمى أجنبية، أمام نظر وصبر أمهاتهم.

ولكن شبابنا المتحلين بالشجاعة والصمت، حتى لا يثيروا الذعر بين أمهاتهم وخطيباتهم، طوقوا رمال طفولتنا الحبيبة وخاضوا بأسلحتهم البدائية القاطعة صراعاً غير متكافئ ضد طوابير مزودة بأحدث وسائل التكنولوجيا الحربية.

ولكن، عندما تحرك العدالة والكرامة القلوب، فإن الأدوات غير المواتية تتحول الى فضائل، إلى دافع، إلى مجد. وقد انتشر العدد الضئيل من الشبان المؤمنين بأنهم لن يُهزموا ليواجهوا حملة ربما تزيد عنهم عدداً بعشر مرات. مياه كثيرة يضمها البحر، ودماء معادية كثيرة امتصتها رمال الوطن. وفيها ستنمو بكبرياء زهرة الحرية.

وفي إظهارهم لاندفاعهم الحربي عملوا بصورة غريزية يقودهم استراتيجي أشار إليه منذ العام 1513 نيكولو ميكافيلي في الأمير: *«لا بد من العفو عن الرجال أو تحطيمهم بشراسة، فإذا ما لحقت بهم إهانة أخلاقية فقط، سيسعون إلى الثأر؛ أما إذا لحق بهم أذى عظيم بالمقابل، فسوف يعجزون عن الرد، ولا يكون هناك ما يستدعي الخوف من انتقامهم.»*

الحدث الذي كان كاتب هذا المقال شاهداً عليه يثبت هذا الرأي السديد ويتألق ببريقه الذاتي في هذه المعركة تحت ضوء القمر. فبعد

تمزيق رسل العبودية، لم يبق إلا التأكد مما إذا كان هناك في السفينة الضخمة التي نزلوا منها، مزيد من الغزاة. في الليل الرهيب، ببسالة إجماعية، غاص في البحر الهائج أحد أبنائنا. لن يرتعش صوتي ولا قلمي حين أكشف عن اسمه، لأنسب إلى شخص محدد العملية التي ندين بها لأولئك العظماء. وأنا أسميه ليس بسبب عظمة مأثرته وحسب، وإنما لأنه جدد بها أمجاد أسرته المناضلة التي فقدت أعظم رجالنا في نضال مماثل. سيداتي سادتي: إنني أكتب هنا، بحروف الذهب، اسم رينو كوبيتا، ابن بطلنا جوزيه كوبيتا.

سبح الشاب الجريء بضربات بديعة من ذراعيه حتى السفينة المشؤومة غير عابئ بأن بياض الزبد يكشف وجوده. وبجسارة ورشاقة سنور تسلق ميمنة السفينة جيدة التسليح شاهراً قلبه التحرري وخنجراً قاطع الحد وحسب، دخل إلى حجرة دفة القيادة، وفي عتمتها، وبجبن من لم يسقط قتيلاً إلى جانب قواته على الرمال، كان يقبع جندي يختلج ضحية دموع مخزية. وما أن رأى ظهور رينو كوبيتا، حتى ارتمى ذلك الشخص الدنيء على قدميه طالباً الرحمة، متوسلاً باسم الرب وأمه الأرملة. دموع الرجل تلك، وبدلاً من أن تلين قلب ابن جوزيه كوبيتا، ملأته بالخجل من عار الآخر، فقطع دون تردد عنق النمساوي باندفاع أوشك معه الرأس على الانفصال عن الجسد.

بعد ذلك، وبحركة تحدٍ للإمبراطورية النمساوية الهنغارية بأسرها، كتب بدم الذئب المراق ملاحظة قصيرة ومدوية: «أهلاً وسهلاً بكم.» ثم رفع بقوة مارد سيكلوبي سلسلة المرساة التي تُبقي السفينة ثابتة، وترك البحر يسحبها في مهب الريح. وهناك تمضي الجثة والرسالة على غير هدى. تبحران معاً إلى أن يجدهما ناج من الغرق ويهمس مرتعشاً من الخوف: «فليرحم الرب من يتجرأ على أبناء سواحل ماليسيا البواسل».

إلى الاحتفال إذن يا مواطنينا الأحباء: فليتطاير غبار الأرض تحت صخب التورومبا، وليتدفق النبيذ شلالات باخوسية إلى حلوقكم،

ولتمنحنا الفتيات سعادة الرقص وعبق صُدرياتهن، وليشعل الحب أجساد العشاق مثل انفجار حشرات مضيئة، وليطر العروسان على ملاءات الحرير بعيداً في السماء، ولتهيج أنامل المعلم بوليزر البارعة حمى الكمان، ولترفعنا ألحان البيانو بمقطوعاتها الريسودية، ولتهدر الطبيعة تحية وإجلالاً لهذه الليلة المزدوجة من الحرية والحب!

المراسل الصحفي بافلوفيتش

وجه أسطول شركة جوردان أكبر سفنه إلى الجزيرة. فالحماس لحفلة الزفاف اشتعل في الجوار والإشاعة بأن شيئاً شديد الخصوصية سيحدث في ليلة السبت استنفد تذاكر سفر الدرجة الثالثة، وتذاكر السطح، وكذلك الكابينة الفاخرة بالطبع التي تنتصب فوق جسر القيادة. وقد شغل هذه القمرات الباذخة مسافران ممتازان. أحدهما باولا فرانك التي لم تكن تحمل معها آخر تفاصيل أرباح المصرف وحسب، وإنما كذلك نحو كيلوغرامين من الصحف النمساوية حيث يتنبأ كتاب الافتتاحيات بأن النظام الملكي النازف بفعل التراخي وانعدام المخيلة، لن يستطيع النهوض بالإمبراطورية إلا بالبدء في عمل حربي في الجنوب، يرفع المعنويات ويُظهر حقيقة الوطن الحربي المتمرس أمام جيران الشمال. وقد كان الجنوب بالنسبة إلى باولا فرانك هو هذه الزريبة الهمجية التي تمتد حتى سواحل ماليسيا التافهة. فلا يمكن لنمسا مستنفدة أن تستعيد حيويتها إلا بكسب شيء في الأسفل تُبهر به من هم في الأعلى.

لقد اختار أخوها البوهيمي المسكين العيش في هذه المناطق النائية وهو يضيف الآن إلى خراقته تفاهة كبيرة أخرى: الزواج من واحدة من بنات الجزر بلا حسب ولا مال، بلا أراض ولا آمال، بلا لغة إمبراطورية وبلا نضوج يضعها على قدم المساواة مع رجل خمسيني لامع. أما هي بالمقابل، فقد شرفت كنيتها ومصرفها حين تزوجت من النبيل الكبير تيد فون اورتال الذي أبدى تحمساً لمفاتنها في الوقت الذي أدت ظروف تبذير عائلي إلى دفع أبيه الأرستقراطي إلى رهن كل أصول أملاكه لمصرف آل فرانك. وكانت آخر رسالة من العجوز تقترح على باولا أنه بسبب انعدام أي موارد أخرى، وحيال استحالة ذهاب رجل من طبقته إلى السجن، فإن أفضل ما يمكن عمله هو جمع شمل الازدهار المصرفي مع التقاليد

الإقطاعية، أي تكريس تحالف رأس المال مع المقام الطبقي وإنجاب هذه الحداثة التي تحتاج إليها سالزبورغ.

كانت باولا تشك في بقاء ممتلكات نمساوي في أراض معادية دون مصادرة في حالة نشوب حرب، وقد نصحها المحامي الخبير الذي قرأ عليهما الوصية قبل سنوات، بأن تأمر أخاها بالهرب من تلك المناطق المقفرة، إنما الملائمة لوقوع مجازر لا يعلم بها أحد سوى الطيور الجارحة.

لقد دفنه الاسترخاء والبوهيمية في تلك الرمال بمآدبها الرتيبة من الزيتون والنبيذ الأبيض، بدل أن يبحر نحو تحديات القرن الذي بدأ للتو والذي يعد بتقدم هائل يمكن معه للبشر قبل حلول العام 2000 أن يطيروا في الفضاء وأن يتوصلوا إلى الخلود بفضل التقدم الطبي. وقد كان هدفها الأول والرئيسي هو التالي: إقناعه برفع مرساته والرحيل بسفينته إلى أي شاطئ آجنبي، حتى ولو كانت الشواطئ الإيطالية، ليبحر من هناك بمحاذاة السواحل حتى الوصول إلى أميركا الشمالية، حيث يمكنه أن يفتح داراً للسينما مثلاً. فهذه هي تجارة المرحلة الرابحة. حشو رؤوس الناس بصور تجعلهم ينسون حياتهم القاسية. فالجميع دون استثناء يريدون نسيان شيء ما، ولهذا فإن رواية قصص على الشاشة سيكون مربحاً جداً.

لن تدخل في الموضوع مباشرة. ستنتظر إلى أن يقذف أخوها الأصغر منيه الفاخر وتسعد العروس، وفي الفطور الانتصاري للبحر الأدرياتيكي ستعرف كيف تقنعه بكلمات موثقة من أحدث الصحف بأن يهاجر. «متى؟» سيسألها جيرونيمو. وستقول له: «الآن. إنني أقترح عليك في العمق شهر عسل دون تذكرة عودة. اختطاف على الطريقة العربية. أنت وقحبتك الشابة تتأرجحان على أمواج الأدرياتيكي، وعندما تملّ من تهيجاتها، تتعاقد مع محامٍ نيويوركي جيد ليطلقكما.» وقبل ذلك، أي بعد تقطيع برج كعكة الزفاف، ستكون قد قدمت إليه الهدية الرائعة التي أوصت عليها أفضل صائغ في ميونخ: بوصلة ذهبية. وستفاجئه بابتسامة خبيثة: «لكي تحسن التوجه يا أخي الصغير».

ومع ذلك، فقد كان هناك شيء يقلقها في هذه الرحلة الدبلوماسية

أكثر مما هي رحلة ذات علاقة برابطة الدم. فمن هو هذا الرجل الضئيل التافه المتدثر بعباءة برتغالية ويتفادى تحياتها المدوية بتغطية وجهه بتهذب جاف ويغادر ترف الدرجة الأولى ليغرق في عنابر السفينة الخانقة؟ إنه يبدي سلوك نشال أو موظف في مكتب كاتب بالعدل مولت أسرته رحلته هذه التي ليست على مستوى إمكانياته. وما الذي يدفعه إلى أعماق تلك العنابر حيث يمكنها أن تتصور وجود مجذفين من مدغشقر يسوطهم قرصان كافر للتعجيل بدفع السفينة نحو سواحل ماليسيا؟

فجأة، في توالي الليالي المظلمة، كان وهج غريب ينطلق من فجوات السفينة، ويشعل البحر نوع من الوميض ما يلبث أن يتحلل في أحزمة زبد. ومثلما يظهر زيك زاك الصاعقة في السماء مسبوقاً برعد، كان ذلك الضوء الغامض يحدث بعد رجة غير مريحة، مثلما تلي القذيفة الفضية دوي مدفع. وكانت تلك العمليات المريبة تتوافق مع نزول الرجل الضئيل إلى ممالك نيبتون في قاع السفينة، وقررت باولا أن تحاصره في لقاء قادم بالسلطة التي توفرها لها ثروتها وأرستقراطيتها المحدثة.

عند فجر يوم الخميس بلغت السفينة سواحل القارة قبل أن تتوجه نحو الجزر الصغيرة، وفجأة أيقظ المرأة إشعاع سحر أضاء قمرتها لدقيقة كما لو أن القمر قد اصطدم بفراشها. ركضت نحو النافذة المستديرة وتمكنت من رؤية أسطول ضخم راسياً قبالة ميناء أسبالاتون. وقد تمكنت من التعرف على شعار الإمبراطورية على كل سفينة وباغتها إحساس صاعق ربط في ذهنها بين هذه السفن الحربية ومسيرات العمال قبالة مصرفها في سالزبورغ: «لا عمل لدينا. فلنذهب إلى الحرب. ما يخيفنا كثير، ولكن الجيش يوفر لنا الطعام.»

خرجت إلى السطح، واختبأت بسرعة في الممر عندما رأت ذلك الشخص الضئيل الذي صار هاجسها متدثراً بشال سميك مزركش بأشكال فلكلورية أندلسية ينتظر بزوغ الفجر. بللت فمها بجرعة من اللعاب، وانتهزت انشغال الشخص بأحلامه وغرقه في مقعد كتاني ذي خطوط زرقاء وحمراء، ونادته بتسلط:

- صباح الخير يا رجل.

والواقع أنها أتقنت نطق «يا رجل» بنبرة تجعلها أشبه بـ«يا رجيل».

ولو أنه كان يحمل كأساً في يده في تلك اللحظة لكان تفتت إلى ألف شظية على سطح السفينة.

- صباح الخير يا دكتورة فرانك.

- أرى أنك تعرف اسمي يا صديقي. هل أنت آت من سالزبورغ؟

- آه، أجل يا مدام. ومن كومرزغاس تحديداً.

- منطقة مشهورة جداً.

- الحظ، أو ربما مرور الزمن، جعل موقع دكاني البائس قريباً من مصرفك يا دكتورة. إنني غير جدير بمجاورتك وبالتحدث إليك. اعذريني يا سيدتي.

بذل جهداً للنهوض عن مقعد الشاطئ المراوغ، وعندما لم يستطع، وضعت باولا يداً أخوية على كتفه وأعادته بعذوبة إلى كتان المقعد.

- أرجوك ألا تذهب. يسعدني تبادل الحديث مع أحد مواطني في هذه البحار الغريبة.

- آه، لا يا سيدتي. فحديثي يخلو من الثقافة. إنني أعرف جيداً مكانتك الاجتماعية. فقد تزوجتِ سعادتك من البارون فون أورتال.

- لا تجهل أي تفصيل عن حياتي.

- ذلك أن مثل هذه الأمور يتحدثون عنها... واعذري سماجتي... لست سوى منبوذ... منبوذ بكل معنى الكلمة.

- قل ما تريد قوله يا رجل.

- يتحدثون عنها في صحافة سالزبورغ. صحافة سالزبورغ الرديئة.

- وعما تريدها أن تتحدث إذن؟

- عن الأمور التي تحدث في العالم. من المحتمل أن يتحد الحزب الاجتماعي والحزب الإصلاحي الألماني في ائتلاف واحد كبير.

- لا أرى ما يجعل هذا التحالف يؤثر عليك.

- آه يا دكتورة. ألمانيا والنمسا هما مثل الطين والحفاض. ستأتي أزمنة شرسة. ولسنا نتحدث عن الموسيقى. لقد عزفوا شونبرغ[1] في

---

[1] شونبرغ، أرنولد Schönberg: موسيقي نمساوي 1874—1951.

فيينا وبعد الفضيحة لم يقل أحد شيئاً.

– وأنا مثل حضرتك أشعر بالضيق من شونبرغ.

– يسعدني أن تتفق شخصية رفيعة النسب مع رأيي المتواضع.

ارتعشت باولا بنسمة باردة مفاجئة وبالغت في القشعريرة جاعلة أسنانها تصطك بطريقة مضحكة. إذا هي لم تخرج الآن من ارتباكها فإنها ستمضي حفلة الزفاف مصابة بالتهاب في اللوزتين.

- أعذر فضولي يا سيد...

– آه، اسمي وشخصي لن يعنيا شيئاً لك يا مدام.

– لا تظن أنني أتجسس عليك، ولكنني رأيتك في بعض المرات تنزل إلى عنبر السفينة. وفي كل مرة تفعل ذلك، وبعد دقائق قليلة من ضجة جهنمية، كنتُ أرى انعكاسات برق غريبة فوق الأمواج.

– لقد عكرتُ أحلامك. لستُ أدري كيف يمكنني الاعتذار منك أيتها البارونة.

– كل شيء على ما يرام. كل ما هنالك أنني أريد أن أعرف. ما هي هذه الومضات البيضاء والثابتة التي تبدو وكأنها تشِم البحر بنورها؟

– آه، إنه اختراع. اختراع غير عملي وقابل للخطأ بصورة رهيبة.

– وما هو؟

– هل علمتِ حضرتك بأن البروفسور لانغمير[2] قد اخترع أمبولة الإنارة الكهربائية المعبأة بالغاز؟

– ليست لدي أي فكرة.

– هذا الاختراع سيصب في الإنارة العامة. ستتقلص الجرائم في فيينا. لن تبقى هناك ظلال مظلمة في الأزقة تحمي القتلة. مع أنني أرغب في أن يتمكن أحدهم من ذبح شونبرغ.

– وما الذي يجمع حضرتك بالسيد لانغمير؟

– الاهتمام بالضوء. ولكن ما يفرق بيننا هو الموهبة.. والوسائل.

---

[2] لانغمير، يرفنغ Langmuir: مهندس وكيميائي وفيزيائي اميركي 1881-1957. نال جائزة نوبل عام 1922.

تصوري أنه يملك مختبراً هائلاً وعدداً كبيراً من المساعدين بينما ليس لدي سوى جهلي.

- وما الذي تسعى إليه يا صديقي العزيز؟

- الشمعة الكهربائية دون غاز.

- ولكن إذا ما استطعت تحقيق ذلك أيها البروفسور، فإنني أراك منذ الآن متوجاً بجائزة نوبل.

انكمش الرجل على نفسه داخل الدثار محتمياً من السخرية ومن أحلام شبابه: الناس على الأرض لمحاولة المجد أو لا شيء. وقال لنفسه بكآبة: «لا شيء»، ثم صحح وهو يحاول رسم ابتسامة: «لا شيء تقريباً.» لو أنه حصل على التعليم، وكانت لديه المواد، والعلاقات الدولية، واللغات، ونصيراً للفن والعلم أشد عناداً من ملاكه الحارس الوحيد وغير المستقر. ولكن رأس ماله الوحيد هو الرغبة في الإختراع.

- أتعلمين أنهم منحوا جائزة نوبل للآداب هذه السنة لرابيندرانات طاغور؟

فركت المصرفية يديه متمنية لو كان لديها دثار دافئ مثل دثار «المخترع». ومع ذلك، فقد كان البرد يحث فضولها.

- إنها تتحول إلى جائزة أكثر فأكثر نجاحاً. هل تطلق حضرتك على ابن لك اسماً مثل رابيندرانات؟

صفع المخترع خديه بسعادة شبه طفولية.

- لو أنني حصلت على الشرف الكبير بأن تهتم امرأة بعظامي الحزينة، وأن تنجب لي ابناً، لكنت فخوراً بأن أطلق عليه اسم الشخص الذي كتب: «أيامي ولياليي ذهبت هباء ما بين حكماء ومتحفظين؛ كثرة المعرفة ملأت شعري بالبياض وأحرق طول السهر نور عيني. وبينما أنا أبحث وأرتب فتاتاً ومِزقاً، جفت سنوات حياتي. حَطّمْ كنزك، وارقص فوقه، واقذف به إلى الجحيم! إنني أعرف الآن أن الحكمة الكبرى تستند إلى الشرب وإلى كون المرء خاسراً.»

بدأ النهار بالبزوغ وتوقف المتحاوران عن الكلام بعد أشعار الشاعر الهندي المُنوّمة، وسمحا لأفكارهما بالتسكع في محيط أول الجزر الصغيرة

التي يريانها منذ لمحا الأسطول. ومن مكان بعيد بصورة غير محددة بلغهما صوت أربع طرقات ناقوس. فنظرت باولا بدقة عسكرية إلى ساعتها المعلقة بخصرها بعد أن جعلت غطاءها الذهبي يرتفع قافزاً، وقامت بحركة يائسة:

– إنهم يقرعون النواقيس أربع مرات ولكن الساعة لا تكاد تبلغ الثالثة.

– لا يمكن بالبطء أو السرعة على السواء الوصول إلى أي مكان. ولستُ أعنيك أنت بهذا يا دكتورة فرانك - صحح بسرعة، متقبلاً المساعدة التي عرضتها عليه للنهوض عن المقعد. وقد شجعت هذه الملامسة الجسدية المفاجئة باولا لتشد على مرفقه بحركة ودودة.

– البروق التي تظهر فوق البحر يا صديقي، ما هي؟

– ضوء.

– كهربائي؟

– كهربائي وأحمق. فإنتاجه يكلف ثروة كبيرة. من أجل إشعال مصباح أحتاج إلى نصف طن من المعدات والأجهزة.

– ولكنه ضوء يا صديقي! ضوء!

– بمثل هذا الثمن يمكن لأي شخص لديه غرام من الفلفل في دماغه أن يفعل ذلك.

– غرام من الفلفل وكم من السنوات؟

– أجهل كم بلغتُ من العمر يا سيدتي. ذاكرتي مختلطة، تعسفية وتشنجية. إنني أحفظ معلومات علمية، وقصائد، ومقطوعات موسيقية، ولكنني أضيع أحياناً في وسط سالزبورغ وتمضي أيام قبل أن أتمكن من العودة إلى بيتي. أحكامي هي بروق صحو وسط جروف من الظلام.

قالت باولا لنفسها:

«ما كان أبي ليسمح مطلقاً بمثل هذه المحادثة.»

ثم هتفت بعد ذلك بحماس مصطنع:

– ولكنك تبدو على ما يرام على كل حال.

– كل وعكة تذكار انتصار. وكل هدف أكثر بعداً، باستثناء الموت.

استند الاثنان على حاجز الميسرة وهما يشعران بأن الزبد المالح

يصعد حتى حواجبهما.

- فكر في أنك استطعت كهاوٍ من الوصول إلى نقطة لم يستطع أي عالم الوصول إليها.

- بثمن باهظ جداً. لقد كانت جهودي متواصلة ولكنها غير متناسبة. سعيت بحثاً عن جهاز بحجم عصفور الدوري، فصنعتُ فيلاً، جملاً عربياً بألف سنام. الشموع التقليدية أفضل بكثير من ضوئي هذا.

صفعت المصرفية جبهتها:

- وما الذي جاء بك إلى هذه السواحل الجنوبية يا معلم؟

ابتلع الرجل قليلاً من الرطوبة التي تجمعت في أنفه وقال:

- إنني آت لإنارة حفلة زفاف.

- 20 -

تتألف ترسانة الأسطول النمساوي الهنغاري في المرفأ الملحق بميناء أسبالاتون من فرقاطتين مزودتين بخمسة عشر مدفعاً في الميمنة، ومثلها في الميسرة، وقاذفة رمانات في المقدمة وقاذفة طوربيدات في المؤخرة، وسفينة شراعية مزدوجة السرعة تسير بالبخار وأشرعة فعالة جداً مثبتة على أخشاب شديدة الصمود أمام تبدلات المناخ القاسية، وزورقين سريعين مزودين بأجهزة تلغراف، وثمانين جندياً من النخبة خبيرين في غرس الحراب في أكباد الآخرين دون أن يرف لهم جفن حيال الأضرار المحتملة، وثلاثين من رماة المدفعية ذوي التصويب المجرب في غزو تيرجستر حيث وجهوا قذائفهم إلى عقرب الدقائق وعقرب الثواني في ساعة الكاتدرائية، وثلاجات تسمح بحفظ المؤن طازجة حتى في مناخ قائظ، وطاهيين جُندا بمرسوم من المعتمد العسكري من فندق هيرالد في غراز، يمكنهما إعداد أطباق لذيذة من لحم الغزال اللطيف، ولكنهما إذا تطلب الأمر يعدانها من لحم الجرذ المقرف، وخوذ ألمانية من أحدث جيل ترتد عنها الرصاصات المصنوعة من بارود سيئ، واحتياطي كبير من الذخائر والمتفجرات يكفي لنسف باريس.

ولم تكن للأميرال مولينهاور شهرة بالقسوة ولا بالجبن. فهو يحب أن يشرب ويتعشى بوفرة، وله زوجة في غراز، تعمد استراتيجياً أن يتركها حبلى قبل العملية الحربية الوطنية، وكان يعرف كيف يقضي في المدينة نفسها بعض الليالي مع فتاة الموديل الآسيوية الإلهية سيغريد ليو. وكانت تلك الآنسة المثيرة والتي بلا هوية تطفئ معه وبقبلاته المضمخة بالشمبانيا تعذيب ساعات العمل في وقفات ساكنة يتركها بعدها الرسام الشاذ جنسياً فرانسيس فون كاسين مجمدة. لقد كان بخل هذا المعلم مضرب المثل إذ كان يوفر في الوقود ما لا يكسبه في الشهرة.

لهذا، ومن أجل أن يحمي محظيته من مخاطر التعرض لنزلة صدرية مدمرة، كان مولينهاور يبعث كل يوم اثنين إلى المرسم عربة من الحطب والفحم، بل وعرض على مدام ليو أن يستأجر لها غرفة في فندق من نجمتين، ولكنها رفضت ذلك لأنها تعتبر نفسها فنانة وليس عاهرة.

لم يكن لديه أي مبرر للقسوة لأن الجنس والأطعمة الفاخرة صالحاه مع أي غم في الحياة، وكان هناك لفت انتباه دائم لوزارة الحرب إلى أن تكليف مثل هذا الطفيلي بقيادة حملة تأديبية لن تنفع في تأديب الخراف. وقد دارت أحاديث كثيرة في المكاتب حول السبب في عدم استغلال «مولي» لمرتبته المرموقة، للتأثير في تحويل هذه المهمة إلى قبطان طموح وله أخلاق ابن حرام.

والتفسير الأكثر قبولاً هو أن مولينهاور كان يتطلع من خلال الحملة التأديبية على سواحل ماليسيا إلى تحقيق نصر أسطوري يعرف هو كيف يضخمه عبر سبيل بعيد من خلال الصحفي ابن الحرام بافلوفيتش، بإجباره على كتابة مآثره بانتزاع أظفار قدميه، ثم بتخليصه من أظفار يديه بعد انتهاء المقالة حتى لا يتمكن من مناقضتها. لقد وضعت الإمبراطورية تحت تصرفه ذلك العدد من المحاربين المحترفين الذي يمكن لهم أن يقوموا بدور جيد حتى ضد الأسطول التركي. وقد سلموا إليه كذلك مدفعاً دقيق التصويب يمكن له أن يقتل بعوضة تقف على ثمرة جوز هند متدلية من شجرة نخيلها. هذا يعني أنهم يريدون استعراضاً. يجب ألا تخرج النمسا أكثر هشاشة من هذه الحرب ضد الجنوب، ولا بد أن تمثيل الدمية الكبيرة سيُبهر الحلفاء الألمان المتحفظين بعض الشيء على التدخل في سواحل ماليسيا.

سيكلله العالم بالخزي ولكن الإمبراطورية ستكلله بالمجد؛ ثم سيحيلونه إلى التقاعد مع دخل عالٍ دون تعريضه للمجازر عندما يمكن لوطنه أن يدفع غالياً ثمن مغامراته التوسعية بعد سنوات. فإذا كانت عشرة جرذان قد قرضت جماعة من شبابه حتى الأحشاء عند تخوم جيما، فكيف ستكون الفظاعات التي بإمكان جيش نظامي أن يقترفها ضد قواته؟

بينما مولينهاور يرفع معنوياته بهذه الحجج، كانت قد تراكمت منذ منتصف النهار في جيما ترسانة من نوع آخر مختلف، من تلك التي يمكن لها، على حد قول الخوري، أن «تكتسح أحشاء الشعب». فمن بين المنتجات المحلية أمكن إحصاء مئتين وخمسين دجاجة، وثمانية وأربعين جدياً، وعشر بقرات، ومئتين واثنتين وعشرين سُمانه، ومئتين وعشر سمكات موسى، وثلاثة أحواض من السردين، وخنزير واحد، وعشرين طستاً من البندورة، وخمسة قدور من البصل، وعربتين من العنب، وستة أكياس من البطاطا الجديدة، وخمسة أكياس من الكرنب، وثلاثمئة لتر من السليبوفيتش، وأربعمئة إبريق من النبيذ المحلي، ومئة دمجانة من النبيذ الأحمر الفرنسي، وهكتولتر من الليمونادة، إضافة إلى تركيب دوش في القسم الخلفي من صالة لوسيرنا من أجل إنعاش السكارى من هذياناتهم الفظيعة وتنظيف لطخات المني التي تزين عند منتصف الليل تنانير الفتيات وبناطيل الذكور.

الشبان الذين لم يشاركوا في الكمين، استلهموا تقرير بافلوفيتش الناري ليقدموا تقارير مخالفة وماكرة وغامضة، مما جعل خطيباتهم وآباؤهم يستنتجون بأنهم كانوا جزءاً من الأسطورة، فيمتلئون بزهو لن يلبث تهوره أن ينكشف. أما الفاعلون الحقيقيون فكانوا ما يزالون مثل المسرنمين في البارات يكرعون البيرة الساخنة ويدخنون مؤرقين تبغاً أسود، ويغنون بأصوات سكارى كئيبة كلمات أغنيات تورومبا تعلموها في الطفولة، ويحفرون قلوباً تخترقها سهام على كونتوار صالة لوسيرنا، أو يلطخون بعرقٍ يائس مقاعد الركوع في الكنيسة. ولكن عندما دعاهم الكاهن للاعتراف لكي يخفف عنهم العبء، تبادلوا فيما بينهم نظرات متجهمة وقالوا إنهم إذا ما أرادوا مساعدة الرب فسيتفاهمون معه مباشرة، وليس عبر وسطاء. فاستشاط الأب غضباً وتنبأ لهم بفصل في الجحيم، دون أن يدري آنذاك بأن هناك كتاباً عبقرياً في الأدب الفرنسي يحمل هذا العنوان[1].

[1] الإشارة هنا إلى كتاب الشاعر الفرنسي آرثر رمبو «فصل في الجحيم».

وتحت إشراف عصا المايسترو الهنغاري بوليزر عُزف عند الواحدة بعد الظهر لحن توررومبا الفاكهة التي وضع كلماتها في كوريتشا مقيم من أصل برتغالي ذو مزاج مرح، تخلى عن أغنيات فادو الشعبية البرتغالية ليحاكي كلمات وموسيقى الأغنيات الأدرياتيكية. وما زالت تُحفظ في المتحف التاريخي لسواحل ماليسيا تسجيلات لمؤلفاته الموسيقية الواسعة التي ينتقدها الناس الفاضلون بالقول إنها «بذيئة، فاحشة، مقرفة، وبلهاء».

وسنورد فيما يلي التورومبا المذكورة، التي على الرغم من مرحها وبسبب الأحداث التي تتالت، فإن الناس هناك يتذكرونها كأغنية شعبية مصابة بفقر الدم. ولكن في أوج التحضير للحفلة، كان لها وقعها، واللحن الذي يُغنى ويُرقص لا يمكن لأحد أن يلغيه.

تورومبا الفاكهة

هذه هي تورومبا الفاكهة، الفاكهة،
لرقصها مع الخطيبة، ومع العاهرة، مع العاهرة.

أنا آكل البطيخة حتى تصير فارغة
أنا آكل هذه الشمامة دون أن أترك حتى قلبها
أنا آكل العنبة الصغيرة، وهي لذيذة لذيذة
والآن أقبّل نهديك الصلبين، القاسيين.

هذه هي تورومبا الفاكهة، الفاكهة.
لرقصها مع الجدة، ومع العاهرة، مع العاهرة.

مصي لي هذه الموزة، فهي سليمة، سليمة
أريد تقبيل ملفوفتك، يا للرائحة الرقيقة، الرقيقة
سأقضم زيتونة هذا النهد، هذه الحلمة.
ها هي برتقالتك تسيل، هلمي بنا إلى السرير، إلى السرير.

هذه هي تورومبا الفاكهة، الفاكهة
لرقصها مع الخوري، ومع العاهرة، مع العاهرة.

هدد الكاهن بالامتناع عن مباركة خاتمي الزفاف ما لم يحذفوا المقطع الأخير من الأغنية، وبحرمان القرية كلها من المغفرة بجرة قلم مثلما فعل البابا بيوس الأول بهراطقة تونكون عندما استخدم هؤلاء شموع المعبد في أمور بعيدة عن القداسة. فذكّره جيرونيمو بأنه هو نفسه كان قد طلب منه باسم الرب قبل عشر سنوات أن يفتح ماخوراً في الجزيرة. فاعترف الأب بيجل بأنه واقع تحت تأثير نوبة فقدان ذاكرة، وعندما قدم له صاحب المتجر الأوربي ورقتين نقديتين من الأوراق الطويلة لكي يشتري في رحلته القادمة إلى أغرام تمثالاً جديداً للقديس روكي، شفيع القراصنة، قرر أن تورومبا الفاكهة تحتوي في أعماقها على شيء من جنات عدن في طزاجتها وقرر بأن يقوضها قبل حلول الليل بأغنية ينظمها بنفسه حول آدم وحواء في الجنة. وقد خطر له في تلك اللحظة بالذات أول بيت منها:

انظر ما فعلته الأفعى، في حدائق الفردوس.
أنظر حجم هذه الحية، وحذار أن تندس فيك، فيك.

- 21 -

من نيويورك جاءت الأحماض والمفرقعات التي ستتيح لمراسم الزفاف والحفلة القروية في تلك الليلة أن تضاء خلال ما يقرب من أربعين دقيقة لتبدو كما لو أنها في وضح النهار. هذا هو ما أوضحه السيد تورينتيس لجيرونيمو فرانك بينما هو يلهث موجهاً التعليمات للحمالين حتى لا يريقوا قطرة واحدة من السوائل الثمينة التي ستُستخدم لإحداث ألسنة اللهب البيضاء. أما الأهالي المتحمسون بعض الشيء للانتصار الحربي الذي حققوه دون أن يدخلوا أية معركة، والمتلهفون لبدء الحفلة الصاخبة التي ستقام في صالة لوسيرنا مع حلول الظلام، فتزاحموا في المرفأ ومحيطه ليشاهدوا بمزيج من الرعب والانبهار تلك الأشياء التي لا توصف والتي يأمر العجوز النشط ذو الخدين المتوردين رفعها بالرافعة. كان شيئاً لم يشاهدوه من قبل، ويشبه أشياء تصوروها في الكتب في أحد الأيام: مركبات فضائية، خزانات زجاجية، جمال من الصفيح، أفخاذ حيوانات من الحديد، سلاسل لامعة وعتلات مطلية بالكروم. وكانت أذرع القيادة الفولاذية التي يلمسها المخترع بقفاز أحمر سميك، أشبه بقفازات عيد الميلاد، هي عبارة عن زوائد تبرز من عدد كبير من الآلات، ويبدو كما لو أن كل تلك الأجزاء تتكامل فيما بينها، مثل آلات فرقة موسيقية، لتنتج موسيقى.

بعد أن قبّل جيرونيمو، بمجاملة، وجنتي أخته المترفعتين، كرس كل قواه لمعانقة تورينتيس مجبراً إياه على وضع رأسه المشتعل بالشيب فوق قلبه. لم يوفر أي منهما الدموع، ولكن ما إن تراخى انفعال العريس الناضج، حتى اندفع تورينتيس في الكلام مبتلعاً في أثناء ذلك اللعاب الذي كان يرفع تفاحة آدم في عنقه النحيل.

– آه يا سيد فرانك. كم أشعر بالخجل. أن أجيء إلى هنا بهذه العلب

البائسة لتقديم استعراض مهرج مقمل.

– تقول أختي إنها شاهدت التجارب الليلية في السفينة، وإنها شيء «نجمي».

– آه، لا يا سيدي العزيز. إنه كرم أسرتك التقليدي يتكلم عبر شفتيها. صحيح أنني سأنتج ما يكفي من الضوء لتتمكن من تصوير فيلم حفلة زفافك في هذه الجزيرة المنتزعة من الكوكب الأرضي ومن كل مصدر للطاقة، بل ويمكنك تصوير القمر والنجوم التي تباركها. ولكن بأي ثمن يا معلم! إنك تنفق ثروتك على هذه القمامة التي هي مخاض جبال حقيقي.

– أتكون هكذا بعد حياة كاملة من التجارب؟

– مظاهر.. مظاهر جميلة، ولكن بأية تكاليف! إنه اختراع بلا هدف؛ مثل ذيل مذنب يبقينا فاغري الفم ويضيع في هذه الاتساعات البغيضة دون أن يكشف لنا شيئاً، رباه!

انطلق الثلاثة في الطريق إلى البيت وبينما كان مستخدمو المتجر الأوربي يحملون الحقائب والمعدات، قدمت باولا ذراعيها للرجلين اللذين يرافقانها.

– بهذا الاتجاه تقدمت أبحاثك منذ المرة الأخيرة التي وضعتَ فيها تصورك لمولد التيار المتردد في سالزبورغ يا تورينتيس؟

– أنا لم أضع أي تصور يا سيدي. السيد نيكولاس تيسلا، وهو من مواليد هذه الأنحاء، أشار علي ببعض الطرق من خلال المراسلة من نيويورك. تصور، ذلك العلامة يضيع وقته معي! إن لهذا رنة تهكمية تطحن الكبد. أتعرف كيف يدعوني؟

– ليست لدي أي فكرة أيها المعلم.

– يدعوني بعزيزي العبقري – احمر خجلاً –. هو الذي اخترع مولد التوتر العالي، ومحول تيسلا، ومولدات الذبذبات الآلية...

– يمكنك أن تقول «إلى آخره». ولكن ما هي مساهمتك أيها المعلم؟

تنحنح تورينتيس، وراود باولا انطباع بأن الرجل يشعر بأنه يطأ الأرض؛ فقد انتهى تأرجح السفينة تحت قدميه، وشد على ذراع السيدة كما لو أن إغماءة توشك أن تداهمه.

- إذا ما سخن أو برد التحام المعدنين المختلفين، يتولد تيار باتجاه معاكس في كل من الحالتين، وهو في هذه الحالة ضعيف جداً. هل تتذكر حضرتك مؤثر سيبيك[1] يا سيد فرانك؟

- لا شيء على الإطلاق.

- لا أهمية لذلك. المهم هو إنتاج الكهرباء بصورة غير مباشرة بتحويل الحرارة إلى طاقة ميكانيكية عبر مولدات بخارية، ثم تحويل الطاقة الميكانيكية إلى كهربائية عبر ديناموات ومناوبات للتيار. هل فهمت؟

- ولا حرف يا معلم. بعد الزواج أرجوك أن ترافقني بضعة أيام في شهر عسلي لكي تتوسع في الحديث حول الموضوع.

- هذه الأشياء التي تراها هناك هي المولدات البخارية.

- إنها هائلة جداً.

- يوم يتم التوصل إلى تقليص حجمها سنكون في ظروف يمكن القول معها إنه كان لحياتي ظل من المعنى.

- حسن يا معلم. لقد قال أديسون نفسه:«ليست المسألة في أنني قد أخفقت، وإنما في أنني وجدت مئة ألف حلّ لا تنفع.»

- إنك تسخر مني يا سيد فرانك. فأديسون هو قدرة وأنا لستُ إلا مجرد مهرج في كنف إحسانك.

---

[1] - سيبيك، توماس جون Seebeck : طبيب وفيزيائي ألماني، اكتشف الكهرباء الحرارية.

- 22 -

كان أنطونيو ومجدلينا منهمكين في تأمل إطار الصور حيث سيلصقان مقالة بافلوفيتش بعد أن انتزعا صورة لطفولة المرأة تبدو فيها جميلة جداً إلى حد مواصلة تصنع المقارنة يوماً بعد يوم، عندما ظهرت السيدة السامية في العتبة دون أي إشعار مسبق، فاضطرت الزوجين إلى النهوض، وشد ملابسهما بتعجل، ونفض المريلة أو البنطال من بقايا الصمغ العنيد الذي استخدماه في العملية.

- أظن أنكما والدا العروس.

مسح أنطونيو بمنديل مسند الكرسي الذي أومأ إليها بأن تجلس عليه.

- أجل يا سيدتي. زوجتي تدعى مجدلينا وأنا أنطونيو.

- اسمان مسيحيان، الحمد لله.

- عيد قديسي في 13 حزيران.

فتحت السيدة سحاب حقيبتها المعدني وأغلقته عدة مرات، قبل أن تعود إلى الكلام.

- اسمي باولا فرانك. إنني أخت جيرونيمو.

رفعت مجدلينا يدها إلى خديها وأحست بأنهما متوردان. لقد فاجأتهما الزائرة في وضع روتيني متواضع وفوط ملوثة بالدم بعد أن عالجا إصبع ابنتهما الذي جُرح بسكين كانت تقشر بها ثمرة دراقن. فوقفت ربة البيت أمام المغسلة وانحنت قبالة الزائرة.

- هل جئتِ لحضور حفلة الزفاف؟

أرخت باولا وهي تتنهد تجعدات تيبسها الدائم، وصوبت عينيها إلى المرأة، إلى أن اضطربت هذه الأخيرة وخفضت بصرها.

عندئذ قالت:

- حفلة الزفاف. يقال إن ابنتكما باهرة الجمال.

فقال أنطونيو:

- الناس يبالغون.

وأضافت الزائرة:

- الناس الذين يبالغون يقولون إنه لو توفرت ظروف أخرى لأمكن لابنتكما أن تعتبر أميرة، لا بد أن تكون تقاطيعها مرهفة وأن يكون زخم نور روحها شديداً في حدقتيها.

قرّبت لها مجدلينا كأساً صغيراً من الصلصال وأشارت إلى زجاجة على الرف.

- هل أقدم لك قليلاً من السليبوفيتش.

أبدى الزوجان ابتسامتيهما وملأت الأم الكأس الصغيرة حتى حافتها. رشفت باولا قطرتين بعد أن تحسست حدة الشراب المثيرة بشفتيها.

- ما رأيكما بأخي؟

فسارع أنطونيو:

- أفضل رأي في الدنيا.

- في عائلتنا يعتبرونه بوهيمياً.

- لا أعرف ما الذي يعنيه هذا.

- شخص له أهواء وعادات غير ما هو مألوف. مثلما هم الرسامون والراقصون مثلاً. وأبي كان يطلق عليه بسخرية لقب «الشاعر».

ابتسم الرجل وهو يزيح الهواء بضربة من يده فوق جبهته. وضمت مجدلينا مرفقيها فوق صدرها، وكأنها تحمي نفسها.

- جيرونيمو هو نقيض كامل للشاعر يا سيدتي. إنه تاجر مزدهر.

- بائع ماء في الصحراء، أليس كذلك؟

- لست أفهمك يا سيدتي.

- ما أردت قوله لكما هو أن الإزهار أمر نسبي. فما تظنون أن جيرونيمو قد حصل عليه هنا، هو ما دفنه هناك.

- أين يا مدام فرانك؟

- في أي مكان يا صديقي العزيز، على ألا يكون في ضواحي الكوكب

هذه – قالت باولا ذلك وهي تلمس أنفها بضجر – قل لي يا سيد أنطونيو، وبكل صراحة. هل هناك حاجة لهذا الزفاف؟

نظر الرجل إلى زوجته بحيرة ثم فتح راحتيه أمام السيدة:

– أجل بالطبع يا سيدتي. سيجري حفل الزفاف اليوم. إنها حفلة القرن. بل وستتصور في السينما.

– آه، أجل، أعرف ذلك. لقد تعرفت في السفينة على من سيقوم بالإضاءة.

نزعت مجدلينا المريلة وبينما هي تطويها لتضعها على مسند الكرسي، أخرجت خارج بلوزتها السوداء الصليب الصغير الملبس.

– ما الذي تريدين قوله يا سيدتي؟ – قالت الأم.

– المساهمة في إسعاد الجميع.

– هل يضايقك الزفاف؟

– في الظاهر لا، أما في أعماقي فبلى. أقدر بأن علاقة كهذه يجب أن تتم بين أناس متساوين في الوقار.

أحس أنطونيو أن زوجته تشد على ساعده، وتمكن من تخفيف رده عندما كانت الشتيمة على وشك أن تنزلق من لسانه.

– انظري يا مدام. هذه أسرة فقيرة ولكنها وقورة، لن تجدي شائبة واحدة في تاريخ هذا البيت.

– تاريخ ليس فيه أي شيء مكتوب كما أعتقد.

– لا أفهم.

– التاريخ الذي لا يُكتب لا وجود له. إنه حصيلة ذكريات خاصة، هل تفهمني؟

– لا باس إذن، ذكرياتنا الخاصة هي ذكريات وقورة.

– معك حق يا سيد أنطونيو. هناك وقار في الفقر، ووقار كبير في الفقراء الذين يترسخ في قلوبهم اليقين الأخلاقي بأنهم يتصرفون بصورة سليمة.

إنهار الرجل خامداً وداعب بيده زجاجة السليبوفيتش، وهو يفرك الآن شكوكاً راحت تعذبه. هل جاءت شقيقة جيرونيمو بمبادرة منها لكي

تهينهم بهذه الأقوال؟ أم أنها أكثر من كونها امرأة شريرة بطبعها، جاءت لتنطق باسم جيرونيمو نفسه الذي دفعه جبن ربما كان سببه المواجهة بين الوطنيين وقوات وطنه إلى التملص بحذر من الالتزام الذي سعى إليه جاهداً؟ أم أن السيدة السامية ما هي إلا حورية حامية، تعرف الأسطورة القاتلة المعششة في المتجر الأوربي، وقد جاءت لتنقذ ابنته من هذه الميتة التي يخشاها هو نفسه في أعماقه؟ لم يقوَ إلا على رفع الزجاجة وسكب كأس من السليبوفيتش لنفسه.

- ماذا تريدين يا سيدتي؟

- التكلم مع ابنتك.

- غير ممكن.

- ولم لا؟

- لقد جرحت إصبعها بينما هي تقطع ثمرة دراقن. إنها مستلقية في الفراش وذراعها مرفوعة من أجل وقف النزيف.

نهضت باولا عن الكرسي وقدرت الممر الذي يؤدي إلى حجرة آليا إيمار. وقالت:

- إنني امرأة ولا يسبب لي منظر الدم أي استغراب.

وزعت نظرتها ما بين الزوجين وشربت نصف كأس الخمر. كانت الشمس تسقط عمودية على السطح، واستغربت من نفسها وهي تشرب هذا المشروب الهمجي في مثل هذه الساعة القائظة. خفض الزوجان نظرهما إلى الأرض، وكأنهما مدعوان من سلطة علوية، وارتقت باولا السلّم الذي سيقودها إلى الفتاة.

- 23 -

لدى دخوله إلى بلدة بورونو لاحظ أن بعض الأهالي يحيونه بانحناءات أكثر تهذباً من المعتاد. وأوحى إليه نوع من الحدس بأن قراء لاريبوبليكا هؤلاء ينظرون إليه باعتباره شقيق رينو، وقبل أن يخيب أملهم بالإعلان من أعماق قلبه بأن البطل المزعوم ليس إلا قاتلاً همجياً، رد شاكراً بإيماءة وقورة على انحناءات الاحترام واتخذ الدرب الصاعد إلى البرج.

ولكن من الخليج الصغير الذي يشكله الماء قبل أن يشق طريقه بسخاء نحو الأدرياتيكي، بلغته صرخة منادية حين بدأ صعود الرابية.

- استيبان كوبيتا!

تظاهر بأنه لم يسمع النداء وواصل الصعود بمهارة ما بين حجارة المنحدر عندما أوقفته صرخة أخرى بتعبير بلبله لما فيه من مزيج من السخرية والنبوءة والتسلط.

- أيها الشاعر استيبان كوبيتا!

لم يستطع الشاب المصطبغ بحمرة شمس غسقية إلا الالتفات والتعرف على الرجل الذي يحييه ملوحاً بذراعيه وكأنهما جناحا طاحونة. إنه الصحفي بافلوفيتش الذي استدعاه بحركة واسعة لينزل ويشاطره مائدته. كان بإمكانه أن يشم من تلك المسافة رائحة «السيبافيتشي»، تلك الأحشاء المشوية على الجمر، فغذ استيبان خطواته بشيء من اللامبالاة نحو الغداء، وهو مدرك أنه شاعر متسامٍ على هذه الصغائر، ولكنه في الوقت نفسه بشر فانٍ لا بد له من الأكل.

عانقه بافلوفيتش:

- من أين أنت آتٍ أيها الفتى، وإلى أين تذهب؟

- الجواب على الجزء الأول أسهل من الثاني.

أشار له مراسل لاريبوبليكا أن يجلس، وأمر النادل بحركة نشطة من

إصبعه ليضع أدوات طعام أخرى على الشرشف.

- لا يمكنني كصحفي الاكتفاء بهذا الجواب.

- من الجحيم يا سيدي. إنني آت من جحيم خارجي وداخلي.

- وكيف ذلك؟

- لقد فقدتْ سواحل ماليسيا رشدها، وأنا نفسي فقدت رشدي.

قدم له النادل كأس نبيذ مثلج، فرطب الشاب لسانه فيه ثم شرب رشفة منه وهو ينظر إلى النقوش الحجرية في برج الشاعر نازار الصغير.

- أرغب في معرفة التفاصيل حقاً.

- لا يا سيدي. لقد تعلمت بأنه يجب علي عدم التكلم مع صحفي على الإطلاق. لقد دمرتْ مقالتك اليوم حياتي.

- لم أكتبها لهذا الهدف. أخوك روى لي ما جرى وأنا سجلت الملاحظات مثل أي كاتب عمومي متواضع في الأرياف. أشعر بأن لي الحق الكامل في دعوتك إلى طبق سيبافيتشي دون أن ترفض دعوتي.

- الحقيقة أنني جائع يا دكتور، ولا أملك إلا قليلاً من النقود.

- أما أنا فإن لدي الكثير من النقود وليست لدي شهية. ما الذي يجري في جيما؟

تناول الفتى قطعة خبز وغمسها بصلصة الفلفل.

- كنت أعتقد أنك ستحضر حفلة الزفاف، حسب ما هو وارد في مقالتك. وحين أراك الآن هنا أشعر بالأسف لأن الحدث العظيم سيمضي إلى براز النسيان.

- هل يؤسفك ذلك حقاً؟

كرع استيبان كأساً أخرى من النبيذ ومسح دمعة غير مواتية ومشوشة انحدرت ببهيمية على خده.

- لا يا دكتور. الحقيقة أنه يسعدني. وهي سعادة لا يمكن مقارنتها إلا بالكراهية التي أشعر بها نحو رينو. فعدم روايتك لوقائع حفلة الزفاف سيجعلها غير موجودة.

- أتعجبك طريقتي في الكتابة؟

- أجل يا سيدي. إنك تتقن نفخ البالونات. فالمرء يقرأ كتاباتك بتوتر.

- هذا إطراء كبير لأنه يأتي من شاعر.

– لا تسخر مني يا سيد بافلوفيتش. لقد تدبرت مرة واحدة في حياتي مقطعين شعريين، وعن الحب فقط، بلا مهارة أو موهبة.

– وبلا فعالية، إذا ما أخذنا الزواج الوشيك في الاعتبار.

– دون فعالية يا دكتور.

أحضر النادل الأحشاء المشوية وقدمها على شبكة حديدية مستقرة فوق جمرات فحم، ومضغ استيبان على الفور قطعة كبد. تفحصه بافلوفيتش بمتعة وهو يجرع نصف كأس من النبيذ.

– ما الذي وجدته العروس في النمساوي؟

– من الصعب معرفة ذلك. السبب الأكثر وضوحاً هو المال. وبعد ذلك الثقافة.

تردد استيبان في هذه اللحظة ما بين بصق اللقمة إلى الأرض الترابية أو ابتلاعها. عجنها في فمه طوال أكثر من دقيقة ثم ابتلعها دون أن ينتبه بافلوفيتش إلى معضلته.

أشار بذقنه نحو المرتفع الذي إلى اليسار وقال:

– برج الشاعر نازار.

أومأ الصحفي موافقاً بتفخيم صريح. وفجأة جرحه ذكر الشاعر الغنائي. لقد اعتاد على هذه الضواحي المؤثرة وعليه الآن أن يهرب إلى المجهول في سن يتوصل فيها الجميع إلى الاستقرار ويضربون جذورهم في أرض ما. كما هو حال نمساوي المتجر الأوربي السعيد.

انتظر إلى أن انتهى الفتى من طبق الأحشاء الأول وأشار له إلى طبق آخر مؤلف من قطع لحم فقط. فانقض عليه استيبان بكآبة وجوع.

– وإلى أين ستذهب الآن يا فتى؟

ابتلع اللقمة التي يمضغها، ولكي لا يبدو عديم التهذب أجاب بسرعة:

– إلى نيويورك.

اندفع بافلوفيتش إلى الوراء بحركة مسرحية على كرسيه المصنوع من خشب وقش. وقام بحركة كأنها التهوية من الحر.

– وي! كلمات كبيرة! هل لديك فيزا؟

– وما هذا؟

- تصريح يَختم على جواز السَفر ويتيح لك الدخول إلى الولايات المتحدة.

نظر استيبان إلى عصفورين يقفان على برج الشاعر. وسأله الصحفي الذي وقع ضحية شك مباغت:

- وهل لديك جواز سفر؟

- لا يا سيد بافلوفيتش.

- أي أنك لا تملك فيزا ولا جواز سفر.

- يبدو ذلك.

أخرج الرجل وثيقة سفره، ومسح بكم قميصه الطاولة، ووضعها مفتوحة على الصفحة التي تضم صورته وأختام الإمبراطورية النمساوية الهنغارية.

- هذا جواز سفر.

- ومن أين حصلت عليه؟

- من مكتب وزارة العلاقات الخارجية.

- ألا يعطونني واحداً؟

- **كان يمكن** لهم أن يعطوك واحداً.

- والآن لا؟

- اسمع يا فتى. لكي يعطوك واحدة من هذه الوثائق سيسألون عن اسمك. وأنت تتمتع بالحظ العاهر في حمل اسم استيبان كوبيتا. ربما سيكون هناك شارع يحمل كنيتك في العاصمة عندما تستقل سواحل ماليسيا، ولكن بما أنك شقيق رينو كوبيتا فإن الشيء الوحيد الذي ستحصل عليه هو أنشوطة حبل الجلاد حول عنقك الشعري.

خلع الشاب نعليه تحت الطاولة مستعيناً بقدميه، وبينما هو مستغرق في التفكير شد أصابعه لكي يتيح للهواء التغلغل فيما بينها. وقال:

- الأمر معقد جداً.

- معقد.

- ما الذي يمكنني عمله إذن؟ قدم لي النصح يا دكتور بافلوفيتش.

ملأ كأسيهما بالنبيذ وهما صامتان، وبعد أن نقر الصحفي بأصابعه على جواز السفر، قال:

- اذهب إلى إيطاليا.

- وبأي جواز سفر سأذهب؟

- دون فيزا ودون جواز سفر، ودون أي لعنة أخرى.

- لن يسمحوا لي بالدخول.

- هناك أخبار جديدة يا فتى. فمنذ أن فقدت فينسيا سواحل ماليسيا والإيطاليون يحلمون بإلحاقها مجدداً بأراضيهم. ولكي يشيعوا مناخاً مناسباً لهدفهم هذا، فإنهم يعاملون الماليسيين وكأنهم جزء طبيعي منهم. وبالتالي، لن يطلبوا منك شيئاً من أجل الدخول.

- كم من الأشياء تعرف حضرتك!

- هذا حصيلة زياراتي لبلدان لها تاريخ، وليس مجرد مناظر طبيعية مثلما هي هذه الجزر التافهة.

نهض الشاب واقفاً، ثم انحنى ليلتقط حذاءه. وخطا بضع خطوات وهو حافٍ باتجاه البرج، ثم توقف، والتفت باتجاه الصحفي، وسأله وهو يحك رأسه:

- إذا لم يكن هناك إزعاج يا سيد بافلوفيتش، في أي اتجاه يجب علي أن أمشي لكي أصل إلى إيطاليا؟

- 24 -

وجدت باولا العروس تنفخ على إصبعها الجريح: كان الدم قد تخثر ولم يعد يتدفق بالغزارة التي كان عليها في الصباح. وكان فستان الزفاف والطرحة المزدانة بقطع براقة أشبه بتاج، موضوعين على السرير ويبدوان كأنهما شخص حقيقي. وعلى الرغم من الحر الخانق، كان ثمة شيء بارد يهب في تلك الحجرة. لقد فتنتها على الدوام معرفة الناس الريفيين كيفية مواءمة ستائر النوافذ وأباجوراتها مع النسيم لتبريد شموسهم البدائية. ودون أن تخفض إصبعها، تأملت آليا إيمار المرأة وملابسها الأنيقة وهي مستغرقة في فضول شبه طفولي. أحنت عنقها وانتظرت بصمت أن تبادرها الأخرى بالكلام.

- أنا أخت جيرونيمو - تقدمت نحو الفتاة وسألتها وهي تمسك بها من ذراعيها: - هل يمكنني تقبيل العروس؟

ابتسمت آليا إيمار بتلطف، وحين لامست باولا بشفتيها الخد ذا النعومة الطفولية، عرفت فجأة طاقة الإثارة التي بعثها ذلك الجسد في أخيها. ووردت إلى ذهنها مرة أخرى الجملة التي رافقتها طوال الطريق من سالزبورغ، مثل ترنيمة، أو مثل رقية: «كان يمكن لها في ظروف أخرى أن تكون أميرة.» وفكرت بجفاء: إلا أن الأميرة تولد أميرة ولا تُصنع أميرة.

- أهلاً وسهلاً يا سيدتي. عسى أن تكون هذه الأنحاء قد أعجبتك.

- لقد أعجبتني بالتأكيد. فكل شيء هنا... بسيط.

- آه، أجل.

- وكيف حال هذا الإصبع؟

- أفضل. الجرح صغير ولكنه كان ينزف مثل حمم بركان.

- ربما لديك مشكلة في الدم تحول دون تخثره جيداً.

– آه، لا. لقد توقف النزف.

– هناك مناطق في العالم لا يتخثر فيها دم الناس جيداً. وخصوصاً أماكن الاختلاط العرقي الكثير. وهنا توالت غزوات كثيرة.. أتراك، إيطاليون...

اقتربت من السرير، وبينما هي تطوف حوله استطاعت أن تقدر كل تفصيل في فستان الزفاف. لا بد أن خياطة أخيها قد تقيدت بنصائحه الخرقاء. فجيرونيمو يسعى على الدوام لأن يكون لمظهره بريق حالته المعنوية نفسه. فإذا كانت الفتاة مشعة في نظره، يجد نفسه مضطراً عندئذ إلى تحميلها بحشد من الخرز المبهر.

– هل يعجبك الفستان يا مدام؟

فقالت:

– بالتأكيد. يبدو وكأن أديسون العظيم هو من صممه. - لمست الساتان، وأجزاء التول، والتطريزات التي حول النهدين، وفي هذه اللحظة بالذات نظرت إلى نهدي الفتاة - أخي مجنون، ولكنه ليس مغفلاً. أظن أن الدم لم يلطخ الفستان بعد، أليس كذلك؟

– لم أفكر حتى بلمسه.

– يقولون في القرية إنه سيكون زفاف القرن. ستكون هناك سينما وسيرقصون التورومبا.

– وهل تعرفين التورومبا يا مدام؟ - هتفت آليا إيمار، وعيناها تشعان بالأمل والريبة.

وفكرت الغريبة: «وكذلك النظرة، والخصر، والصوت. يمكنني أن أتصور كيف هي مؤخرتها».

– آه، أجل! في سالزبورغ لا يستمعون إلا إلى موزارت وأغنيات التورومبا.

– الرائجة الآن هي تورومبا الفاكهة.

– عزيزتي، هل يمكنني الجلوس على حافة السرير هذه؟

– يمكنك بالطبع.

رفعت الفتاة طرف فستان الزفاف وتهاوت باولا على تلك الفجوة منتصبة مثل مظلة على مشجب.

- أريد أن أتكلم وإياك بكل صراحة.

جثت الفتاة قبالة حضنها وأمسكت بيديها.

- مثلما يجب أن يكون الكلام بين أفراد الأسرة الواحدة.

فكرت في هذه الجملة بينما هي تبتلع لعابها، واختارت أن تمضي منذ هذه اللحظة في تكتيك رحيم يجمع ما بن الملامسة الجسدية والوقاحة اللفظية. فعروس كتاب الحوريات الطيبات كانت في نهاية المطاف حذرة بحيث لم تفرض عليها سماع أي سطر من **توروميا الفاكهة**.

- أجل يا حبي.

لم تكن هناك قطرة واحدة من الشك أو النوايا المزدوجة في إيماءاتها أو في النظرة الباهرة لهذه الحورية التي كان يمكن لأي رسام أن يطاردها ليرسم نموذجاً دراميا للوحة «**فطور على العشب**».

- اسألي ما تشائين يا سيدتي.

- يخيل إلي أنك سعيدة جداً بهذا الزواج المناسب تماماً.

- آه، لا يا سيدة فرانك. إنني ممتلئة بالشكوك والغم.

- يا للغرابة! وما الذي يقلقك أيتها الفتاة؟

- الحب! هذا يعني، كيف يمكن لإحدانا أن تعرف متى تحب شخصاً حقاً؟

- لا أفهمك.

- هذا يعني... لا أجد الكلمات لأوضح ذلك.

- لا تستعجلي. هذا الموضوع يهمني جداً.

- فكري في الموسيقى. إنك تستمعين في البدء إلى موزارت، ثم موزارت مرة أخرى، وتواصلين مع موزارت. وعندئذ تشعرين بالسعادة. هذا يعني أنك ممتلئة بموزارت.

- بالتأكيد.

- هذا يعني...

- لا حاجة بك يا آليا إيمار لأن تقولي في كل لحظة «هذا يعني». إنك تكررين نفسك بعض الشيء ولكنك قادرة على الإفهام بصورة رائعة.

- العفو يا سيدتي. عندئذ موزارت...

-... وموزارت وموزارت. الأمر واضح.

– وفي أحد الأيام تتعرفين على الخامسة لبتهوفن. وإذا بذاك الذي كان حباً لموزارت...

– يتحول إلى حب الخامسة لبتهوفن.

– لا يا مدام، لأنك تسمعين بعد ذلك رباعيات بيتهوفن، فيتغلغل حب بتهوفن في إحدانا... هذا يعني، أن إحدانا تخرج من نفسها... إنه الحب، أليس كذلك؟ خروج إحدانا من نفسها، أليس كذلك؟

عرفت باولا فرانك بأن شحوباً بطيئاً بدأ يداهمها من وجهها حتى معصميها. هل روض أخوها هذه المتوحشة الصغيرة إذن؟ أيكون مثل دكتور هيغنس سوقي تحول عصاه السحرية القروية الفظة إلى أميرة قادرة على التمييز ما بين استعراضية الخامسة وحميمية الرباعيات المؤلمة؟

– وماذا تقولين لي عن شومان[1]؟

– شومان؟ شومان يؤلم يا سيدتي. هذا يعني... يؤلم، يا سيدتي.

– أخبريني. هل تعرفين عملاً لبرنارد شو بعنوان «بيجماليون»؟

نشرت ابتسامة أكثر الأسنان التي رأتها المرأة في كل العواصم الكبرى سعادة. وتقدمت آليا إيمار إلى الخزانة وعرضت بانتصار جهاز فونوغراف آرسي.أي فيكتور وبرجاً من الأسطوانات. ومن السقف حتى الأرض كانت تنتصب أعمدة من الكتب مرتبة حسب حجمها للحفاظ على توازن تلك الأبراج. فالكتب السميكة والثقيلة في القاعدة، وفوقها الأصغر حجماً. ومن هناك أخرجت نسختين من كتاب شو، أحدهما بالألمانية والآخر بالماليسية.

– وهل تسبب لك هذه القراءات متعة ما أيتها الجميلة أم أنها مثل طوب بالنسبة لرأسك؟

– هذا يعني... هذا يعني أنها رائعة يا سيدتي. ففي هذه الجزيرة لا يمكن لإحدانا أن تتسلى إلا في ثلاثة أشياء: المطالعة، والموسيقى، وتأمل إحدانا في داخلها.

– في داخلها؟

---

[1] شومان،روبيرت Schummann: موسيقي ألماني 1810-1856.

- إن ذلك مثل زيارة بلد آخر. كثيراً ما أشعر... لا أعرف كيف أقول ذلك يا مدام. يبدو لي أن الأمر حماقة. ففي أحيان كثيرة أشعر بأنني أملك في داخلي شيئاً أكبر من جسدي.

- شيء لا يتسع له جسدك.

- إنها حماقة. شيء موجود في جسدي ولكنه لا يتسع له.

- هل سمعتِ شيئاً عن الروح؟

- آه، أجل. هذه من مسوخ الخوري.

- ماذا؟ ألستِ كاثوليكية؟

- بلى بالتأكيد. مثل جميع من هم في هذه الجزيرة. أنا أكلمك... هذا يعني، أنا أتكلم عن بيتهوفن.

- ويخيل إلي أنك تتكلمين عن موزارت وعن شوبير[1] وعن شومان وعن **توروميا الفاكهة**. وبتطبيق هذا الولع الموسيقي على فنون الجنس سنكون أمام حالة بنت كثيرة الخلط.

- لا أفهم.

- كثيرة الخلط هي من تخرج مع شخص ومع آخر، سيان لديها موزارت أو شونبرغ.

وأحست آليا إيمار بأن الغضب سبب بحة في صوتها.

- شونبرغ لا يا سيدتي. إنني أكره شونبرغ.

نهضت أخت جيرونيمو فرانك واقفة الآن بقلب مضطرب وأمسكت بقوة بمعصم اليد التي ترفع الإصبع الجريح عالياً.

- كلبة منافقة! ليست هناك أسطوانات لشونبرغ. لقد سحقها النقاد للتو في فيينا!

خففت المرأة ضغطها على الفتاة، ولحست الأثر الذي أحدثته في معصمها. قاطعت أصابعها على شفتيها، خفضت بصرها كما في صلاة، وتفحصت بطرف عينها الفوط القماشية الملوثة التي استخدمت في وقف نزيف تلك الإصبع السبابة الإيروتيكية، وفتحت ساقيها لأنها شعرت بأنه سيُغمى عليها.

---

[1] شوبير، فرانز Schubert: مؤلف موسيقي نمساوي 1797-1828

– لماذا جئت إلى هنا يا سيدتي؟

– لأتكلم بصراحة وليس لأستمع إلى مناظرة.

– وماذا تريدين أن تقولي لي؟

– بكل وضوح يا عزيزتي! إنني بحاجة إلى التحدث إليك كعاهرة لعاهرة.

شهرت آليا إيمار إصبعها الجريح ووضعته فوق خد باولا مهددة إياها بخدشه بظفرها.

– عندما تتكلمين عن العاهرات، فليكن كلامك عن نفسك وحسب. أما أنا فإنني عذراء.

– هناك من تضاجع بقلبها أكثر مما تضاجع بفرجها. أن يولجوه فيكِ ويخرجونه ليس إلا تفصيلاً. ما يؤخذ في الاعتبار هو الميل إلى الخلط... أيتها الزميلة.

– هل يعرف أخوك أنك هنا؟

– إنه مفاوض سيئ وقد جئت بنفسي لعقد صفقة معك.

مضت الفتاة إلى النافذة وأرخت الستارة. وهوّت بكتاب شو عند ذقنها.

– ما هو الموضوع؟

– يمكنك الوثوق الكامل بي، فهناك شيء آخر يجمعنا فضلاً عن أخي.

– ما هو؟

– أنا أيضاً تزوجت من أجل المصلحة. فأسرتنا في سالزبورغ، وبفضل جهود والدي، حققت وضعاً اقتصادياً قوياً وراسخاً. ولكننا لسنا من أسرة عريقة. ومن حسن الحظ أن النظام الملكي والنبلاء قد ناموا على غار أمجادهم وأضحت النمسا مشلولة. وعند وجود مثل هذه الأزمات، يجري التفكير في أمرين: طلب قروض من المصرف وشن حرب. ولن ينقضي وقت طويل قبل أن يتدخل جنودنا الدمى في سواحل ماليسيا. وسيكون عليكم أن تتصرفوا.

– ما علاقة كل هذه القصة بي؟

– علاقة كبيرة جداً. بفضل المبالغ الكبيرة التي يدين بها البارون فون

أورتال لمصرفي، اضطر إلى البحث عن تحالف يخفف من كروبه. فطلب يدي، ولأن ذلك يناسبني، منحته إياها. هناك اتفاق تكتيكي فيما بيننا يقضي بعدم تقاسمنا الفراش الزوجي. ولكن عندما يتعلق الأمر بفاتنة مثلك وبفحل مثل أخي، فإنني أشك في أنه سيتمكن من قضاء ليلة واحدة دون أن يسكب فيك هيكتولترات من منيه.

- جيرونيمو جذاب جداً. وهناك نساء كثيرات، بمن في ذلك سائحات وزبونات للمتجر، يضعن عيونهن عليه.

- ولكنه وضع عينه عليك. ومنذ هذه الليلة سيضع فيك شيئاً ربما لن يروقك.

تهاوت آليا إيمار على امتداد السرير مغطية ثوب الزفاف. تناولت زهرة برتقال ووضعتها بين شفتيها، ثم رفعت ثوبها وداعبت فخذها الأيمن، متأملة في فكرة. أحست بإغماءة طابقتها بفتور مع إيقاع إحدى رباعيات شوبير البطيئة. وقالت بنعومة:

- أنا أحبه.

كان انتقال باولا باتجاهها خفيفاً مثل الأسلوب الذي جلست به على حافة السرير وراحت تداعب خدها.

- كيف تعرف إحدانا أن ما تشعر به هو الحب حقاً؟

سمعتها الفتاة متعرفة على هذه الكلمات ولم تكبح الدموع البطيئة التي بدأت تسيل من عينيها.

وبينما كانت السيدة باولا فرانك، بارونة أورتال، ما تزال تداعب براحة يدها وجنة الفتاة، سألتها بصوت هامس:

- هل هناك رجل آخر؟

رأت عينيها غارقتين في ظلٍ مائي كثيف، ولم تفعل شيئاً لمنع آليا إيمار من رفع أظفارها إلى شفتيها وحني جبهتها في هزيمة مذعنة. فاجأتها ردة الفعل العاطفية تلك من شابة بدت لها حتى هذه اللحظة متكبرة وسيدة نفسها، فقررت أن توجه دون مقدمات طعنتها النجلاء.

- هذا يعني - أضافت بتواطؤ متصنع -، أنه فضلاً عن موزارت وبتهوفن وشومان، هناك رجل آخر؟

- 25 -

الأرق السابق والانضباط الضروري لتنشيط رجولته جعلا جيرونيمو يستغرق في القيلولة بسلاسة لا تشوبها شائبة. كانت السنوات قد سكّنت شبقه الشبابي وصار يعرف في ممارسته الجنسية كيف يلبي رغبات السيدات المتباعدة بصورة أفضل بكثير من تسرعات المجون. نام انتصاراً وراء ظلال الستائر الوارفة التي تتلقى بدورها الضوء مُروَضاً عبر شجرة الخوخ الضخمة التي يسرق الأطفال بعض ثمارها وهم في الطريق إلى المدرسة، مصوبين بمقاليعهم نحو الثمار العالية، وخائفين من أن يكتشفهم صاحب الأوربي ويأخذهم إلى آبائهم وهو يشدهم من آذانهم.

كان قد زرع الشجرة بعد أن قرأ عن موت مارتا ماتاراسو في مذكرات ستاموس مارينتاكس مباشرة، تحركه ألطف أشكال الشفقة. لقد راوده وهو يقرأ تلك الرواية المعذبة إحساس جسدي بالعدم، ذلك النفي المطلق للكائن الذي حرض مناقشات الفلاسفة، ولكن لا يستطيع معاناته إلا الشعراء والعشاق الذين يركّبون صوراً محطمة بحصار النكبة.

بعد شهور من ذلك بحث في الكتب عن العلاقة ما بين ايروس وتاناتوس وأراد أن يقنع نفسه بأن مأساه ستاموس ربما هي حدث ضئيل من حلقات القدر المشؤومة التي كان قد غناها وفهمها أسلافه الإغريق. استغرق ليالٍ بطولها في التفكير بالدقائق القاسية التي توجب فيها على الأرمل أن يدفن جسد تلك الفتاة التي تلقت الموت في احتضار تشنجي من منيه المتفجر. ولكن ما دفع جيرونيمو إلى تناول رفشٍ والحفر طوال الليل لزرع بذور شجرة الخوخ في تلك الضواحي البدائية، لم يكن طقساً من الكتب ولا شعيرة دينية، وإنما الغريزة الحكيمة في خلق ذاكرة وجذور، وربما الرُقى.

منذ غرس هذه الشجرة اندمجت الثقافة والزراعة في ممارسته

اليومية بلحمة يقصر الوصف عنها. أراد جيرونيمو أن يفهم ولم يكتف بالبحث عن إشارات ذات مغزى في المشهد الشحيح لسواحل ماليسيا المتجهمة، وإنما سعى إلى معرفة كل فن واجه الألم، والغموض، والموت. ففي الوقت الذي كان فيه مستخدموه يبيعون أقمشة ومؤناً، مشروبات وتبغاً، وقطع غيار للسيارات أو منافيخ للدراجات في الجزء الأمامي من المتجر، كانت تنمو في الغرفة القريبة من شجرة الخوخ الكئيبة المكتبة ومجموعة الأسطوانات، اللوحات والنوطات، والآلات الموسيقية القديمة المقتناة في أوكازيونات والتي يقدمها بين حين وآخر إلى السياح والتجار ممن ينزلون في بيته، للاستمتاع بسماع موسيقى «حية»، دون أن يهمه مدى معرفة أولئك العازفين الطارئين بالموسيقى.

عندما ماتت مارتا ماتاراسو، كانت آليا إيمار حديثة الولادة. وقد عُولجت زوجته المستقبلية من التهاب في البلعوم في العيادة الصغيرة التي ساعد هو نفسه في إنشائها، بأن دفع من أرباحه أجور طبيب وقابلة جيء بهما من كوريتشا، مما أتاح لأهالي الجزيرة تلقي رعاية سريعة في حالات الولادات والنوبات القلبية وضمن قواعد النظافة والمعايير المهنية.

فعدم وجود مثل هذه البنية التحتية كان السبب الأحمق الذي أحكم احتضار مارتا ماتاراسو. إذ وصل أعضاء الفريق الطبي في أول سفينة فجر اليوم التالي. ولم يستطيعوا عمل شيء سوى أن يضعوا على قبر العروس شقائق نعمان غضة أُحضرت من دفيئة في السفينة.

وقد رجعوا في السفينة نفسها متشحين بسواد صارم، وبنظارات ومونوكلات، مع عكاكيزهم وأجهزتهم الجراحية. وقبل أن يصلوا إلى القارة، كانت الأزهار التي وضعوها على القبر قد تفتتت ما بين عصف الريح ورجم الشمس، وهو ما أخبر به الخوري فرانز بريجل دون جيرونيمو.

قبل القيلولة، كان صاحب المتجر قد زار العيادة وراجع برقة متهورة سجلات المواليد بحثاً عن تاريخ عيد ميلاد آليا ايمار، بينما كان الطبيب والممرضة يفتحان صناديق أدوية أوربية، وشراب مضاد للتقيؤ، ومسكنات، وأضمدة ومعقمات لعلاج جراح خناجر المتخاصمين، سواء تلك التي قد

يكون دافعها الغيرة، أو تصفية حسابات سابقة، أو لمجرد إظهار الروح الرياضية، وكانت هناك أكثر من أي شيء آخر عقاقير كيميائية حديثة لتخثير الدم. وقد سألت الممرضة «لماذا كل هذه الكمية» من هذا العقار الأخير، ورد الطبيب بإجابة غامضة: «تحسباً للطوارئ». وقد فاض جيرونيمو بابتسامة عندما قرأ المعلومات السريرية للدقائق الأولى من حياة حبيبته: ثلاث كيلوغرامات ومئتي غرام، ثمانية وثلاثون سنتمتراً، ولادة طبيعية.

لقد كانت آليا إيمار لسنوات طويلة في نظره الصغيرة ذات الشعر المشعث والحاجبين القاسيين التي اعتادت المجيء إلى المتجر مع أمها لشراء بعض الترهات. في اللقاءات الأولى قال لنفسه إنها بنت باهرة الجمال، ولكنها طفلة، وليس هناك ممن هم في الثامنة أو التاسعة من العمر إلا وتكون روحهم على حافة عيونهم. ثم راحت الحياة تكونها، وفي بعض المناسبات تطفئها. وكانت عندئذ فاتنة مثل كثيرات، أو جميلة مثلما هن جميع البنات.

ما شكّل علامة فارقة وبدأ هوسه بها حدث في اليوم الذي جاءت فيه آليا إيمار مع أمها لشراء لوازم الاحتفال ببلوغها ثلاث عشرة سنة. كان صباحاً شديد الاضطراب، ذلك أن المهربين كانوا قد توصلوا إلى اتفاق مع الجمارك لا تقل استراتيجيته عن فساده، إذ سمحت لهم سلطات الجمارك بأن يُخرجوا من عنابر السفن بضائع كبيرة الحجم جداً: ثلاجات أو سيارات لم يكن نقلها مستحيلاً في الزوارق الحديثة المقتناة بفضل الازدهار الذي أشاعه فرانك في الميناء.

بل إن أحد المستوردين غير الشرعيين، قال إنه يدعى سموغلير، طلب من جيرونيمو أن يسأل رينو كوبيتا عما إذا كان يهمه امتلاك دبابة من أحدث تيكنولوجيا. لكن النمساوي الماهر في كشف الأمزجة القابلة للاستثارة، قرر تجاهل نقل الرسالة. إذ لم يكن هناك شيء في الدنيا يجعل من سواحل ماليسيا محط طمع أحد، اللهم إلا من أجل اصطياد الأجساد الشابة لضمها إلى جيش الإمبراطورية. «إنهم يفرطوننا مثل عرانيس الذرة»، كان قد قرأ في المغامرات الظريفة للجندي شيفيك

الطيب. ووجود دبابة وسط العصافير والسردين والحمير، سيلفت انتباه الجواسيس الذين يحبون رائحة الحرب مثلما يحب العشاق الفرنسيون بضع قطرات من العطر على إليتي إناثهم. وكان سيغموند فرويد قد قال للتو في فيينا: *Wir sind die Nahkommen einer unendlichen Anzahl von Mödern. Die Mordlust steckt uns im Blute. Nun im Krieg werden die Kulturauflagen abgestreift und die uralten Bestien treten hervor.* (*إننا ورثة عدد لا يحصى من القتلة. نحمل اللهفة إلى القتل في دمنا. ومن خلال الحرب نُسقط الأقنعة الثقافية عن وجوهنا ونسمح للوحوش البدائية التي فينا أن تسفر عن وجوهها.*)

عندما عرف صاحب المتجر أن السيدة مجدلينا وآليا إيمار تريدان شراء خميرة حلوى، وثلاث عشرة شمعة ملونة، ومرطبانات مربى برتقال إنكليزي، رجاهما أن تنتظرا ريثما يُصرّف قطع غيار سيارات يعاد بيعها في اليونان. ولكي يجعل انتظارهما أكثر متعة أجلسهما إلى طاولة الركن حيث توجد مجلات، ووضع في الفونوغراف اسطوانة **أليغرو الكونشيرتو رقم 22 للبيانو والأوركسترا** لموزارت. أنجز صفقاته المعتادة بموهبة في المساومة جعلته يبتسم حين فكر بأن أخته تعتبره أقل من بوهيمي مخدر، وعندما فتح علب شموع أعياد الميلاد، توجه بنظره نحو الفتاة. كانت آليا إيمار ممغنطة إلى نفير الفونوغراف بالتأثر الحي نفسه تقريباً للجرو المسحور المرسوم على جهاز آر.سي.أي **فيكتور** والذي يتعرف في النسخ الصوتية على «صوت سيده».

براعة الموسيقي الفائقة في احتداده السعيد كانت تسبب للفتاة دون ريب دغدغة تهزها حتى أطراف شعرها. وعندما سألها جيرونيمو عما إذا كانت تحب الموسيقى، نطقت الجملة التي أرخ بها بداية حبه.

– هكذا أنا.

أحس الرجل بفقدان التوازن، فتبعثرت محتويات علبة الشموع على الأرض محدثة ضجة قطيع حيوانات، وتيبست حنجرته كما لو أنها قد انسدت بإسمنت. ومنذ ذلك الارتباك تحديداً عرف أن حياته قد اكتسبت أخيراً مغزى محدداً: انتظار احتراق الشموع سنة بعد سنة والنفخ عليها،

إلـى أن تصـل الفتـاة لاهثـة إلـى سـن السـابعة عشـرة لكـي يطلبها مـن أمـها للـزواج. لـف بنفسـه لـوازم عيـد الميـلاد، وأضـاف إليها دون أن يُطلـب منـه ذلك، ودون أن يُدفع له ثمنها، علبة شرائط ملونة، وأبواقاً كرتونية ملفوفة مغلفـة بـورق مذهـب تزينـه نجـوم زرقـاء، وبطاقـات عليـها رسـوم دقيقـة لوحيدي قرن خضر، وسكاكر إيرلندية، ثم أخرج أخيراً مـن قسـم مبيعـات الكتب الترجمة الحديثة إلى اللغة المالبسية لرواية «**كوخ العم توم**».

– هذا هو الكتاب الوحيد لدي الذي ألفته امرأة.

ودون أن يلفـه بـالورق، ربـط فـوق غلافـه شـريطاً ورديـاً، ثـم ثبـت حـد المقـص علـى الشـريط، وقـام بحكـة احتفاليـة منحـت الكتـاب شـكل الهديـة. وضعه بين يدي الفتاة، وبينما كانت الأم تدفع حساب الجزء المترتب عليها من الصفقـة، زيّـت جيرونيمو حبالـه الصوتيـة بقليـل مـن اللعـاب، وقـرب شفتيه من أذن الفتاة، وقال لها هامساً:

– عندما تنتهين من قراءته مري من هنا لنتحدث حوله.

انتهى **الأليغرو** في هـذه اللحظـة ومـع انتهاء النغمـات المتهاديـة صمـت الفونوغـراف أيضـاً. بقيـت الإبـرة الثقيلـة تجـرح الأسـطوانة حـول البطاقـة الدائرية، وبدت الحيرة علـى الفتـاة لكـون مـوزارت والصريـر يخرجـان مـن الجهاز نفسه.

الآن، وبعـد سـنوات طويلـة، وقبـل أن يـهوي في قيلولـة يـوم زفافـه القصيرة، ألقى نظرة أخيرة مسـرعة إلـى السـاعة التي تشـير إلـى الثانيـة وإحدى عشرة دقيقة، ولم يستطع إلا الابتسام حيال نـزوات الخـوري الـذي قرع الناقوس من برج الكنيسة في أربع دقات حاسمة وفريدة.

- 26 -

كان في مكتبة جيما البلدية ما يقرب من مئة كتاب، معظمها بالألمانية، وخمسة أو ستة منها بالإيطالية، وحوالي عشرين كتاباً بالماليسية. وكان موقع المكتبة هو حجرة في أقصى مبنى البلدية، بابها مفتوح على الدوام، وليس هناك موظف مسؤول عنها. وقد اقترح الشاب استيبان كوبيتا في إحدى المرات على العمدة المقطب أن يعينه مديراً للمكتبة لكي يعتني بتلك الكتب، فرد عليه: «لا تقلق يا صديقي، فالكتب في هذه الجزيرة تعنى بنفسها وحيدة.»

وقد تمكن شقيق الموظف العمومي المُحبط من التأكد من صحة تلك الجملة الحكيمة عندما لاحظ وهو يتصفح الكتب بأن أوراقها ما زالت ملصقة بتكتم ديني. والكتاب الوحيد الذي يبدو مستعملاً بكثرة، بل وتنقصه بعض الصفحات الشبقة هو «**مذكرات أميرة روسية**». أما بقية الكتب فتبدو سليمة، باستثناء «**المعجم الألماني - الماليسي الكبير**» و«**الموسوعة الإيطالية – الماليسية**» والكتابين التعليميين: «**الإيطالية بسرعة**» و«**الألمانية بسهولة**» التي عانت من الأرق الثقافي لتلاميذ المدرسة الابتدائية، إذ لم تبق فيها صفحة واحدة لم تلوث بالمربى، والزبد، وعصير الخوخ، وفتات الشعيرية المتحجرة، أو المخاط الرخامي.

بحث رينو في المعجم الألماني عن اسم أبيه، وعثر عليه مع عبارة تعريف موجزة: «جوزيه كوبيتا: مغامر ماليسي حاول دون جدوى أن ينفصل بجزيرة جيما عن القارة.»

لو كان معه ثقاب في تلك اللحظة لأشعل النار ليس في هذه الصفحة وحدها وإنما بكل الموسوعة غير الملهمة.

قلّب عندئذ أوراق الموسوعة الإيطالية، إلى أن وجد اسم أبيه:

«جوزيه كوبيتا: بطل إيطالي حاول إعلان الحرب على الإمبراطورية النمساوية الهنغارية لكي يحرر سواحل ماليسيا ويقر الاتفاقية المشتركة مع إمارة فينسيا. ساهم بصورة كبيرة في تطوير استراتيجية 'فصيلة كوبيتا'، وهي نواة وحدات من المقاتلين غير النظاميين توصلت فيما بعد إلى تشكيل قوات الأنصار. كان يُطلق عليه تحبباً لقب **كوبيتا المجنون**، وقد قُطع رأسه في كمين على متن سفينة نمساوية هنغارية.»

ومن هذه السطور المشجعة قفز رينو إلى حرف «ف» ليرى إذا ما كان يمكن لتكتيكات «فصيلة كوبيتا» الحربية التي نشرها سلفه، أن تساعده في معركة المواجهة التي تقترب ضد الأسطول الضخم الذي يقوده أميرال. وقاده بحثه بالفعل إلى «فصيلة كوكو» التي تُعرّف بأنها «طريقة غير نظامية تخوضها جماعات مقاتلة. أنظر مادة: كوبيتا، جوزيه».

كانت المكتبة الكبيرة مرتبة حسب التسلسل الأبجدي لعناوين كتبها. وتبدأ في الرف العلوي بحرف «أ»، وكتاب عن «عناكب أفريقيا»، حيث الصور التوضيحية تفوق الكتابة الوصفية رعباً، والصورة الأشد هولاً تُظهر الهيكل العظمي لزرافة بعد تعرضها لهجمة من غشائيات الأجنحة اللاحمة الرهيبة.

ورأى بفضول أن الكتاب الأخير يمثل الحرف «ن». وعنوانه «نباتات منطقة البحر المتوسط العشبية»، حيث يصفون نبتة إكليل الجبل من أجل تتبيل لحم الخروف والسمسم كوسيلة لتزيين المائدة في طبق الفروج المعد على طريقة كريسبانت التقليدية.

وبين هذين الحرفين وجد حرف «الحاء» في كلمة «حرب». وكان التنوع هنا كبيراً. وبإمكانه أن يختار بين عنوانين فرعيين: **حرب الأجناس وضد الحرب**، وهي قصيدة تدعو إلى السلام باللغة الماليسية من نظم الشاعرة مايا غوني، يقول البيت الأول منها: «الجرح تحت قلب المسيح له شكل ساحل ماليسيا؛ هنا حيث توغلت حربة الحارس القاسي». وبما أن حصيلة بحثه كانت صفراً («اللعنة، صفر ستكون حصيلة المتبقين على قيد الحياة يا رينو») ولتقديره بأن تلك الكتب، باستثناء المعاجم، لا تنفع

حتى كدرع يدسه تحت القميص، قرر الخروج إلى ضوء الشمس، حيث كانت أكثر الأسر حماساً تتوجه لاحتلال المقاعد الأولى في الكنيسة لمشاهدة تبادل خاتمي العروسين في زفاف القرن.

في تلك اللحظة بالذات سمع صوت دقات الناقوس الأربع، وقدر بأن النمساويين سيدخلون خلال ما يقرب من ثلاثين ساعة إلى وطنه «ليقطعوا قضباناً».

دقات الناقوس تلك ذكرته بأن الخوري، ومهما كانت مسوحه مرقعة ومتسخة، ومهما كانت ابتسامته بلا أسنان، إلا أنه يظل ممثل الفاتيكان في سواحل ماليسيا.

في الساحة الصغيرة قبالة الكنيسة، كان تورينتيس يراقب البرج بمنظار، متنقلاً بحركات مشبوهة وتلويات شاذة. ولدى إنزاله المنظار على كيسه الرمادي حك رأسه، الأصلع في الوسط وكثيف الشعر في الصدغين، بهياج تلميذ. وأوقف رينو من ذراعه ورسم ابتسامة بمشقة كبيرة:

- هل أنت من هنا أيها الشاب؟

- جميعنا هنا من هنا أيها السيد، لماذا تسأل؟

- ألم تلاحظ أن هذا الناقوس هو شيء غير ممكن؟

- وما الغريب في الناقوس؟

- إنه لا يستند إلى قوانين الفيزياء.

- إذا كان لا يستند إلى قوانين الفيزياء، فلا بد له من أن يستند إلى قوانين أخرى.

وواصل الشاب طريقه نحو المعبد دون أن يودعه. كان الخوري قد أغلق الكنيسة وأمر بأن يزين داخلها على شكل كعكة عروس. وقد عرف جيرونيمو كيف يحصل من أجل ذلك على كمية أقمشة كانت مرسلة إلى سلطان تركي.

توجه إلى مكتب الخوري ووجده يطلي شعره بمادة هلامية لاصقة. كان يرتدي ثوباً أبيض ناصعاً مطرزاً بخيوط مذهبة، وحين اكتشف وجود

رينو، تناول خرقة زرقاء ومسح بها يديه الدبقتين، وراح يرتب شعره الذي بلون العسل بضربات رجولية من مشط كبير.

– ما الذي جاء بك إلى هنا يا فتى؟

– أريد التكلم معك يا أبتاه.

– ليس باليوم المناسب للكلام. فبسبب حفلة زفاف السيد فرانك انقلبت كنيستنا رأساً على عقب. هل هناك من هو بحاجة إلى مسحة أخيرة؟

فقال رينو بمأتمية:

– لا. حتى الآن لا أحد.

– عد يوم الاثنين إذن يا فتى، وأحضر معك صورة للقديس روكي.

– سيكون الوقت قد تأخر كثيراً يوم الاثنين.

– وي، لهذا الكلام وقع أغنية شعبية نابوليتانية.

– هل قرأت جريدة **لاريبوبليكا** اليوم يا أبتاه؟

تناول الخوري مقصاً ناعماً ودنا من المرآة، وراح يقص شيئاً من خصلات الشعر الوارفة التي تليق بأسقف يوناني ولا تتلاءم مع الصرامة الرسمية لتسريحته الجديدة.

- يا للدور الذي لعبته يا رجل. لا بد أن النمساويين يبحثون عنك لإخصائك بظفرهم. - قال ذلك مبتسماً.

- الشيء الوحيد الذي فعلته هو الدفاع عن الوطن من غزوة أجنبية.

- إضاعة وقت! لقد مرت على سواحل ماليسيا كل أجناس وقبائل الكون منذ خُلق الإنسان، ووسط هذا الخليط لا يمكن لأحد أن يقول من هو أجنبي ومن هو غير أجنبي. الوطن هو ما يبقى، أي ما هو أبدي. وما يبقى هو السماء.

- أنت تقول هذا لأنك نمساوي.

- بني، أنا خوري. رجل من رجال الرب في الأرض.

- هذا يعني أنك ممثل البابا في سواحل ماليسيا.

- أجل، ولكن مع الاحتفاظ بالمسافة. فبيوس العاشر يأكل طيور السُمان وأنا آكل الديدان، ولكننا كلينا نتغذى على مخلوقات الرب.

جثا الفتى على ركبتيه، وأمسك بأذيال الثوب الفاخر الذي فصلته خياطات آليا إيمار ودُفعت تكاليفه من أموال جيرونيمو فرانك، ودس وجهه في القماش وراح يقبله بخشوع.

- ما الذي تفعله يا فتى؟ هيا، هيا، انهض.

ولكن رينو أبقى وجهه مغطى بمسوح الكاهن وتكلم بصوت مخنوق لم يسمعه الخوري إلا بصعوبة.

- ساعدني يا أبتاه. الواقع يُثقل وطأته بصورة مرعبة.

- بالطبع. الواقع هو وادٍ من الدموع. هذا جزء من تجارتنا يا بني. ولكن لا بد من نسيانه بين حين وآخر. ولهذا توجد الحفلات، والكرنفالات. لا يمكننا أن نطلي أنفسنا كل يوم بالوحل والرماد حتى رأسنا يا رينو كوبيتا.

دفع الشاب شعره المتمرد إلى الوراء، ثم نهض واقفاً، وأمسك بيديه الصليب الذي يتدلى من صدر الأسقف، وألصق شفتيه مطولاً بقطعة الخشب البائسة. ثم قال:

- ساعدني يا رب.

تراجع الكاهن متردداً.

- ما الذي تريده مني بالضبط يا فتى؟

- أن تكلم البابا وتطلب منه أن يوقف أسطول الإمبراطورية.

- أتريدني أنا أن أكلم البابا؟ إنه يجهل حتى وجودي في هذه الدنيا! أنا لا أساوي في نظر قداسته أكثر من آخر قملة في ذيل كلب.

- سيقتلون الجميع يا أبتاه. لا يمكنك السماح للذئب بأن يلتهم حملانك. لقد قلت إنك راعينا.

- ولكنني لست المتستر عليكم! لقد ذبحتَ يا رينو جندياً بائساً وبريئاً تماماً في السابعة عشرة من عمره.

- لا وجود لجنود بريئين يا أبتاه.

- إنهم ينفذون الأوامر!

- ولكن الرب منحنا العقل لنميز ما بين الأوامر العادلة والخبيثة. وإلا لماذا خلق الله الإنسان حراً؟

- اسمع يا استيبان، ليس هذا هو الوقت المناسب للجدل في الأمور اللاهوتية.

- لقد طلبت منك ذلك جاثياً يا أبتاه.

- وأنا سأصلي من أجلك جاثياً عندما يقتلوك.

- لستُ أنا المهم. سيقتلون كل رجال الجزيرة. أمجاد حفلة الزفاف التي تشغلك سيمحوها إعصار من الدم.

- سأصلي من أجلهم جميعاً. والآن، انصرف.

- لا أريد منك أية صلاة حمقاء. أنت رأيت أمي وهي تموت. وأقسمت لها بأن تعتني بنا.

- وأي براز تريدني أن أفعل؟

- أن تكلم البابا!

رجع الكاهن ثانية إلى المرآة: نظر إلى صورته الوقورة. الانفعال الذي سيطر عليه قبل دقائق تلاشى من ملامحه. الشعر الملتصق بالكريم الصمغي على الصدغين، والذي بدا له من قبل حركة تغنج مغتفرة، أثاره الآن كمكياج عازف كمان جهير أول. لماذا هي الحياة هكذا؟ تمر عقود ولا يحدث أي شيء في تخوم الكون هذه، اللهم إلا النمساوي بمتجره وفرع بضائعه المهربة إلى اليونان. وفجأة، في يوم واحد يتحول الجميع إلى هستيريين.

الشاب رينو ما هو إلا مجنون يستحق التقييد، وكبير المخبولين، والطبل الأكبر للمعتوهين، إنه ذئب مولود من القمر دون أي ذكاء آخر سوى الغريزة وورعه وحبه للمسيح، يهرع إليه الآن ناتفاً شعره مثل أيوب أجرب ويطلب منه أن يتدخل لدى البابا.

وقبل ساعة من ذلك، جاءته الجميلة آليا إيمار، تلك المرآة التي يصرخ جمال الكون فيها بفضائل الخالق، عروس القرن، وهرعت إلى حجرة الاعتراف وسط زحمة ظلال، لكي تسأله، قبل أربع ساعات من زفافها، إذا ما كان صحيحاً أن عقوبة الانتحار هي الجحيم، بغض النظر عن كون الأسباب عادلة وتقية.

- حسن، سأكلم البابا.

- متى؟

- غداً.

- غداً سنكون جميعنا ميتين. يجب عمل ذلك الآن.

- وكيف أفعل ذلك؟ هل تظن أن البابا يعطي رقمه للجميع؟

- لست أدري، ولكنني أملكه.

- تملك رقم هاتف البابا بيوس العاشر؟

قدم له رينو الورقة وبقي ينظر إليه برصانة ميت. تلمس الخوري قطعة الورق وكأنه يشك في ماديتها ثم لمس، ساهياً، بيده الأخرى التسريحة الجديدة.

- صحة الحبر المقدس متداعية. لقد تنبأ بأن حرباً عظمى ستندلع في العام 1914. إنه يكره الحرب مثلما يكره الحداثة، هل تفهم؟

- لا.

- هنا المشكلة.

- لست أفهم يا أبتاه.

- ربما كان هذا الهجوم على سواحل ماليسيا هو بداية الحرب الكبرى التي تنبأ بها البابا.

- هذا مبرر أكبر ليرغب في منعها.

- ويناقض نبوءته؟

أمسك رينو بقماش مسوح الكاهن الناعم وهزه بغضب بلغت شدته حداً جعل الكاهن يقع أرضاً عندما أفلته الشاب.

– أنتَ لستَ من رجال الرب. ما أنت إلا لعنة وضعها الشيطان هنا!

فهتف الخوري وهو ينهض مستنداً على إحدى يديه:

– النطق بهذه الهرطقات في المعبد يضمن لك أبدية مزدوجة في الجحيم.

– أتظن بأن البابا المقدس لن يكبح وقوع حرب لأنه راهن ويريد كسب الرهان! لا يمكن أن تخطر مثل هذه الأفكار التعسة حتى لفأر.

رطّب الخوري شفتيه وبينما هو ينفض صدر ثوبه تأكد من أن أصابع الفتى المجدف لم تترك أثراً عليه.

– حسن. هلم بنا لنتصل.

نزع بضربتين من يديه ثوبه الفاخر الجديد وجر رينو من مرفقه نحو المخرج. وعند الباب كان العجوز تورينيتيس ما يزال على اهتمامه ببرج الناقوس، وكان قد التجأ إلى ظل إفريز مثل قط يتأهب للانقضاض على عصفور ساه.

قبالة المرسى وجدا موظف التلغراف يحتمي من القيظ بدوار مروحة صغيرة تطير شعره باتجاه الجدار. كان منهمكاً بوقار في تنظيف ماسورة بندقية بخرقة مثبتة إلى سيخ معدني. وحين رأى رينو والخوري معاً بصق بتهذب على الأرض وعاد إلى عمله دون أن يحييهما.

قال الخوري:

– أريد إجراء اتصال دولي،

فأشار الرجل إلى الهاتف بذقنه ثم رفع ماسورة البندقية ليتفحص جوفها مغمضاً إحدى عينيه.

– اطلب رقم عاملة مقسم أغرام، وهي ستحول لك الاتصال.

– ما هو رقمها؟

– واحد.

رغب الخوري في أن يروي له طرفة عن تعقيد هذا العدد، ولكنه كبح نفسه على الفور عندما تذكر أنه كان قد قرأ النادرة نفسها في رواية

أخرى. أدار الرقم بحزم وواجه ملامح رينو الصارمة دون ابتسامة.

- يا آنسة: أعطني الرقم 5550، في مدينة الفاتيكان.

- أهو اتصال من شخص لشخص؟

- من شخص لشخص يا آنسة.

- ومع من تريد التكلم هناك؟

ملأ الخوري صدره وتمكن من تفخيم صوته وكأنه يكسوه بنبرة احتفالية، وقال:

- مع البابا.

- 27 -

سمع استيبان دقات الناقوس الأربع عندما توقف ليشرب ماء فاتراً من زمزميته بعد أن أنهكه الطريق الذي قطعه. لم يشأ التأمل ولو لثانية واحدة في هذا العائق الذي يعترض سبيله. فهو لم يعرف إلا أنه انطلق في طريق العودة إلى القرية مهرولاً بمرونة عدّاء ماراتوني وناضحاً العرق من صدغيه، من جبهته، من رقبته، من رئتيه، ومن قدميه. ركضَ أسرع من الثعالب والأرانب التي كانت تعترضه مندفعة من الآجام، وأفزع بصرخات قوية قطيع معز كان يجتاز الدرب الحصوي بأبدية ولا مبالاة، سحقَ سحلية مضطربة لكثافة النور الذي يسقط متحولاً إلى كتلة من الألماس، وبلل الصخور حين نثر بيده العرق الذي مسحه عن جبهته.

وفي اللحظة التي تقدم عليه فيها سرب من الغربان كأنه دليل من كهرمان أسود يحثه على الجري بسرعة أكبر، داهمته هلوسة هذيانية: رأى آليا إيمار تحتضر معلقة بالعوارض التي تثبت ناقوس المعبد، ولسانها يتدلى مثل بندول الناقوس الصدئ.

تخيل نفسه إلى جانبها يقطع بأسنانه الحبل الذي يضغط على عنقها، بينما أصابعه المحمومة تقلل من ثقل الجفون على العينين الغائمتين والغائبتين عن الدنيا.

الضيق والغم الذي سببه له الجري جعل المسافة تبدو لا نهائية، ولكن ساقيه كانتا تمضيان أسرع من إدراكه، وبعد ساعتين تمكن من سماع النغمات المتقطعة لأول ألحان التورومبا وسط دوي ارتطام البحر بالصخور. ومع ميلان المساء هبت نسمة قوية أصلحت نشاط قلبه الجامح. إنه يريد مواجهة الأسوأ ثم التصرف فيما بعد بذلك الاندفاع الذي يكرهه ويقدره في الوقت نفسه في أخيه رينو: **العمل**.

أتكون هذه هي كلمة السر لفهم الحياة؟ تدريب الجسد ليكون على الدوام سابقاً للأفكار؟ وطالما أنهما ينحدران من الأم نفسها ومن حنانها

الغزير، فلماذا يغرق هو في المفترقات دون أن يحدد اتجاهاً، بينما لا يشغل رينو ذهنه إلا في إخفاء آثار أعماله غير المشروعة؟

لم يخرج بشيء واضح من حبه لآليا إيمار بأسلوب الحياء الرتيب. لقد راح ينسج طوال سنوات شبكة أحلام يشعر فيها بأن الفتاة له حسياً بوهم كامل، ولكنه يتفادى في الوقت نفسه هذا الغم الذي يقدمه الواقع الأرعن.

كان آخرون يحيطون بها في المرفأ ويقبلون ركبتيها، يعرضون عليها ألعاباً تُغْمَضُ فيها العيون لكي يسرقوا منها قبلة، يطوقون خصرها في حفلات الرقص، ويلمسون بأصابعهم المنتصبة حلمتي نهديها، ويضغطون على أضلاعها الهشة بمعانقات رجولية خشنة بينما أسنانهم تلمع شبقاً.

ووجد في الساحة مرة أخرى الدليل على تفاهته. لقد غادر القرية إلى نيويورك وليس هناك كما يبدو من عرف بالأمر. كان الشباب يتداولون زجاجات السليبوفيتش بمهارة عدّائي الحواجز، ويلمّحون بنوادر مزدوجة المعنى إلى البدلات التي استعاروها من أقربائهم في أغرام لكي يظهروا على مستوى الحفلة. وكانوا يبتدعون قبل كل شيء نهايات متخيلة لليلة زفاف فرانك وآليا إيمار، كما لو أن عشر سنوات من الأقاويل والخرافات عن ليلة عرس ماتاراسو قد بدأت انبعاثاً صاخباً هذه العشية.

شق استيبان طريقه نحو الكنيسة وأدار مقبض الباب البرونزي دون أن يُحدث صوتاً. كان الخوري جاثياً، رأسه متدل على صدره، قبالة مصلوب غير متقن من صنع الحرفية المحلية. ووسط الضجيج الصاخب الذي تختلط فيه ألعاب الأطفال مع غناء السكارى وصافرات البواخر التي اجتذبت الفضوليين من كوريتشا، كان ظهر رجل الدين يبدو ثقيلاً في وحدته وصمته. فضل ألا يقطع عليه صلواته، ومضى على رؤوس أصابعه إلى الجزء المجاور للمصلى. ومن هناك دب حتى السلّم الحلزوني الذي يؤدي إلى البرج لكي يتجنب أن يكتشف وجوده السدنة الذين حولوا الكنيسة الصغيرة إلى كاتدرائية من نور.

واصل استيبان صعود الدرجات إلى أن غرق السلّم في الظلام، وعندئذ تلمس الجدران وكأنه يعرفها عن ظهر قلب. توقف في إحدى اللحظات، وفكر بأنه ربما كان من الأفضل عدم المواصلة. منذ وفاة أمه لم يحدث شيء مهم في حياته، وها هما الحب والموت يزمجران فيه الآن بالتسلط نفسه. إذا ما كان تخيله لآليا إيمار صحيحاً، وتحولت صورة

الموت إلى مادة الموت، فإن هذه اللحظات ستكون هي الأخيرة في حياته. إنه يعرف صخرة حادة حيث يمكنه أن يدق عنقه ويبتلعه البحر في إغفال أبدي. بعد شهر من ذلك، وفي إحدى الليالي في الحانة، قد يسأل أحدهم ضجراً عن الأخوين كوبيتا فيرد عليه النادل بأن استيبان الشاب ينوّم الفتيات النيويوركيات بنظرته الزرقاء. بينما تكون غربان البحر في الحقيقة قد نقرت عينيه ويكون جسده خامداً على الصخور البحرية، عارياً وخامداً.

بقي هناك مقطع صغير للوصول إلى الرهبة والأمل: صعود السلّم الخشبي، شبه السري، المؤدي إلى الحجرة حيث التقى بها آخر مرة. هذا الحيز الذي لا يجرؤ أحد على انتهاك حرمته خوفاً من الخفافيش والغوامض الطبيعية والغيبية التي تثبت الناقوس بصورة غير محتملة ولا يمكن تفسيرها. هناك في الأعلى تُحسن السمندرات انتظار الشمس، وتبدو الجداجد مجمدة في صمت عميق. أعلى مكان في القرية، الذي يبهر الملاحين في البحر بتوازنه الشبحي، كان في الوقت نفسه الأكثر حميمية، الكهف المرتفع للقلوب الجريئة. حين تقدم على درجات السلم عرف أنه يداهم حيزاً كانت وحدته فيه مستبعدة، فثمة شيء غير محدد وغامض يحكم في ذلك الحيز.

عندما ميز آليا إيمار في الزاوية التي يشكلها جدارا الطين والكلس، عارية، ويداها على رأسها تثبتان الشعر لتحولا دون تهدله على نهديها، أصاخ السمع متوسلاً أن تتنفس. سواء أكانت حقيقة أم وهماً، وحتى لو لم تستمر حياته لأكثر من دقيقة، فقد أقنع استيبان نفسه بأن هذه هي ذروة حياته. هناك ربٌّ مضطرب وتائه يقدم إليه العدم والوفرة في إيماءة واحدة.

- لماذا تأخرت كثيراً يا تيبي؟

هز الفتى كتفيه، ثم فرك رموشه بإبهاميه بشدة. تقدم نحو الفتاة ووضع يده على كتفها الأيمن، المتجمد.

- كنتُ بعيداً.

- لماذا؟

- هربت.

ابتلع استيبان لعاباً، واحتضن نفسه محتمياً من قشعريرة مفاجئة.

- في أي ساعة العرس؟ - سأل وهو يحس بأنه أكبر أحمق في الدنيا.

باعدت آليا إيمار ما بين ركبتيها. ثم وضعت يدها اليمنى على بطنها، وحملت عطرها الرطب إلى وجنة الفتى ووسمته بندبة من سائلها.

- انظر إلي يا استيبان.

وفي العتمة الملتبسة، أمسكته الفتاة من ذقنه وأجبرته على أن يواجه بعينيه الزرقاوين الانعكاس الخفيف الذي يأتي من المشاعل.

ألح الشاب:

- في أي ساعة العرس؟

دفنت العروس يديها في شعر الفتى، وشعثت جذوره، ثم قبّلت بعد ذلك جوزة عنقه التي تتقافز خارج كل سيطرة.

أبعدته قليلاً، طلت الآن جبهته بإفرازات مهبلها ورسمت دائرة فوق الحاجبين البحريين اللذين يؤطران العينين وكأنها تصدر إليه أمراً خطياً لم يصب الفتى في فهمه. عندئذ وسعت ما بين فخذيها أكثر، وأخذت قطرة أخرى من سائلها، وبالتصميم المتكبر لذقنها التي تتحدى النجوم، دفعت ذقن استيبان دون مقاومة نحو بطنها، وقادت شفتي الفتى الممتلئتين بدقة إلى بظرها. كانت ملامسة القبلة كافية لأن تشعر آليا إيمار بأن كل عصب كان متصلاً بالشفتين المتميزتين.

عرف استيبان حتى أقصى أجزاء جسده بأنه لا يفهم. وأن كل شيء كان مكوناً من تعقيد لا يمكن الإحاطة به، ولا يمكن لذكائه أو إرادته أن يدركاه. وضعت آليا إيمار الآن يديها على وجهه وما بين فقرات أصابعها المشدودة، راحت تتفحص مبتسمة أعماق عينيه. ارتاب بغريزته التي تطالبه بالعنف، بأن يهوي بعضوه دون مزيد من التسويف ما بين الفخذين المضمخين بالدفء، ولكنه بقي متيبساً، ومرتبكاً في تردده.

من أجلها غادر الجزيرة، ومن أجلها رجع. من أجلها اعتبر الموت رفيقاً مرغوباً، ومن أجلها يكبح الآن منيه الشرس ودمعته المتوجعة.

قال بصوت أبح:

- أوضحي لي.

فهمست آليا إيمار:

- الآن.

- 28 -

تفحص المدافع وتأكد من أن القذائف ستكون في متناول يد البحارة في حالة الاضطرار إلى المناورة التي يدعوها هو: «ليلة الكرنفال»، هذا يعني إطلاق النار من جميع بطاريات المدفعية في وقت واحد، ودون تصويب، بهدف جعل الهلع يبدد أي شبح للمقاومة.

ولأنه أميرال أخوي وديمقراطي فقد تحدث إلى كل فرد في الطاقم، واستفسر عن العشاء الذي تناولوه هذا المساء في الساعة السادسة، بالتوقيت النمساوي، وأراد أن يعرف إذا ما كان لحم الخروف المشوي قد أُعدّ بالطريقة نفسها التي يُعدّ بها في بيوت أمهاتهم.

وبالرغم من أن المعركة ستكون سهلة إلى حد مشين، فقد جمع تحت القمر الفضي الناقص كل أفراد الحملة وألقى عليهم خطبة تحضهم على القتال في سواحل ماليسيا، مُذكّراً بصوته السائل بالأمهات المفجوعات اللواتي «تيتمن» من أبنائهن، أو «ترملن» من فراخهن، أو بقين وحيدات مثل راية موطوءة «في ماخور الحياة».

ولأنه كان مصمماً على رفع معنويات قواته فقد أمر بطبع مئتي نسخة من مقالة بافلوفيتش في كوريتشا من أجل أن يتبل بذلك غضب البحارة الذين لا يرغبون إلا في رد الصفعة إلى أتباع رينو كوبيتا، قاتل الأبرياء، الموتور في كرهه للأجانب، فأر الموانئ، الكلب الأجرب والمقمل، الذي يحرض الماليسيين بشعاراته البدائية ضد التقدم، والثقافة، والروحانية التي تقدمها لهم الإمبراطورية عن طيب خاطر.

وبعد انتهاء الخطبة انسحب إلى قمرته. فخلع جزمته، وفك أزرار بنطاله، وتعرى، ثم ملأ كأساً من الكريستال حتى حافته بجرعة من الكونياك الفرنسي. لقد كانت تلك هي ساعة التأمل في آفاق التقاعد: سيوزع فحولته ما بين إليتي زوجته وفرج العشيقة بشهوانية متساوية.

وفي تلك اللحظة ظهر مرافقه، وهو ضابط مخنث معين من قبل وزارة العلاقات الخارجية؛ أو «العلاقات اللاحقة»، حسب تعبير مجازي ثاقب كانت الصحافة تسخر به من النبلاء المنحدرين الذين ليس لهم سياسة دولية، ممن يطلقون الشتائم والإهانات ضد العالم بتنطُّع الحقوقيين المدعين، ويكون على الأسطول والجيش بعد ذلك أن يعيدا الوضع إلى نصابه بقذائف حقيقية.

زمجر به دون أن يستر نفسه:

- أدخل أيها الجميل.

استخدم الضابط المرافق يده كمروحة بينما هو متردد بين اعتبار ما قاله قائده ملاطفة أو ازدراء. وبانقلاب عجيب تحولت ابتسامته إلى حياء، ثم إلى شحوب بعد أن ابتلع ملء فمه من اللعاب. كان ظهور خصيتي الأميرال الفخمتين بشعرهما المتموج قد أغواه، ثم نفَّسه بمذلة.

- عذراً أيها الأميرال. لقد قطعت عليك استراحتك المستحقة.

- لا تقلق، كل ما هنالك أنني كنت أحك خصيتي.

- إذا ما سمحت لي بكلمة إطراء يا قائدي، فإنهما خصيتان عظيمتان.

- إنني أقدر هذا الإطراء لأنه آت منك. ما الذي جاء بك إلى هذه القمرة البائسة أيها الضابط المرافق؟

لمس الرجل زر ياقة عنقه وكأنه مفتوح ويريد إغلاقه ليعطي مزيداً من الثقل لكلماته، وقال بهمس غامض:

- هناك شخص ما في حجرة التلغراف يريد التكلم مع سيادتك.

استمتع الأميرال مولينهاور بالحركة الأنثوية التي يدس بها مرافقه يديه بين فخذيه مثل صبية توشك أن تبول من الانفعال. وزمجر قائلاً:

- ومن هو هذا الشخص؟

- إنه البابا يا سيدي الأميرال.

- هل أُصبتَ بالجنون أيضاً أيها المخنث الكبير؟

- أقسم لك بالرب. قداسة البابا ينتظرك على التلغراف.

زرر مولينهاور فتحة بنطاله وشرب في رشفة واحدة الكونياك الذهبي

الذي كان قد فكر بأن يشربه قطرة قطرة، من إلية حلمية متخيلة إلى أخرى.

- إذا كان ما تقوله مزاحاً أيها الياور، فيمكنك أن تبدأ بوداع منصبك وخصيتيك منذ الآن.

- إنه البابا يا سيدي! البابا بيوس العاشر العذب يريد التكلم معك.

كان عامل التلغراف في القاعة يتأمل المبرقة شاحباً، يداه متقاطعتان وهو يفرقع فقرات أصابعه دون توقف.

وقف متأهباً أمام مولينهاور وأشار إلى جهاز مورس.

- البابا بانتظارك يا سيدي.

- قل له إنني موجود هنا.

نقر الضابط المعلومة وتلقى الجواب على الفور.

- البابا يقول إنه يطلب من الرب أن يباركك أنت وبحارتك.

- قل للبابا إنني أباركه هو وكل رعيته.

- البابا يرجوك أن تعذره لتدخله في شؤون إنسانية، ولكن دون أن تنسى أن يسوع كان إلهاً جعل من نفسه بشراً.

- قل للبابا أن ينطق البذرة التي يريد قولها.

- سيدي؟

- قل للبابا إنني أنتظر أوامره لأكون في خدمته.

- يقول البابا إنه يعرف إنك تتقدم نحو سواحل ماليسيا بنية الحرب.

- قل للبابا إنني أرى أن النمسا تحتفظ بثقتها به بكشفها له عن سر بهذا الحجم من أسرار الدولة. فبفضل الرب والنمساويين الذين دعموه في مجمع الكرادلة عام 1903 صار هو اليوم الأب المقدس وليس خصمه في ذلك الحين الكردينال رامبوليّا.

- يقول البابا إنه لن ينسى هذا الفضل العظيم الذي لم يطلبه قط. ويقول البابا إنه حين يرى كيف تمضي الأمور في العالم، يتمنى لو أنه لم يغادر قط قرية رييس، مسقط رأسه، وأن يكون ساعي بريد هناك مثلما كان أبوه.

- قل للبابا إنه تصرف كبابا عظيم، وبعد بلوغ الأمور هذا المستوى

صار الوقت متأخراً جداً للتراجع عن البلاهة. وقل له إن هذا الكلام الأخير هو مجرد مزاح.

- يقول البابا إنه ضحك بشهية ويذكرك بأن القديس متّى يقول في الأناجيل، إنه يجب العطاء بسعادة لأن الرب يحب من يعطون وهم سعداء.

- قل للبابا أن يقول لنا الآن ما يريد قوله.

- يقول البابا إنه يريدك أن توقف الأسطول وأن تعود إلى قاعدتك. ويقول البابا إن أهالي جزر سواحل ماليسيا هم كاثوليك طيبون ولا يستحقون أن يكونوا ضحية مجزرة.

- قل له إن أولئك الكاثوليك الطيبين ذبحوا عشرة من شباني، إنهم كاثوليك ممتازون وجزارون قساة في الوقت نفسه.

- يقول البابا إنهم لم يفعلوا ذلك بسوء نية.

- قل للبابا إن موتاي ينعمون إذن بصحة جيدة.

- يقول البابا إن الوطنية تدفع الشباب إلى تجاوزات لا يمكن لأي سبب أن يبررها.

- قل للبابا إن الإمبراطور هو الذي يقرر من هو الوطني ومن هو ليس كذلك.

- يقول البابا إنه مجرد خادم بائس لإمبراطور واحد هو سيدنا يسوع المسيح.

- قل للبابا أن يعذرني على هذه العبارة المبتذلة، ولكن يجب إعطاء قيصر ما هو لقيصر.

- يقول البابا إنه سيصلي إلى الرب كي يليّن قلبك.

- قل للبابا إنني أثمن عالياً النصيحة التي لم أطلبها منه.

- يقول البابا إنه فهم السخرية. ويقول البابا إنه ربما كان بإمكانك استبدال العقاب الجسدي للماليسيين بعمل آخر ذي طبيعة رمزية. أي عقاب أخلاقي.

- قل للبابا إذا ما كان يعرف حرباً تم كسبها بالأخلاق. ولا حتى الحروب الصليبية نفسها.

- يقول البابا إنه يعرف بأن الرب سيلهمك.

- قل له إنني قد تشرفت...

وكان مولينهاور على وشك أن يقول «...بسماع صوته»، ولكنه صمت حين رأى كيف كان عامل التلغراف ينقر جهاز مورس. دار على عقبية ووجه زمجرة إلى مرافقه، ثم استلقى على سريره بمزاج معكر دون أن يخلع جزمته. وشرب وهو متجمد المشاعر كأساً أخرى من الكونياك، وأمسك شعرة تطل من أنفه وراح يداعبها بينما هو يجمع شتات انطباعات متفرقة.

لم ينتزع قط تلك الشعرة الوقحة لأنه يعتبرها مساعده في شؤون التأمل الطارئة. فوفق ما تمضي به الأمور، سينتهي الأمر عاجلاً أو آجلاً بضم سواحل ماليسيا إلى إيطاليا، وما يريد البابا المحافظ عمله في الواقع هو إنقاذ إيطاليين مستقبليين من الموت. ومثل هذا المسعى الذي يقترحه عليه، إذا ما أحيط بدعاية مناسبة، فسيساوي ذهباً بالنسبة إلى سياسة الفاتيكان في الظروف التالية.

«عمل ذو طبيعة رمزية»، قال ذلك لنفسه.

- 29 -

بالرغم من أن جيرونيمو كان قد اختلس من متجره بالذات علبة شفرات حلاقة جيليت زرقاء في اليوم السابق، وبادر في الصباح إلى حلاقة ذقنه بدقة، إلا أنه حين حلّ موعد الذهاب إلى الكنيسة، لمس ذقنه ساهماً، وأدرك أن لحيته قد اسودت ثانية بشعر عنيد. قرر أن يفتتح شفرة جديدة، مع أن الدعاية التي يعلقها ضمن إطار في الأوربي تؤكد جازمة بأن شفرة واحدة من جيليت قد حصدت بفعالية تامة ذقون عشرين حلاقاً. ويظهر الحلاقون في الإعلان بذقونهم الملساء واللامعة مثل حوجلات زجاجية. وبينما وجهه مطلي برغوة الصابون قبالة المرآة، شعر بأنه فريسة إحساسين متناقضين: إحساس سعيد يخبره بأن القيلولة التي نامها كانت عميقة إلى حد أن زرعاً كاملاً قد نما في وجهه خلال هذه الفترة؛ وهكذا اعتبر أن الهدف من تلك الراحة قد أُنجز. فقد كان أبوه يقول: كل ساعة من القيلولة تلقي عن كاهل المرء خمس سنوات. وتخلصه من عقد من السنوات بقيلولة من ستين دقيقة ليس بالرقم القياسي الصغير في عشية ليلة زفافه.

لمس ذقنه المحلوقة مرتين، وارتدى سترة الفراك، وتأكد من وجود خاتمي الزفاف الفاخرين في جيبه الداخلي، وغرس في عروة السترة الوردة الصفراء التي تقيه من أي شر. وفي أثناء مروره من حجرته لمس مرة أخرى السطل الفضي البديع الذي يبقي زجاجة الشمبانيا منتصبة وسط قوالب من الثلج، ولمس كذلك الكأسين الفينيسيين المصقولين والطويلين اللذين سيشربان بهما نخباً سيقودهما إلى شبق الحب. كانت أخته تنتظره عند بوابة الخروج وقد حملت له قبعته العالية بينما راح يغلق متجره إلى وقت غير محدد.

- هناك شيء لم تخبرني به - قالت باولا دون أن تنظر إليه بينما هما

يمشيان باتجاه المعبد بين الفضوليين الذين كان جيرونيمو يحييهم ملامساً طرف قبعته.

فرد عليها الرجل دون أن يلتفت إليها:

- هناك الكثير مما لم تخبريني أنتِ به.

- بعد كل عرس وليلة زفافه المنهكة، هناك عادةُ شهرِ العسل المعروفة في العالم بأسره. فهل سيكون ثمة شهر عسل بعد هذه الحفلة؟

- بالطبع.

- وهل يمكنني أن أعرف إلى إي وجهة سيكون؟

- في أي اتجاه؟ التنقل من مرفأ إلى مرفأ حتى نيويورك.

- إنها مكان أكثر لياقة من هذه الأراضي الرملية على الأقل.

- وأكثر سكاناً وبعداً عن الحرب العالمية.

- عن أية حرب تتكلم؟

- الحرب التي تنبأ بوقوعها البابا في عام 1914. أنصحك بأن تعدي بأسرع ما يمكن حقائبك التي من جلد التمساح وتغادري أوربا.

- آه، لا! كل ما هو غير أوربا همجي.

- تسعدني جداً هذه العبارة شديدة الأرستقراطية. اطلبي نقشها على حجر.

- عزيزي، إذا ما اندلعت هذه الحرب فسوف تقاتل النمسا إلى جانب ألمانيا. وستمتد الإمبراطورية حتى البلدان العربية.

فابتسم جيرونيمو:

- سبب وجيه للهرب نحو الغرب.

- ومتى تفكر أن تعود؟

- إنني متردد ما بين موعدين يا أختاه.

- وما هما؟

- مطلقاً وإلى الأبد.

حيت موجة من التهليل جيرونيمو لدى اجتيازه الساحة. وتزاحم وراءه أشد الشبان تهوراً ووقاحة ممن يريدون أن يكونوا في أول الصفوف في المعبد أثناء تبادل الخاتمين، ولكي يروا عن قرب قبل كل شيء، القبّلة التي سيتبادلها العروسان. وكان الشعب المالیسي يشعر الآن بأن زفاف آليا

إيمار ينتمي إليه مثلما هي مآثر أبطاله الرياضيين.

كان ثمة شيء سحري في الحفلات الكبرى يُولّد، أو يُحدث لديهم الإحساس بالمشاركة. وكان شبان الكمين الذين ارتدوا بناطيل رمادية وقمصاناً بيضاء، يبدون وكأنهم يحدسون تلك العاطفة بدرجة عالية. في البدء مضوا يطوفون في البار محاطين بهالة ذلك التواطؤ والحقد اللذين يسببهما الموت، متلهفين لنسيان الدم أكثر من تلهفهم إلى المجد الذي تكللهم به ابتسامات الفتيات، ولكنهم عندما رأوا ظهور رينو كوبيتا، بعنقه المتيبسة افتخاراً، مرتدياً ملابس فاخرة، وشعره مروض ببرينتين كثيف، ووجه إليهم غمزة مرحة توحي بالإفلات من المجزرة الوشيكة، هرع المحاربون المرتجلون لسكب دلاء من الماء على أنفسهم، وحلقوا ذقونهم القاتمة بشفرات آبائهم، وتقبلوا بنظافتهم تلك دعوة أنطونيو ومجدلينا لاحتلال موقع الشرف عند عتبة الكنيسة. وكانت حركة الحموين تلك تضمن لهم مجداً متواضعاً وصامتاً فضلاً عن تأييد تكتيكي لأعمالهم.

أوقف جيرونيمو فجأة مسيرته البطيئة، نزع قبعته، ومسح بكم سترة الفراك العرق البارد المفاجئ الذي جرح جبهته. السنوات العشر التي كسبها في القيلولة بدت وكأنها تذوب في هذا السائل المالح الذي انزلق حتى فمه. وفي تلك اللحظة الحاسمة والمشؤومة بالضبط، أطلق العجوز تورينتيس كل ضوء اختراعه باهظ التكاليف لكي يحمم الساحة بفوران من نيترات الفضة التي تناثرت مثل فتات من الجليد على المدعوين مسببة لهم الذعر في أول الأمر ثم الحماس بعد ذلك. ووسط التصفيق قال جيرونيمو بصوت أبح:

- آليا إيمار غير موجودة.

بقيت أخته متصلبة، وحالت دون أن تحمل كلماتها أدنى قدر من الإيحاء:

- واستيبان غير موجود.

ولكن حيادية أخته المتكلفة لم توقف تألم الرجل. مسح دموعه الأولى باليد نفسها التي مسح بها العرق عن جبهته.

- ما الذي فعلتِه أيتها البراز؟

فقالت باولا:

- لا شيء.

- أي براز فعلتِ يا براز البراز؟!

انفصلت مجدلينا وأنطونيو عن الجماعة وقبلا خديّ العريس. وتحت ذلك الضوء المرمري بدأت الكاميرات بالتصوير، فأبعد جيرونيمو المصورين النهمين مغطياً وجهه بالقبعة.

- لقد فقدنا أثر آليا. - قال له أنطونيو ذلك وهو يمسك بيديه.

تلمس جيرونيمو بتلات الوردة الصفراء كتعويذة لتفادي هذيان التخيلات التي تبهر بصره الآن: فستان زفاف حبيبته يطفو في بحر أزرق، ونهداها قضمتهما السرطانات وعيناها الواسعتان نقرتهما الغربان البحرية. وقال لنفسه: «ثانية بعد ثانية تتدلى الحياة ما بين الخديعة والعبث. - وفكر:- ولكنها لم تكن سوى رؤيا». لن يسمح للظلمة بأن تنتزع منه ليلة سعادته.

توقف المصورون عن التصوير وبقي الخوري مذهولاً حين فتح باب المعبد ولاحظ ذلك الصمت المخيم. نظر إليه تورينتيس حائراً وأومأ إليه الأب بذقنه لكي يخفض الضوء.

- آليا إيمار؟

ازداد عمق الصمت درجة أخرى. كان ثمة شيء طافٍ وسريع يبدل حرج موقف الناس. والبحر وحده هو الذي واصل إنجاز روتينه بدقة.

نادى العريس ثانية:

- آليا إيمار؟

وقسمت القرية توقعاتها ما بين الريبة والأمل. إذا لم يأت رد على النداء الآن، فإن تبادل النظرات سيكون النذير بهروب بطيء. سيعودون إلى بيوتهم دون صوت ودون عتاب. هناك اختلاف بينهم وبين النمساوي، ولكن وقوع حادثتين مؤلمتين في قرية صغيرة يمحو التباين ويعمق الأخوة. لن تكون هناك وليمة فاخرة، ولا رقص تورومبا، ولا شمبانيا، وإنما الوحدة الفظة لإخفاق آخر، وشراب السليبوفيتش المحلي في ظلال المطابخ.

وفي هذه اللحظة بالذات، حين كانت المعنويات تتوافق مع التوقعين

المتناقصين، أضاءت لطخة بيضاء برج الناقوس. وكانت مجدلينا - غريزة الأم كما ستقول الأسطورة - هي أول من رأتها، ومدفوعين بنظرتها رأى جيرونيمو وأنطونيو في ضباب الصمت الحضور الواقعي للفتاة.

– جيرونيمو. – قالت الفتاة دون أن ترفع صوتها.

غطت باولا عينيها بمنديل وخفضت بصرها إلى الأرض. لم تكن هناك سوى ثلاثة أشجار في الساحة، وثلاثتها تحمل اسم جوزيه كوبيتا.

صاحت باولا:

– يا للرعب. هذه الصغيرة ستنتحر.

تقدم العريس بذراعين مفتوحين خائفاً من حدوث الأسوأ. فلدى أخته غريزة في التنبؤ بالمصيبة تشكل تعويضاً موازناً لكل نواقصها الأخرى.

مع نسيم الليل كان تول طرحة العروس يرفرف في البرج على وشك الإفلات ويبدو مثل راية مسكوبة ما بين النجوم.

– إننا ننتظرك يا صغيرتي. جميعنا هنا بانتظارك.

وأحاط العريس حمويه بذراعيه وعرضهما عليها كدليل قاطع. فقد فكر في أنه إذا كانت الفتاة تنوي إلقاء نفسها ودق عنقها أمام الجميع، فإن العواطف الأسرية ستمنعها من ذلك. إذ أن لآليا إيمار قلباً حساساً لا يمكن لها معه أن تسبب مثل هذا الغم لأبويها.

– مرحباً يا بابا. – قالت من أعلى البرج.

– مرحباً يا صغيرتي.

– مرحباً يا ماما.

– مرحباً يا حبي.

– البرد شديد هنا في الأعلى.

– إنها أعصابك يا ابنتي.

– كما لو أن البرد في الداخل، أليس كذلك؟

– هذا ما عنيته. إنها الأعصاب.

وضع جيرونيمو قبعته العالية في يدي مجدلينا، وسترة الفراك في يدي أنطونيو، وأمسك بين سبابته والإبهام بالوردة الصفراء. وصاح بها:

– سأصعد إليك.

وسع الخوري فتحة الباب الذي يخفي سر زينته الاحتفالية وأتاح

للعريس أن يتقدم حتى السلم الحلزوني. ومع صعود كل درجة كان جيرونيمو يخشى سماع ولولة رعب الانتحار يطلقها الناس في الفناء. وضع الزهرة الصفراء في فمه لكي يستند على الدرجات الأمامية ويرتقي السلم بسرعة أكبر.

حين صار في القمة، رأى آليا إيمار تقف مستندة إلى الأحجار ورأسها يستند بعذوبة إلى كتف. وأمامها، بيدين معلقتين ما بين الركبتين، كان استيبان كوبيتا ساهماً في غيبوبة.

«كل شيء يحدث لي أنا»، قال جيرونيمو لنفسه وهو يشعر بقشعريرة الغيرة في هذا الغضب الذي يُغلق شريان قلبه وفي الانتصاب النزق لعضوه. ففي ليلة عرسه، أسلمت هذه الآنسة، هذه العاهرة الموقرة، نفسها حتى أذنيها لهذا الخنزير الذي ينظر إليه الآن مثل كلب يتيم ينتظر سوط جلاده.

- تعالي. - قال لآليا إيمار وهو يمد إليها يده، ثملاً في ما أسماه في أول الأمر مذلة، ثم صفاقة بعد ذلك، ونضوجاً على الفور.

جرجرت الفتاة نفسها بوداعة حتى جسده. أحاطها جيرونيمو بذراعه وبقبلة توغلت عميقاً في شعرها حتى أحس بدفء جمجمتها. وهمس في أذنها:

- لقد تبدل الحظ. فقد عثرتُ عليك.

أمسكها بقوة، وتقدم إلى الفجوة التي بين البرجين، وألقى بالوردة الصفراء في الفراغ.

- منذ الآن فصاعداً سأتاجر بالوقائع. بالوقائع المتواضعة. لم يعد بإمكان أي تميمة أن تحسن حظي. سآخذ ما تقرر الحياة تقديمه إلي وكأنني سأموت في أي لحظة.

وقبل أن يبدأ النزول توقف ليتفحص استيبان محاولاً أن يدفعه احتقاره له للهرب إلى الأبد. وكان رد فعل الفتى الوحيد هو إزاحة خصلة شعر متمردة عن جبهته، ثم وضع يديه بين ركبتيه بالسلبية المثيرة للقلق لرجل في حالة غيبوبة. ومع ذلك، فقد افترض جيرونيمو للحظة، وليس دون شيء من الرضا، بأنه قبل آن يصل إلى المذبح لكي يرتبط عبر

الخاتمين المتينين مع آليا إيمار، سيكون الوسيم استيبان هو من سيدق عنقه بالقفز في الفراغ.

أضيئت أنوار العبقري تورينتيس في محيط المعبد، وأعيد إشعال المشاعل، وجرى تنظيف العروس بسرعة، ودُلكت اللطخات عن ذيل ثوب الزفاف بماء الكولونيا، وبدأ ضبط الأرغن في تمهيد للحن «**آفي يا مريم**» لغونو، وجرى توزيع بطاقة تذكارية تحمل تاريخ حفلة الزفاف وصورة تمثال للقديس روكي، وفتحت أبواب الكنيسة على مصراعيها وكان أول الداخلين هم العروسان وأقرباؤهما عبر الممر المفروش بسجادة حمراء، يتبعهم قباطنة السفن التجارية، ومستخدمو المتجر الأوربي، وحملة لهيب الماغنيزيوم لإضاءة التصوير الفيلمي، والعشرة المشهورون (الذين منحتهم القرية ضمناً هذا الامتياز)، ونقابة المهربين، وقنصل هنغاريا في كوريتشا والسيدة زوجته. وبعد ذلك مباشرة جاء جميع أهالي الجزيرة ما عدا عامل التلغراف وحده الذي استخلص نتائجه الخاصة من الوساطة ما بين مولينهاور والبابا، واختار أن يلتحق كوقاد في سفينة ترفع العلم الإنكليزي متوجهة إلى ميناء داكار.

وبينما هم يتقدمون من المنصة حيث ستجري الطقوس، سمع المدعوون القريبون هذا الحوار بين العروسين:

– هل تحمل معك ولاعتك الذهبية؟

– أجل، إنها معي.

– أيمكنك أن تعيرني إياها لثانية واحدة؟

– يا ملاكي. قريباً سيكون في بنصرك البديع خاتم من الذهب يزن أكثر بكثير من هذه الولاعة.

– أرجوك يا جيرونيمو.

كانا قد وصلا إلى الخوري، وبمناورة بارعة لم يلحظها سوى مساعد القسيس، وضع العريس الولاعة ما بين حزام الحرير والخرز الذي يزنر خصر محبوبته.

تضمنت الموعظة ازدراء المدينة وامتداح القرية الذي لا بد منه في طقوس الزفاف والعماد والجناز. ومن سموات القلوب الريفية البسيطة

التي تحافظ على نقاء أرواحها، ألح على أن الرب قد اختار سواحل ماليسيا ليهدي إليها معجزة برج الأجراس هذا الذي يذهل أبرز العلماء (وصوب بصره في هذه اللحظة إلى المخترع تورينتيس)، وفسر هذه اللفتة من الرب على أنها إشارة مجازية إلى أنه يمكن للإنسان المؤمن أن يحرك جبالاً. حتى هنا لم يكن ثمة ما يقطع سلسلة العبارات المألوفة التي يتبل بها الأب طقوس كل زفاف.

ولكنه حين وصل إلى العروسين المحددين الجاثيين لتلقي مباركة الرب، أضاف أن «هذا الرباط المقدس» هو خاتمة حرب طويلة وخفية ضد الخرافات الوثنية في العداء للأجانب. وقد احمر وجه جيرونيمو عندما قال الأب، بوقفات محسوبة، إن ابن الرب كان أجنبياً كذلك بين البشر، وإن ميزته الإلهية هي التي قادتهم إلى صلبه. وقد كان عذاب ابن الرب أسهل (وهنا أدرك جيرونيمو فحوى العبارة التالية. فشدّ على ساعد الأب في توسل صامت لكي لا ينطق بها) من عذاب جيرونيمو فرانك الذي حمل صليب العزوبة طوال عشر سنوات، بسبب نكبة مارتا ماتاراسو التي لم يكن له فيها ناقة ولا جمل.

- اليوم يتزوج الأجنبي الطيب من أجمل بناتنا. ومثلما تمنحه هي عفتها التي صانها بغيرة السيد أنطونيو والسيدة مجدلينا، يهدي أهالي سواحل ماليسيا إلى جيرونيمو فرانك قلوبهم، شاكرين له ما جلبه لنا من تربية وهبات سخية، من موسيقى وسينما، وبضائع وكوسموبوليتية.

انطلق من الأرغن صوت عال يناسب كاتدرائية نوتردام، وبعد«آفي يا مريم» مغناة بالإيطالية مع نشاز من النبرة المحلية، طلب الخوري من الجميع أن ينهضوا واقفين، وبعد وقفة قصيرة، كانت أصداء الموسيقى خلالها ما تزال تتردد في القبة، وصل إلى النص التقليدي:

- جيرونيمو فرانك، هل تقبل آليا إيمار زوجة لك؟
- تصور يا أبتاه!
- الجواب «نعم» إذن.
- نعم.
- آليا إيمار، هل تقبلين جيرونيمو فرانك زوجاً لك؟

طلبت الفتاة من الخوري أن ينحني وكلمته بصوت خافت جداً في أذنه.

ثـم نـهضت بعـد ذلـك دون أن يعرقـل أي شـيء مـن ملابسـها مرونـة فخذيـها، وبينمـا هـي تفتـح سـاقيها وتكـور بطنـها إلـى الأمـام، أخرجـت الولاعـة الذهبيـة مـن حزامها بعدوانيـة. ثم أخرجـت مـن الجهـة الأخـرى للحـزام نفسـه قطعـة ورق لـم يكـن ممكنـاً تحديدهـا للوهلـة الأولـى، ولكنـها عندمـا تقدمـت بـها بـين الجمهور وهـي ترفعـها مثـل شـعلة مـاراتون، كـان بإمكان من هم حتـى في الصـف الأخير أن يـروا أن تلك الورقـة هـي شـيك مصـرفـي.

عندئـذ بلغـت النقطـة المحـددة علـى الكوكـب الأرضـي التـي تقـف عليـها بـاولا فرانـك، وقدحـت الولاعـة محدثـة لهبـاً بديعـاً، ورفعتـها إلـى مسـتوى يدها اليسـرى التـي تحمل الشـيك. فبـدأت الوثيقـة تشـتعل وأبقـت العـروس فكها عالياً وعينيها القاسيتين تحدقان بملامح أخت زوجها. عرفـت المـرأة دون حاجـة إلـى أي وسـاطة بأنـها تواجـه أكبـر إهانـة في حياتـها ونصحتـها غريزتها بأن تحـافظ على بـرودة أعصابها. ودون ذعـر ودون ابتسـام رأتـها تتصـرف بتجـاهل تمثـال مـن الرخـام، كمـا لـو أن هـذا الـهوس بـالحرائق لا يعنيها في شيء. انتظرت إلى أن سقط الفتات المحـروق على كتفـي وصـدر العروس، وأبدت جرأة بكبح أنفاسـها في اللحظـة التـي وضعـت فيـها الفتـاة الولاعة المشتعلة قرب أنفها، ونظرت إلى السقف كمـا لـو أنها تقـدر كثافـة الصمت الراكد. ثم قالت عندئذ:

- عن إذنك يا آنسة.

تراجعت آليا إيمار خطوة في الممر، ومن هذا الحيز مرت المرأة، متكبرة وشـامخة، معتمـرة قبعتـها وشـاحبة، حاسـمة وفظـة، ولكنـها بلـون جريـح بالرصاص. تجاوزت نظرات أبناء الجزيرة التي كانت تخز رقبتها، وبحثـت عـن تـوازن مشـجع بتصورهـم قطيـع معـز بـري ينـثر بعـره في بيـت الـرب. وكانت لديها الشجاعة لتقول لنفسها إنها ذاهبة الآن نحو حريتها السامية مثل نسر، مزدرية لحم هذا القطيع المترهل الذي بـلا زمـان ولا مكـان، بـلا نشـاط لتبـادل أي شـيء، وبـلا موهبـة في التجـارة وبـلا ظرافـة في كلمـات أغنياتهم.

النص التالي هو ما كتبه مراسل لاريبوبليكا الجديد في سواحل ماليسيا ولم تنشره الصحيفة وأدى إلى تلقي كاتبه المغلف الأزرق الذي يتضمن قرار طرده من عمله. ويمكن رؤية الوثيقتين كلتيهما بدقة أكبر في متحف اسبالاتون التاريخي، ذلك أن النص الذي نقدمه هنا معدّل بعض الشيء لأسباب أدبية:

جيما في هذه الليلة هي فهد متربص. عيناها الناريتان تشعلان القرية وارداف الفتيات المرنة توحي بالقدرة الإيروتيكية التي يمكن لهن أن يجترحنها في العزلات الحميمة. السماء والبحر اتحدا معاً بخاتم زفاف القمر، ومن هذا الاتحاد ينبثق بين وقت وآخر الزبد الذي يشطر، مثل سهم فضي، البحر الغامض والأبدي. تفور قلوب أبناء الجزيرة على إيقاع ألحان يسمونها «كارامبا» أو «تارامبا»، وهي منظومات مثل أغنيات الرومنس تشير إلى أحداث ليست معاصرة وحسب، وإنما آنية. وقد ترددت واحدة منها بعنوان «كارامبا الفاكهة» حتى التخمة في صالون لوسيرنا الكبير، حيث كان العالم تورينتس، وهو شخصية طريفة لا يتذكر اسمه الأول، قد أعدّ لهيباً اصطناعياً ساطعاً أتاح لمصورين سينمائيين فرنسيين أن يصوروا احتدام حفلة الزفاف.

بدأت الاحتفالات برصانة في أول الأمر، وكان أهالي الجزيرة الواعين بأن صورهم تُسجل للتاريخ، يبدون حذرين، ومتأنقين ضمن حدود فظاظتهم التي لا يمكن إنكارها. ولكن مع تقدم الليل والكحول، أطلقوا العنان بعفوية لليبيدو ومشدات الخصر في مشهد كان سيبعث البهجة في نفس الداعر فرويد.

أما نجما الحفلة فكانا: عن الجانب الذكري، السيد جيرونيمو فرانك، ابن المصري الراحل إدوارد فرانك دي سالزبورغ، وشقيق كونتيسة أورتال التي أبدت اللطف - وسوء النية كما سنرى - بالمجيء لحضور حفلة الزفاف النائية. أما النصف الأنثوي فمثلته آليا ايمار، وهي شابة محلية من سواحل ماليسيا، بثت الحماس في حفلة زفافها بمشهد تمثيلي أحرقت فيه شيكاً في بيت الرب، وهو تصرف تهريجي سبب استياء كونتيسة أورتال التي أبحرت في الليلة نفسها

باتجاه الشمال.

تلك الحركة الغريبة بدت فريدة في هذه الأراضي التي أهملتها يد الرب، ذلك أن دخل الفرد من الماليسيين يقدر بعشرين جنيه استرليني في السنة، وهو خُمس ما كانوا يحصلون عليه قبل عشر سنوات، عندما لم تكن جائحة الفلكسرة قد عفنت حيواتهم بعد.

وقد برز بين المدعوين جماعة رجال ميليشيا، يرتدون بناطيل رمادية، وقمصاناً بيضاء، ممن لم يترددوا، بعد لترين من السليبوفيتش، في إخبار المراسل كاتب هذه السطور بأنهم هم من قتلوا جماعة من الجنود النمساويين نزلوا في الأسبوع السابق إلى الجزيرة لتنفيذ مهمة بيروقراطية تماماً تتعلق بخدمات السجل المدني للإمبراطورية. وقد نزع هؤلاء الشبان قمصانهم، وبعد أن رقصوا عدة جولات «كارامباس»، وهم يضعون أنوفهم في مؤخرات فتياتهم، توزعوا معهن على الشاطئ لكي يخمدوا طاقتهم الجنسية، غير مكترثين على ما يبدو بأي تأنيب ضمير أو أسف.

قاد الأوركسترا المايسترو الهنغاري آدام بوليزر الذي كان يبعث السعادة قبل بضع سنوات في ليالي فيينا ولينز بعزفه البارع على البيانو، ولكنه بعد عملية جراحية حساسة في معصميه، وجد نفسه مضطراً إلى البحث عن دروب له بين جمهور أقل تطلباً. ولا بد من الاعتراف بأنه إذا لم يعد قادراً على إمتاعنا بسونيتات موزارت وكونشيرتوهاته، إلا أن هذا المايسترو اللطيف ينكب على ملامس البيانو بحماس يتناسب بروعة مع الرقص المحلي.

ولا حاجة إلى القول إن هذه الحفلة قد لامست حدود الفحش وعدم الاحتشام. فنساء من كل الأعمار كن يستثرن الذكور بوضع أيديهن على أماكن حساسة من بناطيلهم، بل وكن يقبلن أعضاءهم من فوق القماش. وقد استفسر هذا المراسل عن ذلك من الخوري المحلي الذي قال إنه في أشد بلدان أفريقيا أو أميركا الجنوبية كاثوليكية تنتشر أيام «الانبساط» هذه، وتتلوها بعد ذلك عملية بناء حماسية لترسيخ الإيمان.

وهو يورد مثلاً على ذلك كرنفال ريو، وهي مدينة في البرازيل، حيث تنتشر الكنائس حتى في المواخير.

ولأنني تحمست لفكرة إطلاع جمهور القراء في القارة على أغاني هذه الأراضي التائهة، فقد دونت بعض كلمات أغنيات «الكارامبا» التي ترددت أكثر من سواها في هذه الليلة.

تموت ومؤخرتها منتصبة، العجوز النحيلة، العجوز النحيلة.

جاءت تهز ذيلها، وراء عصفورة، وراء عصفورة.

أرادت أن تدفع شيكاً، مقابل العدة، مقابل العدة.

أحرقوا لها شهاباً نارياً، فبقيت دون مصاصة، دون مصاصة.

في هذا النص المعتدل تقريباً هناك تلميح إلى كونتيسة أورتال التي - حسب ما صرحت به العروس بعد أن نطقت «نعم» مترددة لزوجها - «زيتتها» بمبلغ كبير لتتخلف عن المجيء إلى المذبح. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن العريس المحظوظ كان يرقص ويدندن هذه الأغنية محاكياً حركات الأهالي إلى حد الكمال. إنما لم يسعد قلوب الماليسيين المتهتكين وأعضاءهم شيء مثل أغنية «كاريمبا الفاكهة» التي تقول في أحد مقاطعها:

«هذه هي كاريمبا الفاكهة، الفاكهة. لرقصها مع العروس، ومع العاهرة،مع العاهرة.»

وماذا عن العروس؟

يشعر المرء على الدوام بإغراء وصف الفتيات الجميلات بالكائنات المجنحة، بالبجع الخجول، خصوصاً وهن يرتدين الملابس الاحتفالية، متخلصات من الأثواب البائسة التي يلبسنها في أعمالهن اليومية. ومع ذلك فإن كلمة «ملاك» تنتقص من شهوانية آليا إيمار، فشفتاها الممتلئتان والرطبتان مفتوحتان لكي تُسرق منهما قبلة، واللسان الوقح يعرف كيف يطل من حافة صف الأسنان المنتظمة والملهمة، والأنف يرتعش بحركة عفوية أكثر منها تقنية وكأنه يميز كل رائحة في أي لحظة من الليل، والشعر يفيض بغضب ذاتي على طرحة الزفاف وتولها الغامض لكي يهتز بجنون حورية خلال الرقص، والقبضتان يتلهف المرء إلى تقبيلهما وهما تضربان الشبان على فكوكهم حين يمسكون نهديها خلال رقصة الكارامبا أو يلحسون بلعابهم المضمخ بالخمر أنفها الجامح.

يمكن للرقص في جيما أن يكون تعبيراً عن السعادة أو الغضب. واذا كان كل شيء في بداية الليل مجرد لعبة بهلوانات، فإن شيئاً خبيثاً راح يعم الصالة بعد منتصف الليل. فالنظرات إلى العروس انحرفت عن إيقاعها الأخوي وعرت ظلال من الحقد عيون الشبان. وأعتقد بأنني لمحت انفعالاتهم من موقعي على المنصة وأنا جالس عند قدمي عازف البيانو: كان هناك غضب لا يساوم تجاه النمساوي الذي لم يُثبت فقط بأنه بالإمكان جمع ثروة في أرضهم البربرية القاحلة، وإنما استخدم كذلك كل ترسانته من الثقافة، والمال، والنفوذ، والفصاحة، لكي يسرق منهم آليا إيمار التي كانوا يشتهونها في تلك اللحظة بجنون خطير.

عندما استنفد العالم تورينتيس قوى انابيبه الغازية وعاد كل شيء إلى

المصابيح الكثيبة وشمعدانات الشموع الفلورنسية، وأعادت الظلمة المواتية إلى الشباب أشد المخاوف. وتصرف السيد فرانك بحكمة حين استغل موسيقى فالس مواتية ليلف مع عروسه شاقاً طريقة عبر الصالة كما لو أن تلك الموسيقى ذات الأنغام المنتظمة والنوستالجية هي مهدئ ونوع من البلسم لوداع تنامي سخط المستائين. وفي دوار موسيقى شتراوس خرجا إلى الشارع حيث انفصلا عن بعضهما وركضا باتجاه السعادة الزوجية.

وكانت تلك هي اللحظة المواتية، إذ أن جماعة الشبان الوطنيين اجتمعت في وسط الصالون بعد عشر دقائق من ذلك، ووقفوا متعانقين مثلما يفعل فريق لكرة السلة في الاستراحة، وبقوا على تلك الحال لبعض الوقت، يعرقلون حركة الراقصين. وفجأة انفرط عقد ذلك الاجتماع الخاص، وتوجهوا إلى البار، وملؤوا بالانتظام الذي تتيحه لهم نشوة السكر كأساً من السليبوفيتش وشربوا نخباً «في صحتنا». وضعوا الكؤوس بطريقة متحضرة على طاولة مجاورة، وانسحبوا واضعين أيديهم في جيوبهم، مثل أطفال خبيثين طُردوا من حفلة عيد ميلاد.

هدأ خروجهم توتر الأجواء الحربية بصورة ملحوظة، ولكنه لم يهدئ فضولي. فلحقت بهم إلى الشارع، وبالرغم من أنني ذهبت معهم باتجاه المرفأ، إلا انهم عاملوني بلا مبالاة تامة. وعند شاطئ البحر راحوا يتأملون الأفق بالتناوب مستخدمين في ذلك منظاراً. ثم جلسوا بعد ذلك للتفكير وأقدامهم فوق الماء، بعضهم كانوا يدخنون، وبعضهم يقذفون نوى زيتون يحملونها في جيوبهم. وانتهزت التجاهل الحميم الذي يعاملونني به، وطلبت منهم المنظار، وضبطتُ عدسته حسب إمكانيات بصري.

على بعد ثلاث ساعات من الإبحار كان الأسطول الإمبراطوري ينتظر طلوع الفجر ليبدأ الهجوم.

سألتهم بصوت متحمس:

- ما الذي ستفعلونه أيها الشباب؟

أخذ أحدهم نفساً عميقاً من عقب سيجارته، ووضع على تلك الجمرة سيجارة جديدة، ورد عليَ وهو يطلق حلقات من الدخان كان الهواء يبددها دون اعتبار:

- الانتهاء من تدخين هذه السيجارة ثم حفر قبورنا بأيدينا.

هذا التقرير أرسله من سواحل ماليسيا إلى جريدة لاريبوبليكا مراسلها الجديد أندريس غوميز ستالكير.

- 31 -

يمكن التفكير بأن هناك ثلاثة أنواع من الأسباب على الأقل منعت جريدة **لاريبوبليكا** من نشر مقالة غوميز ستالكر، وهي: أسباب أدبية، وسياسية، وفظيعة.

ومن بين أسباب النوع الأول، هناك الفيض الغنائي الجلي الذي حمل الصحفي إلى إضعاف النص بصورٍ من نوع «السماء والبحر اتحدا معاً عبر خاتم زفاف القمر»، وهذا دمل يكفي لإسقاط مجموعة أسنان أي رئيس تحرير أوربي.

وهناك بين أسباب النوع الثاني الإهانة الموجهة إلى كونتيسة آورتال، مديرة مصرف سالزبورغ الذي تتلقى منه **لاريبوبليكا** إعلانات دعائية. ويمكن لمديرة المصرف تحويل دعمها إلى جريدة «**تجارة الدانوب**» المنافسه، إذا ما جرى الكشف عن أن جولتها في سواحل ماليسيا لم يكن لها من هدف آخر سوى إصدار شيك من أجل استعادة «صرة» جيدة، وهذه لفظة اصطلاحية يشير بها الماليسيون إلى الحزمة الناتئة التي يمكن لمحها تحت سراويل الرجال.

ومع أن الأغلبية تميل إلى تفسير المغلف الأزرق الذي تلقاه كاتب المقالة إلى انعدام الدقة المريع لدى غوميز ستالكير الذي يطلق دون تدقيق على رقصة سواحل ماليسيا الأصيلة، تسمية «كارامبا» أو «كارومبا» أو «كاريمبا» أو «تارامباس» بل ويصل به الأمر إلى تسميتها «كارامبراس» دون أن يصيب مرة واحدة في تسمية «التورومبا» الشهيرة عالمياً.

أما من أتيحت لهم متابعة نتائج الوقائع بموضوعية، فيعرفون جيداً أنه لم يكن هناك في صبيحة ذلك اليوم من يمكنه إرسال البرقية، وربما لم يتمكن رئيس تحرير **لاريبوبليكا** من قراءة مقالة المراسل غوميز ستالكير الأولى. فموظف البريد الذي هرب تاركاً وظيفته كان يمضي

باتجاه أفريقيا، بينما كانت مساعدته أليجاندرينا كاتالينا بينيتو تستعد لإعادة الاعتبار إلى خطيبها ما بين الكثبان بهدف تجاوز دوار أربع تهيجات جنسية. وعندما اعترف لها الرجل بأن الكحول والجهد الغرامي قد استنزفاه، قالت له: «استرح قليلاً يا صغيري. فما يهمني هو الحصيلة النهائية وليس الأقساط.»

وهكذا بقيت مقالة المراسل الصحفي فوق الطاولة إلى جانب جهاز التلغراف، ولم تنتبه إليها إليجاندرينا كاتالينا إلا بعد أن نالت من خطيبها الحصيلة النهائية المنشودة وذهبت إلى المكتب على خلفية إيقاعات التورومبا البعيدة لترى إذا ما كانت هناك رسائل مستعجلة. والرسالة التي وجدتها تزغرد على الجهاز بحماس، كانت تحمل توقيع البابا، وتقول: «المفاوضات أخفقت. فليرحم الرب أرواحكم.» عندئذ أيقظها الرعب، فدست المقالة الاجتماعية عن حفلة الزفاف تحت حافظة الأوراق على المكتب، وهرعت إلى صالة لوسيرنا لكي تحذر آخر الراقصين. وقد بقيت أوراق المقالة هناك لسنوات طويلة، إلى أن أدى انكباب الوصي لاوسيتش إلى ضمها إلى محفوظات المتحف التاريخي في اسبالاتون.

وبالرغم من وجود اختلاف طفيف في تسلسل الوقائع، فقد توجه العروسان آليا إيمار وجيرونيمو نحو باب المتجر الأوربي مستعدين لتذوق الشمبانيا والحب وغياب باولا فرانك لزمن غير محدد ولا نهائي. وعند السلّم الحجري المؤدي إلى البيت، كان يجلس الأخوان رينو واستيبان كوبيتا وعلى شفاههما التكشيرة نفسها. وكان الثاني منهما، وعلى الرغم من مجون السهر، عصبياً وروحانياً، كما لو أن نظرته الزرقاء تنشطه على الدوام. أما رينو بالمقابل، فكانت تظهر عليه تأثيرات الحفلة: مني ونبيذ على بنطاله، إضافة إلى خدش متعرج مازال ينزف في خده. تحولت سعادة آليا إيمار الطليقة إلى شلل. وقال جيرونيمو بعدوانية:

- الحفلة ليست في هذا المكان.

هرش رينو ذقنه بحركة أبدية، وقال:

– نريد التكلم معك.

– غداً يا رجل، غداً.

نهض ابن كوبيتا الأكبر مغموماً:

- لن يكون ثمة غد بالنسبة لك ولا بالنسبة لنا أيها السيد.

- ولماذا؟

- لأنك ستكون قد انطلقت في رحلة شهر العسل، وسنكون نحن تحت التراب نتأمل نمو أزهار الأقحوان.

ابتسم النمساوي وهو يشد إليه جسد زوجته وينقل بصره ما بين الأخوين. أحس للحظة بالنظرة الرقيقة التي تصوبها عينا استيبان الزرقاوان إلى نظرة آليا إيمار القلقة، وأراد أن يكسر السحر بالوقوف بينهما.

- يا لاختلاف المصير. يؤسفني أنه ليس لدي أدنى اهتمام في هذه الساعة من الليل، وفي يوم زفافي، بحديثكما عن الخطوب التي ستؤدي إلى هذه النهاية المزدوجة.

- سأخبرك بذلك على كل حال.

- أما أنا فسأفتح الباب، وأغلقه بالمفتاح، ثم أضع موسيقاي المفضلة بأعلى صوت جهنمي، وأنفصل عن العالم.

- ولكنك لن تنفصل عن ضميرك يا سيد فرانك. ولا عن ضميرها هي أيضاً.

نهض استيبان كوبيتا بدوره وعيناه الخاشعتان مصوبتان إلى الأرض. وفي رغبته الذليلة بالاختفاء، أخرج من كيس جده منظاراً، وقدمه إلى النمساوي دون أن يقول شيئاً. تناوله الرجل متردداً، وأشار له رينو بأن ينظر إلى البحر. كان هناك ذلك القمر العريض الذي يسميه الأهالي «المتفزر». وعلى هذا الضوء الذي لا يقل نجاحاً عن ضوء تورينتيس الاصطناعي، رأى جيرونيمو سفن الأسطول الإمبراطوري واحدة واحدة.

- لا شيء من هذا يخصني - قال وهو يعيد المنظار إلى استيبان، ويبحث في جيبه عن مفتاح البوابة البرونزي. ولكنه أخرج بدلاً منه الولاعة، فبادر الشاب استيبان في لحظة إلهام إلى تناول السيجارة عن أذنه، وقرّبها من الولاعة. وعندما ومض اللهب، كانت لديه الجرأة للنظر مرة أخرى إلى عيني المرأة مباشرة. وبذلت هذه جهداً كبيراً لكبح نفسها من لمس خده. فحرفت يدها إلى جبهتها ودفعت شعرها إلى الوراء في حركة متكبرة، وقالت متوسلة:

- استمع إليهما.

أخرج جيرونيمو بدوره سيجاراً هافانياً بانقياد، وقدم واحداً إلى رينو، ثم جلس الأربعة على درج المدخل. أطلقوا معاً سحابة متداخلة من الدخان، وأومأ النمساوي إلى رينو كي يتكلم. فقال وهو ينفض السيجار دون مبرر، إذ لم يكن قد تشكل فيه رماد بعد:

- هناك حل واحد لتجنب وقوع المجزرة. أن تعيرنا سفينتك لكي نصل بها إلى إيطاليا.

لم يشأ زوج آليا إيمار أن يصدق ما سمعه. وندم بشدة لأنه ازدرى نصائح أخته. لقد وقع بين أشرار متعصبين سيمتصون كل قطرة من دمه مثل العلق. أهو الابتزاز غير النهائي لموت مارتا ماتاراسو؟ أم أنه تتابع مشاهد تكتيكية للحيلولة دون إنجاز زواجه من آليا إيمار؟ ربما يكون الوقح ذو العينين الساخنتين قد جاب بعضوه دروب هذا البطن وهو يعطل الآن خلوته بآليا إيمار لكي يؤخر تهيج زوجته. أي براز دفعه إلى العيش في هذه الجزيرة التي لا تظهر على الخرائط ولا في التاريخ والتي حولها روتينه الغبي إلى أفقه الوحيد؟ وقال لنفسه: بسبب الحب. بسبب حب أحمق، مغفل، غير موات ومتسلط. لم ينظر إلى الشابين اللذين يتقبلان الغطرسة بظرف طبيعي، وإنما نظر إلى محبوبته. فركزت الفتاة بصرها عليه وانتزعت في الوقت نفسه المنظار من يدي استيبان وأومأت لزوجها بأن يأخذه.

رصد الرجل مرة أخرى حدود الليل وأحس بدغدغة الفجر.

- لقد كانت هذه السفينة يا صديقي هي حلمي طوال سنوات. عندما بدأ حبي لآليا إيمار، شرع بيزارو ورجاله في بنائها. وتم تخطيط كل شيء بحيث يمكنني الإبحار فيها يوم زواجي بالذات. وهذه هي لحظة الهروب من هذا الأفق وهذا التاريخ. ليس هناك ما يقيدنا الآن. وعليكم أن تحترموا حريتنا.

أخذ استيبان نفساً عميقاً من سيجارته، وتظاهر بأن بقايا الدخان قد هيجت حدقتيه. فمسح عينيه براحتي يديه، وعاد يدخن برغبة عميقة، أو «برغبة يائسة» كما فكر جيرونيمو. وفي لحظة واحدة عرف حتى آخر عصب فيه بأن كل الفطنة في مغامرته العاطفية لن يكون لها نفع حيال

التحالف الطبيعي.. حيال هذه الرعشة التي توتر الفضاء كلما تبادل استيبان وآليا إيمار النظرات بطرف عيونهما.

- ما نريده هو الوصول إلى إيطاليا فقط يا سيدي. وبعد ذلك تعود سفينتك إليك.

- آسف يا فتى. هذه الليلة سنتناول شمبانيا الزفاف وغداً سيكون الفطور في السفينة.

تبادل الأخوان النظر، وأشار رينو إلى استيبان بأن يتكلم. غطى الشاب جفونه، وضغط بشدة على أنفه، محاولاً الخروج بحجة مقنعة. وخمن أنه بتغطية عينيه يلغي تأثيرهما، ويتحول إلى هشاشة أكثر إقناعاً.

- إنك على حق يا سيد فرانك. اعذرنا للإزعاج. كل ما في الأمر...

وواصل رينو:

- ... كل ما في الأمر هو أن الشباب قد استولوا على السفينة.

هز النمساوي المفاتيح في يده.

- جيرونيمو.

رغب الرجل في تلك اللحظة لو أنه لم يسمع صوت محبوبته. لقد صار بإمكانه تصور كل شيء بصورة رهيبة. فالأحداث تتشابك بطريقة يتسارع معها إلقاء أحلامه التي راودته طوال عشرين سنة إلى الفراغ، ولم يجد جواباً سوى الصمت. انطلق سائراً نحو المرفأ وظهره محمل بضوء القمر، وذراع المرأة الحازم يمسك بمرفقه.

ولم يبدل سلوكه عندما قال رينو كوبيتا الكريه من ورائه بنبرة نصف ميلودرامية:

- أنت وطني حقيقي يا سيدي.

ترك الصبر والفظاظة يتحجران على شفتيه لحظة، ثم قال عندئذ دون أن يلتفت إلى الوراء:

- أنا نمساوي أيها القواد. مجرد خائن عاهر لوطني.

عندما أشار استيبان إلى المرفأ، انتبه جيرونيمو إلى أنه قد قطع الطريق ورقبته منحنية نحو الأرض. وحين رفع بصره الآن، رأى فصيلة «الوطنيين» يدخنون بانتظار مجيئهم.

- ما كنا لنبحر مطلقاً دون إذنك يا سيد فرانك. فنحن لا نستخدم العنف إلا ضد العدو. وأنت...

- لا تقل أي شيء آخر يا رينو كوبيتا. اصمت بالله عليكَ.

قفز القبطان بيزارو إلى الأرض حين رأى الجماعة تصل إلى النصبة التي رُبطت إليها حبال السفينة.

- إنها كارثة يا سيد فرانك. هؤلاء المجرمون يريدون اختطاف سفينتنا.

- وما رائحة القهوة هذه؟

- لفتة اهتمام من أصحاب البيت. فلربما توقظهم القهوة القوية من سكرتهم. هذا يعني أنهم مسلحون يا سيدي.

- كم ستحتاجون من أجل الوصول إلى الساحل الإيطالي؟

- أربع أو خمس ساعات.

- وهل يمكنك أن تحمل كل هؤلاء البرابرة؟

- بدون سرور يا سيد فرانك. - قال ذلك بالألمانية خوفاً من أن يسمعه أحد أولئك المتهورين، وأضاف:- ثم إن يوم غد هو اليوم العظيم، فسفينة الزفاف ستجتاز الأدرياتيكي. وقد حضّرت لك مفاجأة ستسعدك يا سيد جيرونيمو. ستكون أنت وزوجتك في بحر من العسل. مع موسيقى سماوية. لقد كان السيد تورينتيس هنا وأعدّ...

- اصمت الآن.

- السيد تورينتيس شخص لطيف.

طلب جيرونيمو المنظار من استيبان ووضعه بين يدي القبطان بيزارو. ثم أمسك وجهه بقوة من وجنتيه وأشار له إلى الاتجاه المنشود، ثم ثبت عنقه بقوة مجبراً إياه على النظر نحو الخليج.

- ماذا ترى أيها القبطان؟

- أمواج، وأمواج، وأمواج.

- وفيما وراءها؟

- ظلال.

ضبط القبطان عدسة التكبير، وانتبه صاحب الأوربي إلى أنه يفعل ذلك بمهارة.

- سيدي، هناك أسطول حربي!

- وما الذي يفعله هناك؟

- إنه... ينتظر.
- وماذا ينتظر؟
- ربما طلوع الفجر. فهذه الشواطئ ليست سهلة.
- وما رأيك أنت؟
- إنه انتشار عسكري واسع الحجم.
- واسع الحجم بالنسبة للهجوم على جزيرة تافهة.
- أي جزيرة يا سيدي؟
- هذه.

أنزل القبطان المنظار ببطء مكفهر. وتحت الياقة البيضاء المتقنة قفزت تفاحة آدم في عنقه مثل حيوان.

- ما هذا! أظن يا سيد جيرونيمو بأننا إذا ما انطلقنا الآن فوراً فسوف نصل إلى الشاطئ الإيطالي في ثلاث ساعات ونصف.

أحنى النمساوي رأسه أمام أكبر الأخوين كوبيتا، فأومأ هذا لجماعته بأن يصعدوا إلى السفينة. ثم مد يده طالباً منهم إعطاءه البنادق. وعندما جمعها كلها، بادر إلى إلقائها في الماء وبقي ينظر بشيء من الكآبة إلى النقطة التي اختفت فيها. وقبل أن يصعد إلى السفينة الفخمة، وقف متأثراً وكان كل ما في تصرفه يشير إلى أنه راغب في معانقة النمساوي. ولكن الرجل تطلع في أول الأمر إلى القمر، ثم إلى زوجته، وركز تفكيره أخيراً على نثر الرمل بمقدمة حذائه الأيمن. فابتلع رينو نواياه وقفز إلى السفينة.

وقف استيبان أمام الزوجين وعرى بحركة تمثيلية كل طاقة حدقتيه الزرقاوين. وكما لو أنه ليس ثمة وجود لجيرونيمو، بحث عن آليا إيمار، وألح في النظر إلى أن رفعت الفتاة رأسها، وذقنها المتمردة، وواجهته:

- إلى أين ستذهب يا تيبي؟
- إلى إيطاليا. ويقولون إننا سنذهب بعد ذلك إلى تشيلي.
- وأين هي هذه؟
- هناك.

ضمت آليا إيمار ساعديها وكأنها تحتمي من برودة لا وجود لها.

- أرى أنك قد تصالحت مع أخيك.

- لا. إنني أحتقره.

- وكيف تمضي معه؟

فأشار استيبان إلى السفينة.

- إنها الحرب، أليس كذلك؟

عندئذ نزع جيرونيمو بحركة من يده ربطة العنق المخملية الحمراء واقتلع زر الياقة وهو يحاول توسيعها حول عنقه. ثم قال:

- آليا إيمار، إذا كنت تريدين الذهاب معه فهذا هو الوقت المناسب.

مدت الفتاة يدها، وأجبرت استيبان بنظرها على أن يصافحها. همست شيئاً في أذنه، ثم هزت يده دون رقة، بصرامة عسكرية. انتبه الفتى إلى أن حباله الصوتية صارت بلا صوت، ولم يستطع القيام بحماقة أكبر من ضرب كعبيه ببعضهما والانحناء، وملامسة أصابع حبيبته بشفتيه. وعندئذ قفز إلى السفينة بينما كانت أوامر القبطان الإيطالي بالإقلاع تطغى على كل أصوات الليل الأخرى.

مشى جيرونيمو وآليا إيمار دون أن يتبادلا الكلام في المرفأ. وكان يأتي من صالة لوسيرنا صوت بيانو المايسترو بوليزر واضحاً وهو يحاول بقليل من النجاح عزف فالس لشوبان. وضعت المرأة إحدى يديها على رقبة الرجل ودلكتها برفق بينما هما يتقدمان نحو البيت.

قال لها متوسلاً:

- أوضحي لي.

غرست آليا إيمار يدها بشهوانية في شعره المشعث من الرقص والغضب ومسحت قاعدة رأسه شاعرة بتوتر كل عصب فيها.

- إنني زوجتك.

- الآن!

- مدى الحياة يا جيرونيمو.

واصل الرجل المسير متشككاً بهذه الكلمات، وفكر: «إنها صدمة الخمسين. وهي لم تعد أكثر براءة.»

- كان يمكنكِ الذهاب في السفينة أيتها الفتاة. لم يكن ثمة ما يمنعك.

- لا. قالت آليا إيمار وهي تمسح خدها بكمها.

- 32 -

في الساعة السابعة صباحاً كانت شمس سواحل ماليسيا تسطع بصورة لا تتناسب مع السماء الصباحية. فتبدو في حجمها وإشعاعها وكأنها تخيلات طفل. وكانت البراءة الطفولية نفسها تتضح من القرية التي صارت أكثر عبثية بشوارعها المقفرة، وركام الزجاجات المكسرة في الميناء، ونوتات ألحان التورومبا ما بين قمم الأشجار، فضلاً عن المعز، والحمير، والدجاج والقطط الغارقة في صمت عميق.

أمر مولينهاور في أول الأمر بتقليب أخشاب المرسى المتآكلة خشية أن تكون هناك قنبلة تنشر أشلاءه في مدى لانهائي، ثم قال إنه لا يمكن لجندي واحد من الأعداء أن يخرج حياً من هذه القرية الدنيئة، وأكثر ما يمكن السماح بخروجه هو دمية جندي من الخشب. وبينما الأسطول الإمبراطوري وراء ظهره، شعر بمثل ما شعر به زميله جليفير في ليليبوت (بلاد الأقزام). ولمجرد التقييد بالمنهج العسكري، أمر قواته بأن تنتشر على شكل مروحة حتى تخوم القرية وأن تجمع في الساحة كل من تجده من الرجال الذين هم ما بين الثانية عشرة والمئة من العمر وإيقافهم هناك رافعين أيديهم ومباعدين ما بين أرجلهم.

وفجأة لمحت عيناه برج الكنيسة، فوكز ذراع مساعده الذي كان يفرك أنفه أمام قط ميت يطفو فوق الزبد.

- هل ترى ما أراه أيها الياور؟

وجّهه بسبابته الممدودة نحو المعبد، ثم بقي هنيهة بعد ذلك يداعب وجنته.

- أرى ناقوساً يا سيدي.

- مثلما أرى أنا . ألا تستغرب شيئاً في هذا الناقوس؟

- يبدو لي أنه أكبر حجماً من نواقيس أخرى.

- وهل يبدو لك ذلك موضوعياً؟

- أجل يا سيدي القبطان. إنه ناقوس كبير نسبياً.

- نسبياً مع أي شيء؟

- مع الكنيسة.

- أتعني أيها الياور أن الناقوس أكبر من الكنيسة؟

- ولا بأي حال أيها القبطان مولينهاور.

- أتعني أن الناقوس كبير بحجم الكنيسة؟

- إنه ناقوس كبير إلى حد أسمح لنفسي بقول ذلك.

وضع مولينهاور القبعة ذات الريش على إصبعه السبابة وجعلها تدور. ثم التفت نحو سفنه وتأكد برضى من أن كل مدافعها مصوبة نحو المباني الرئيسية. وأنه سيتمكن في لحظة واحدة من القصف المدفعي من محو وكر الإرهابيين هذا من الجغرافية والتاريخ.

- وكيف تفسر تحمل المعبد المتداعي لكل تلك الكتلة من البرونز فوق رأسه؟

وضع الياور إحدى قدميه متقدمة والقدم الأخرى متعامدة معها، مثل راقصة تخرج لتحيي الجمهور، ثم قال وهو يلوي ذراعه حول خصره النحيل:

- حضرتك تعلم أنني من أشد الملحدين تمادياً. ولكن ناقوساً بمثل هذه الضخامة لا يمكن تفسيره إلا بمعجزة.

- وهل تظن بأن الرب من البلاهة بحيث يهتم بتحقيق معجزات في هذه الضواحي النائية التي تخلت عنها يد الرب؟

استبدل المساعد وضع قدميه، لمجرد أن يضعهما بالصورة نفسها لكن القدم اليسرى في هذه المرة أمام اليمنى، ثم هرش أذنه بصورة شيطانية وهو يجيب:

- ولم لا إذا كان قداسة البابا نفسه مهتماً بهذه القرية التافهة إلى حد محاولة وقف الأسطول؟

بدأ الجنود يجمعون في الساحة حصيلة صيدهم: طفلان أحدهما في الحادية عشرة والآخر في الثالثة عشرة، ومخمور في حوالي الثلاثين لم

يتمكنوا من إيقاظه، وسبعة مسنيين ما بين الثمانين والتسعين من العمر. وكان يبدو عليهم جميعاً، باستثناء الشاب المخمور، أنهم لا يجدون صعوبة في إبقاء أيديهم مرفوعة وأرجلهم متباعدة. تقدم القبطان بحزم نحو أحد المسنين ورفع ذقنه بإبهامه.

- اسمك أيها العجوز؟
- تورينتيس يا سيدي.
- المهنة؟
- من الصعب تحديدها. إنني مولع بالكهرباء.
- أأنت عالم؟
- آه، لا يا قبطان. إنك تسيء إلى شرف الكلمة إذا ما أطلقتها عليّ.
- منذ متى تعيش في هذه القرية؟
- منذ أول أمس يا سيدي.
- هل يعني هذا أنك سائح؟
- بالضبط يا سيدي. سائح.
- وما رأيك لو أعدمناك الآن لأنك جبان وكاذب؟

أنزل تورينتيس أحد ذراعيه وحك صلعته دون أن يؤنبه أحد. وحيال هذا النجاح الزهيد، أنزل ذراعه الأخرى وقاطعهما معاً على صدره.

- سيكون ذلك مزعجاً يا سيدي القبطان. فقد كنت أحلم على الدوام بأن أموت في مسقط رأسي.

- وأين هو مسقط رأسك.

- مدينة لوغرونيو في إسبانيا. ولكن ولعي العلمي قادني إلى سالزبورغ. فمن الصعب جداً إحراز العلم في إسبانيا، أما في أمور اللاهوت فحدث ولا حرج. والعلاقة بين العلم والدين هي مثل العلاقة بين الكلب والقط.

لفت مولينهاور انتباه مساعده بقرقعة من أصابعه.

- قدم لي واحدة من لفاتك الثقافية وأخبرني إذا ما كنت تعرف شيئاً عن مدينة لوغرونيو أيها الياور.

ارتفع البحار على رؤوس أصابع قدميه مستنداً إلى كتف قائده

الرجولي، وهمس بمعلومات في أذنه طوال دقيقتين. بعد ذلك فرك مولينهاور يديه ثم أدخل إبهاميه تحت إبزيم حزامه العسكري.

- يا سيد تورينتيس، تقع مدينة لوغرونيو عند ملتقى نهرين كبيرين. هل يمكنك أن تتطلف وتذكر لي اسميهما؟

ملّس العجوز رأسه وكأنه يسوي الشعر الذي لا يمتلكه. ثم نظر إلى السماء، واستطاع أن يتأكد من أن رأسه خاو من المعلومات مثل خواء الفضاء من الغيوم.

- اعلم يا سيدي أن الجغرافية ليست نقطة قوتي. والأنهار لا تهمني إلا كمصدر للطاقة.

- سيكون من الشيق أن أتبادل الحديث معك حول هذا الموضوع، ولكن ما يهمني الآن، أو بالأحرى ما يهمك، هو النهران اللذان يلتقيان في لوغرونيو.

- ليس لدي أدنى شك في أنهما نهران اثنان يا رجل.

- من المثير للشبهة يا دكتور أن تكون راغباً في الموت في أرض تدعي أنها مسقط رأسك وأنت لا تعرف عنها شيئاً.

- آه، أجل، إنني أتذكر. لقد تذكرت شيئاً. اسم ساحة المدينة، لقد تذكرته!

- قل اسم الساحة إذن.

- ساحة السلاح في لوغرونيو.

- نظر مولينهاور إلى مساعده الذي تعالى على قدميه لتصل شفتاه إلى أذني رئيسه؛ وهمس له شيئاً ببطء، وهو يحرك حاجبيه، دون أن يتوقف عن النظر إلى قدمي تورينتيس الحافيتين. وأخيراً قاطع ذراعيه في وقفة ماكرة.

- عزيزي العجوز. سأضطر إلى إعدامك.

- الآن بالذات؟

- بالضبط. لا تدعي بعد ذلك أنني لم أوفر لك محاكمة متوازنة.

- آه، لا. ولا بأي حال. وما هي التهمة التي توجهها إلي يا سيدي؟

- المشاركة في قتل أحد عشر جندياً من الجيش النمساوي الهنغاري.

- متى؟
- منذ أسبوع أيها السيد.
- أين؟
- هنا، في هذه الجزيرة.
- ولماذا أقدمتُ أنا على مثل هذا العمل البربري أيها القبطان؟
- أنت من عليه أن يعرف ذلك.
- بذاكرتي السيئة هذه! إنني لا أتذكر نهري مدينة لوغرونيو، فكيف سأتذكر طوعاً مثل هذا الأمر الرهيب، خصوصاً وأنني لم أكن هنا منذ أسبوع، وإنما وصلت أول أمس فقط بأجهزتي الكهربائية لكي أضيء حفلة الزفاف.
- صدقني أنني متأسف يا صديقي الإسباني، فأنا محب كبير لدون كيخوتي.

وبفرقعة من أصابعه استدعى فصيلة الإعدام التي اصطف أفرادها قبالة أقرب جدار، على بعد أحد عشر متراً منه، وتأهبوا بضرب كعوب جزماتهم، ووضعوا أعقاب بنادقهم على الأرض بانتظار الأوامر. قاد مولينهاور نفسه تورينتيس بأخوية إلى الجدار وأوقفه في الظل الذي توفره الشجرة تماماً.

- هل الأمر جدي أيها الأميرال؟
- أعذرني، ولكن الأمر جدي حتى الموت.

تأمل المخترع سحابة لها شكل سلحفاة تنزلق نحو الهضاب، وضم كلتا راحتيه مبسوطتين واضعاً إبهاميه تحت ذقنه وسبابتيه على شفتيه وقال:

- يا للغرابة! يقضي أحدنا كل حياته وهو يتأمل ويفكر في الموت، وعندما يأتي يكون تفاهة مثل هذه. هل تقدم لي معروفاً أخيراً؟
- بالطبع.

فك العجوز أصابعه المتشابكة، وأخرج من جيب بنطاله الرمادي ذي الخطوط السوداء ورقة مكتوبة وهزها في الهواء. ثم استغرق لحظة في تمسيدها بساعده على فخذه، وقدمها أخيراً إلى العسكري.

- هل يمكنك التلطف أيها الأميرال بإيصال هذه الرسالة إلى السيد

ماركوني[1] الذي يقيم في لندن؟

- ماركوني! النابغة؟

- آه، أجل. هل تحب الموسيقى؟

- بشغف شديد.

- ما رأيك بفيلهرموني سالزبورغ؟

- تافهة.

- يسعدني - وأنت الشخصية المهمة في حياتي - أن أتفق في الرأي مع حضرتك حول هذا الأمر. الحقيقة أنني ضجرت من الإهانات التي تقترفها فرقتنا الأوركسترالية بحق موزارت، فانكببت على التفكير في طريقة تتيح لنا سماع أوركسترا لندن السيمفونية الملكية ونحن في سالزبورغ.

- إنه هدف لا يخلو من الشطط الهذياني أيها السيد.

- بالضبط. وكوني أنا من فكر بذلك ما هو إلا وقاحة لها حجم حمار. ولكن إذا ما غرستُ الفكرة في ذهن ماركوني فيمكن لها أن تتحول إلى واقع. وهذه الرسالة تتضمن الطريقة النظرية التي تصورتها لإنجاز هذا الاختراع.

- هل تسمح لي بقراءتها بصوت عالٍ؟

- إنها مسودة، ولكن بما أنه لن تكون هناك نسخة أكثر تنقيحاً، فإنه يسعدني أن أسمعها، كما لو أنها وصية.

حرك مولينهاور الهواء بقبعته، وقرأ الرسالة محسّناً إلقاءه بتحسين وضع قفصه الصدري:

المعلم العزيز والموقر. لقد أسعدني كثيراً نجاح أبحاثك التي توفر فرصة رائعة بعدم البقاء ضمن نطاق ما هو «ممكن» و«مستقبلي» و«نظري»، وإنما تساهم في تقدم البشرية بما هو عملي للاستخدام. لقد تلطفت حضرتك وقرأت حماقاتي وشجعتني بكرم العبقري تجاه المهرج. لقد توصلتُ فعلاً إلى

---

[1] غبيرمو ماركوني Marconi: فيزيائي إيطالي (1874 - 1937)، حقق أول تجارب الإرسال اللاسلكي بموجات التردد الهرتزية. نال جائزة نوبل عام 1909 .

إحـداث ضـوء قـوي جـداً باتبـاع بعـض نصـائحك، ويمكـن استخدامه في الصناعة السينماتوغرافية، إذ أنه يتيح التصوير في كنف ضوء أشد حساسية من أضواء مواقع التصوير، مما يمنح هذا الفن مزيداً من القدرة التعبيرية.

من المؤسف أن التكاليف باهظة جداً، ولم أستطع التوصل إلى استخدام الاختراع إلا مرة واحدة بمساعدة راع للعلم والفن. وما يهمني الآن طرحه عليك هو أنني توصلت إلى وضع تصور لبث موجات صوتية دون أسلاك باستخدام كاشفات زجاجية. وأُقدّر بسبب بطء إيقاع تقدمي غير الملهم أنه في عام 1925 سيكون بالإمكان نقل موسيقى لندن إلى النمسا مباشرة، ذلك أنه يتم التحضير الآن من أجل إجراء محادثة تلفونية بين واشنطن وهاواي خلال سنة، وستكون لاسلكية! سأتابع باهتمام هذه الوقائع، وأظن أنك ستتمكن من تحقيق مشروعي اليوتوبي هذا مختصراً عدة سنوات. يقال أنهم يفكرون في إيطاليا بتعيينك سيناتوراً مدى الحياة. إنني أهنئك، على ألا تبعدك السياسة عن العلم.

تقبل فائق الاحترام والتقدير من المعجب بك البائس والوقح.

تورينتيس.

راح الأميرال الساهم يمسد الرسالة على صدر بدلته العسكرية ثم وجه نظرة رثاء إلى كلب متهدل الحاجبين.

اقترب من العجوز وقال له بسرية:

– لقد أثرت رسالتك بي يا رجل. ويزعجني جداً أن أعدمك.

– لا تفعل ذلك إذن أيها الأميرال.

– المشكلة هي أنني أعلنت أمام كل هؤلاء الجنود والأهالي أنني سأعدمك. وسوف يظنون أنني رجل تبجحات فقط.

– آه، لا! سينظرون إليك على أنك رجل طيب القلب.

– ولكن الإمبراطور أرسلني لتنفيذ عمل رهيب، «عملية اللوح لأجرد». وإعدام حضرتك، وأنت الرجل الذكي، سيكون أكثر أهمية من جهة النظر الاستراتيجية من إعدام هذه البهائم التي لها رؤوس لا

تستخدمها إلا لوضع القبعة عليها. لماذا تبتسم يا رجل؟

خفض تورينتيس نظره بمذلة وأثار قليلاً من الغبار بحك حذائه بين الأحجار. وبالرغم من أنه أخفى ملامحه إلا أنه لم يستطع مواراة ابتسامته.

– هذا غريب يا سيدي - قال بنبرة طفل معاقب -. ولكنني وأنا أرى فصيلة إعدامك بعيدة وبريئة، توصلت لأول مرة إلى فهم التأثير الذي أراد غويا التوصل إليه عندما وضع الجنود على بعد سنتمترات من الضحية.

تراجع العسكري بضع خطوات، وقبل أن ينكسر صوته، همس للوحدة:

– اعدموه.

رسى يخت جيرونيمو بقيادة الريان الإيطالي في بيسكارا قرابة منتصف الليل. واجتمع مسؤولو الميناء الإيطالي المبهورون بالسفينة على الرصيف ليستكملوا ذهولهم. فاليخت درة تليق بالسلاطين وقد خفقت قلوبهم تحت قمصانهم البيضاء آملة بإكراميات ذهبية. ولكنهم حين رأوا نزول الاثني عشر شاباً المترنحين من الكحول ودوار البحر، طلبوا تفسيرات من الريان.

- ما هذه الحمولة أيها الأميرال؟

لكن الريان الإيطالي الذي أحس بأنه قد نجا حين صار في وطنه، غطى أنفه بمنديل مطرز، وقال:

- رعايا جيرمان. دزينة من الرعايا الجرمانيين.

- ومن هو مالك هذه السفينة؟

- إنها ملك نمساوي بقي في جيما ليلتهم ملكة الجمال. لا تقلق بشأن الشبان. سيمرون من إيطاليا للحصول على وثائق ستمنح لهم في رابالو لكي يتمكنوا من الإبحار إلى تشيلي.

نظر موظفو الجمارك إلى جماعة المهاجرين على أنهم مغتصبون، وإلى مواطنهم بنظرة عدم ثقة:

- لا أفهم سبب ذهابهم إلى رابالو طالما أن كل القنصليات موجودة في روما. لهذا السبب وُجدت العواصم.

- ولكن تشيلي حالة مختلفة.

- أوضح ما تعنيه أيها القبطان.

- تشيلي بلد صغير، ولا يشعر أهلها بأنهم على ما يرام في المدن الكبيرة. فمدن مثل لندن ومدريد تثير فيهم مشاعر القلق. ولهذا اختاروا رابالو.

- من الصعب تصديق ذلك. وكيف سيصلون إلى رابالو؟
- اسألهم.
هرع رينو كوبيتا مستجيباً لدعوة مدير المرفأ.
- هل تتكلم الإيطالية؟
- عشرة بالمئة.
- كيف ستصلون إلى جنوة؟
- رابالو.
- إلى رابالو. كيف ستصلون إلى رابالو؟
- هكذا. رابالو، جنوة، تشيلي.
توجه سيد المرفأ إلى الريان:
- يبدو لي أن هذا الفتى لا يعرف أكثر من خمسة بالمئة من الإيطالية.
راح موظفو الجمارك يصرخون بالماليسيين «اخرجوا، اخرجوا» وكأنهم ينهرون قطيع أغنام خاملة، وتمكنوا من دفعهم بهذه الحركات إلى المدينة، ثم عادوا إلى تأمل اليخت.

بعد أن أوقف المهاجرون المارة المسالمين في بيسكارا، وهم يحركون أيديهم ويصدرون صوت «تشو، تشو، تشو» مع إفرازات لعابية، ترافقها «تالان، تالان» وفواق مضمخ برائحة حفلة الزفاف، تمكنوا من الوصول إلى محطة القطار.

وبينما هم على أرصفة المحطة اكتشفوا بعد درس عبقري استمر خمساً وأربعين دقيقة بإشراف مدير المحطة، مفهوم تبديل القطارات، فللوصول إلى رابالو لا بد لهم من استبدال القطار في أربع مواقع جغرافية من المستحيل عليهم التوصل إلى النطق بأسمائها. وبعد هذه العملية الشاقة التي فهموها جميعهم بصورة مرضية حاولوا أن يدفعوا قيمة تذاكر القطار بنقود ماليسية غير قابلة للتحويل بأي حال إلى ليرات إيطالية. وبجهد إيمائي أخير أوضح لهم مفتش المحطة طيب القلب معايير تبديل العملات الدولية، وتمكن بشيء من الإشفاق أن يحدد لهم بأن «العملة الماليسية» تُستبدل في السوق السوداء «بصفر لصفر»، أي أنها لا تباع ولا تشترى. هذا الجزء من الدرس لم يقلل من حماس أبطال جيما، إذ أنهم راحوا يتهامسون فيما بينهم، «لم يفهموا شيئاً».

بعد هذا الموقف المحير، وتحت قيادة رينو كوبيتا الضمنية، صعدت الجماعة إلى العربة الأخيرة من القطار المحلي المتوجه إلى ريميني، حيث يتوجب عليهم النزول ليركبوا من الجهة المقابلة القطار العادي المتوجه إلى بولونا، وهو تفرع يجب تبديله مرة أخرى بالقطار السريع إلى بيسينسا، ومن هناك يتوجهون بالاكسبريس إلى جنوة، وحين تصبحون هناك - قال لهم المفتش - فليرحمكم الله أيها الشبان. إذ يوجد في تلك المحطة قرابة «مئتي» رصيف، وحوالي ألفي لص محترف، ولكن ليس عليكم أن تخافوهم لحسن الحظ، لأنكم لا تملكون شيئاً. أما رابالو، فتصبح عندئذ «على مرمى حجر من جنوة».

التشوكو- تشوكو، والتالان- تالان، ودخان البو بو، والإحساس بالحر، والخضرة، والخيول التي في الحقول، وأبراج المعابد، والسحب التي تبدو وكأنها تطير مع القطار، أشعلت حماس الهاربين. وكان بدء أحدهم بدندنة «**توروميا الفاكهة**» كافياً لكي ينضم الآخرون إليه في كورال صاخب دفع فلاحة وابنها إلى الهرب إلى العربة المجاورة. وعندما صار الشبان هم أسياد العربة كلها، ووسط حنينهم إلى الوطن الذي غادروه وسعادتهم بالنجاة برؤوسهم ضحكوا وبكوا بينما هم يترنمون دون مهارة بالأغنية.

بقي رينو واستيبان وحدهما، وكانا يجلسان متقابلين، متجنبين تبادل النظر، ومولين اهتمامهما إلى مناظر الحقول المتناسقة. كان استيبان يسند جبهته إلى زجاج النافذة، وينفخ أنفاسه على الزجاج لكي يمسح بعد ذلك لطخة البخار بيد لجوجة. بعد عدة كيلومترات، قرر رينو أن يصوب نظره إلى جبهته، فأزعج ذلك أخاه إلى حد جعله يرد إليه النظرة وهو يرفع ذقنه بتكبر.

- ماذا هناك؟

- إنك تتألم يا تيبي.

فتمتم دون تماسك:

- جيليت زرقاء.

- تيبي؟

- أشعر كما لو أن شفرة تحز أعصابي. لماذا غادرتُ معكم يا رينو؟

- كان عليك أن تنجو بحياتك.

- كنتُ أفضل الموت.

- ستكبر وستضحك من كل هذه البلاهة. أنت مازلت الآن في هذه العشرين المضحكة من العمر، السن التي يمضي فيها أحدنا بعضو منتصب ودماغ غائمة. كل ما هنالك أنك لم تعرف ما عليك عمله، وربما جرفتك الأحداث. لقد كنتَ نبيلاً يا تيبي. احترمت جيرونيمو.

- كنتُ جباناً يا رينو.

- هذا أمر يحله الزمن. ومن يستطيع أن يقول لك إنه لا يمكن لمهمتك أن تكون معك خلال شهر، وأن تتقلبا معاً على سرير نحاسي في تشيلي؟

- ولماذا يجب أن تكون تشيلي؟

- لأنها بعيدة جداً بحيث لا يمكن للعسكريين أن يمسكوا بنا.

- وكم هي بعيدة؟

- لا بد من اجتياز عدة محيطات.

- لستُ واثقاً من أنه لا وجود لعسكريين في تشيلي.

- معك حق.

- أنا لم أمسك سلاحاً قط.

- وماذا يتكلمون في تشيلي؟

- حماقات، مثلما هو الحال في كل مكان.

- ولكن بأي لغة يتكلمون؟

- الإسبانية.

- لن نفهم شيئاً، ولن يقدم لنا أحد عملاً.

- سنبحث عن عمل لا حاجة فيه إلى اللغة.

- جمع القمامة!

- أنت شاب ووسيم يا تيبي. لن تعدم تشيلية تقدم لك سريرها وببغاءها.

- لا أحب سوى آليا إيمار.

- هذا في الوقت الراهن، لأنك عشت محبوساً في جزيرة بحجم جوزة. ولكنك ستجد في تشيلي مدناً خيالية. ناطحات سحاب، وسيارات، وأجهزة

راديو، وآنسات بأربطة بنفسجية على أفخاذهن البيضاء. ستقع في حب ممثلة تكون حلمتا نهديها بحجم حبة خوخ ولها لسان يلعق أذنك مثل جرو. عندما تنزل من السفينة، وحتى قبل أن تفكر بآليا إيمار، ستكون قد أولجته في إحداهن.

- قل لي شيئاً بالإسبانية.
- «لا كروث دل سور»، إنها أربع نجوم تبقى مجتمعة دوماً.
- كل النجوم تبقى مجتمعة دوماً.
- ولكنها تتبعثر كيفما اتفق، متناثرة مثل أحجار النرد على الطاولة.
- وما الذي تفعله كل النجوم يا رينو؟
- قال لي تورينتيس إنها تتحرك جميعها معاً.
- إلى أين؟
- إذا ما اتجهت كل النجوم نحو نقطة واحدة، فسيأتي وقت تصطدم فيه بشيء، لأنه لا يمكن للفضاء أن يكون أبدياً. وهناك ستصبح كل النجوم كتلة من براز.
- النجوم لا تصطدم مطلقاً حسب ما قاله لي الإسباني، لأن الفضاء لانهائي.
- ليس هناك ما هو لانهائي.
- اسمع، إذا كان الفضاء مدوراً، فكل شيء يدور بلا نهاية.
- إذا ما رسمت دائرة على الورق وسرت عليها بإصبعك إلى أن تنتهي، فمتى تنتهي؟
- يا للسؤال الأحمق: لن تنتهي أبداً.
- حسن. هكذا هو الكون.
- الكون إذن هو حماقة مدورة يتحرك ببيضاته وحدها.
- هذا تعريف جيد.

أخرج استيبان من كيسه تفاحة وقضمها منتزعاً نصفها. وضع البقية في يدي رينو الذي دسها في فمه ببذورها وكل شيء فيها. وبينما هو يمضغ، رفع إصبعه وطلب من أخيه الانتباه:

- سنذهب إلى تشيلي لأنهم هناك يسمحون لنا بالدخول وحسب. سيمنحوننا جواز سفر وسننسى كل شيء. إنهم بحاجة إلى أناس مثلنا يا تيبي.

- ماذا تريد أن تفعل هناك؟

- أريد أن أصنع فيلماً. سأعرضه في صالات أنتوفاغسا السينمائية الكبرى، ثم أصبح مشهوراً. وسأدخن السيجار الهافاني مثل النمساوي.

ذكَر جيرونيمو أغرق استيبان في كآبة مفاجئة. وبينما هو على تلك الحال، في مواجهة الزجاج الذي تنعكس عليه أشعة الشمس، بدا لأخيه فجأة أنه شاحب. وانقضت عيناه الزرقاوان الغائمتان بشراسة.

- ماذا تعرف أن تقول بالإسبانية أيضاً؟ - دمدم وهو ينظر إلى الأشجار التي تقطع الريح مع حركة تقدم القطار.

فقال رينو بوهن:

- لا شيء.

- أما أنا فأعرف شيئاً آخر يا أخي.

- أحب أن أسمعه.

بلل الفتى شفتيه باحتفالية ثم رقق صوته بينهما:

- «Salvame».

- ما معنى هذا؟

- لقد قالته لي آليا إيمار لدى الوداع. وقالت لي: «هذا هو أول ما يتوجب عليك أن تتعلمه بالإسبانية».

- ولكن أي براز يعني ذلك؟

- ليست لدي أية فكرة يا أخي. يجب أن تحصل لي على معجم.

ضرب رينو ركبتيه ثم مسد شعره بيأس:

- أتريد معجماً إسبانياً-ماليسياً في إيطاليا؟

ابتلع استيبان لعاباً غزيراً، ونظر إلى المروحة الصدئة التي تتدلى معطلة فوق الممر، وقال:

- كان علينا أن نحضر تورينتيس معنا.

- هذا ما كنت أفكر فيه.

بعد ساعات من ذلك خفف القطار من سرعته، وأطلق صفيره، وقرأ الشباب على لافتة اسم المحطة: «ريميني». بعد نصف دقيقة من ذلك توقف القطار، وخيم على الشبان الماليسيين صمت جنائزي وهم يحاولون تذكر تعليمات ناظر المحطة.

انقضى الليل في مخدع العروسين بطيئاً ومشوشاً. وكشفت العزلة الحميمة الشاقة أن تاريخ الجزيرة قد خلّف آثاراً. لقد عرفت آليا إيمار كيف تتقبل قبّلة من جيرونيمو الذي مدّ لسانه من الكتف العاري، متسلقاً الرقبة، ليتوقف عند فجوة إبط العروس. فداهمها إلى جانب القشعريرة، تيبس جعلها تبتعد عنه وتملأ كأساً أخرى من الشمبانيا. ثم هدأت بعد ذلك حمى وجنتيها بزجاج القنينة المثلج.

راودها إحساس بأن مارتا ماتاراسو موجودة في الغرفة نفسها وأنها تعرض عليها الفراش المضمخ بالدم. وفي الغيوم المتشابكة فوق البحر، رأت صورة دخان السيجارة التي كان يدخنها استيبان يوم جاء إلى المتجر، وإبرة الخيّاطة الفرنسية تخزها فتنفر قطرة دم صغيرة من نهدها. وتلك الصورة التي في الظل هي وجها أنطونيو ومجدلينا ينتظران منها أداء أنثى فعالة. صفارات السفن النمساوية والصرخات الآمرة رفعت الستر عن القرية. ولم تعد هناك سوى جلبة قوات عسكرية حيث كانت الريح تصفع أشجار اللوز.

خلع زوجها حذاءه المصقول، ووضع قدميه فوق حافة السرير لتهويتهما، وبقي متأهباً. لا يمكن لأي شيء أن يتدخل الآن للتسبب في إخفاق مأثرته الصغيرة. لقد علمه تاريخ خمسة عقود من الحياة بأن الإيقاعات العاطفية لا تتوافق على الدوام مع إيقاع اندفاعنا. فقبل عشر سنوات أرادت مارتا ماتاراسو في هذه الحجرة نفسها القيام بدور البهيمة المطفأة؛ فأطلقت الصرخة الكامنة في جسدها، وكان عليها أن تصالح اللذة مع الموت. خفق تلك الفاجعة يبقيه متحفزاً.. بل ومتخاذلاً تقريباً.

- كم من زجاجات الشمبانيا لدينا يا جيرونيمو؟

- الكثير. ولكن هذه وحدها هي المبردة. ماذا أصابك يا آليا إيمار؟

- هواجس.

- أية هواجس؟

فتحت الفتاة النافذة شاكرة النسيم البارد الذي سكّن توقد أذنيها. كان أحد أحصنة زوجها ينام وهو مربوط إلى الحاجز الخشبي.

- هل أنت خائفة؟

- لا. ولماذا أخاف؟

- صفارات السفن، صرخات الليل. ما قاله الناس طوال سنوات عديدة.

- مارتا ماتاراسو كانت لها عروق شفافة. يقال إنها حين تناولت نبيذاً أحمر في حفلة زفافها، رأى الناس كيف كان السائل ينزلق في زورها.

- إنها حكايات يرويها الناس. فعندما تمر سنة على واقعة، يتحول كل شيء فيها إلى أسطورة. حتى هذا التسويف الذي نحن فيه الآن، سيتحول غداً إلى أقاويل في القرية.

- متأسفة.

- لماذا لا تأتين إليَّ؟

- إنني أشرب شمبانيا.

ذهب إليها. قرعا زجاج كأسيهما. أمسكت الفتاة رقبته وأراحت جبهته على كتفها العاري.

سألها جيرونيمو بصوت مبحوح:

- هل تحبينني؟

- إنني زوجتك.

فابتعد مجروحاً:

- لم يكن هذا هو السؤال.

- أحب...

- قولي ذلك مرة واحدة، ولو بدافع الشفقة!

- أحب شيئاً غير مؤكد.

- لست أفهمك يا آليا إيمار. اذكري اسماً!

- لا وجود لأسماء.

- انت مخمورة إذن.

- إذا كنتُ مخمورة الآن، فهذا لأنني كنتُ مخمورة على الدوام.

- وبأي شيء كنتِ مخمورة أيتها البهيمة. إذا كان الشيء الوحيد الذي تشربونه في كوخكم هو حليب العنز.

أخرج النمساوي الزجاجة من السطل الفضي وشرب منها مباشرة مبللاً ذقنه وصدره العاري.

- سرك. أكره سركِ لأنني لا أدخل فيه. كم كان من الأجدى لي أن أكون واحداً من بغال ضيعتك الأجلاف هؤلاء الذين لا يتطلعون إلى أكثر من لعب لعبة الأوتاد وشرب السليبوفيتش. ما الذي نفعه موزارت؟ وما الذي تنفعه النجوم بحق اللعنة المقدسة؟

- إنها علامات تدل على شيء.. توجه البحارة.

- آليا إيمار، ها أنذا بين يديك.

- التشوش هو أسلوبي في التفكير.

ذهب الرجل حتى الباب وفتحه بدفعه بكتفه. كان يحمل في يده زجاجة الشمبانيا والكأس. خرج إلى شرفة المتجر الأوربي، صوب نظره إلى الغيوم وشرب ورأسه مستند إلى الجدار. ثم صرخ لكي تسمعه القرية بأسرها:

- يا للعرس الخرائي!

ولكن القرية كانت قد تبعثرت نحو أماكن مجاورة أخرى.. تحللت في شواطئ نائية.. ارتحلت في زوارق.. توارت ما بين صخور وجبال.. هربت دون وجهة على الدروب الريفية.

مولينهاور وحده، بذقنه الحليقة جيداً في هذه الساعة، وعينه المتيقظة على صمت القرية المنفية، هو من سمع الصرخة، وتساءل عمن يكون هذا الشاكي الجاحد الذي يتجرأ على ازدراء السهرة التي مازالت بقاياها تملأ الشوارع بالعلب والزجاجات والسكارى ونوتات ألحان الفالس والتورومبا.

في الساعة السابعة صباحاً دخل بوقار إلى صالون الأوربي ووجد الزوجين معلقين في الزمن مثل لوحة هولندية. هالة من الغياب وبقية غم تتسل من ذلك الصمت، وبدا له أنه يرى شيئاً قذراً في لوحة الظلال الليلية المنسحبة أمام الشمس القوية.

رفع جيرونيمو بصره نحو مولينهاور وجنوده كما لو أنهم هم أيضاً خارج العالم. ولم يجد لهم معنى ضمن ذلك الصباح الذي يمكن له أن يفتت الأرض مثل نيزك، ولن يهمه حدوث ذلك، بل إنه فكر: «سيكون ذلك أفضل»، بينما كان الجنود ينتشرون في الحجرات بحثاً عن مزيد من الوطنيين، مرتابين بأن الحفلة قد تواصلت في المخدع الزوجي. لو أن ذلك حدث في يوم سابق لهزيمته هذه، لكان صرخ بأعلى صوته، وألقى بالعسكريين متدحرجين في منحدر الشارع المعفر. ولكن إخفاقه الزفافي أوقعه في خمود جعله يُغرق مولينهاور في جرعة من عدم المبالاة. رجعوا إلى الصالة حيث كانت العروس بكل زينتها تدور بإصبعها على حافة كأس الشمبانيا. تلك الإصبع التي تدور كانت تشبيهاً دقيقاً للكمين الذي وقع فيه الزوجان. فقد انقضى الليل على ذلك النحو، وسط دموع، وصمت، وشتائم تخرج لاذعة وتنسحب بخجل قبل أن يفقدهما الغضب توازنهما.

صفق مولينهاور بيديه مطالباً بالانتباه. أدار جيرونيمو عنقه نحوه وتفحصه دون رغبة من قبعته المزركشة حتى جزمته اللامعة، ماراً بخديه الحليقين، وبرائحة ماء الكولونيا البارد والرخيص. ومع أن العسكري لم يتكلم، إلا أن جيرونيمو أحس به مثل صرخة مدوية في حجرته.

- أفهم أن هناك شيئاً مشتركاً بيني وبينك يا سيد فرانك.

فضغط صاحب البيت أنفه وهو يقول:

- أشك في ذلك. فليس هناك أي شيء مشترك على الإطلاق بيني وبين العسكريين، والواقع أنه لا يوجد ما يجمع كذلك بيني وبين الأفظاظ الذين يدخلون البيوت دون استئذان.

- على الرغم من سخريتك المستترة أيها السيد، أرى أنه يتوجب علي أن أخبرك بأننا، أنا وأنت، نخدم الإمبراطور نفسه.

- لا أعرف كلمة «خدمة» وليس لي من إمبراطور آخر سوى رغبتي في عمل ما أشاء متى أشاء.

- ولكن ليس عندما تكون بلادنا في حالة حرب يا سيد فرانك.

- حرب ضد من؟

- ضمنياً، هي حرب ضد عدة بلدان؛ وأما صراحة، فهي حرب ضد الماليسيين الآن.

- يا للحرب البطولية! أسطول أشبه بالأرمادا التي لا تُقهر للهجوم على قرية عزلاء ومسالمة همها الوحيد هو عدّ الأمواج التي يدفعها البحر على الرمال.

رأى مولينهاور مقعداً على بعد نصف متر يغمره ظل لطيف. أحس بالرغبة في الجلوس هناك، وتحويل المحادثة إلى حديث رفاق وأبناء بلد واحد، ووضع قبعته الفاخرة على ركبتيه، والاعتذار عن دخوله الفظ هو ورجاله إلى البيت.

- أتسمح لي بالجلوس؟

- ليس لدي ما يشجع على ذلك أيها الجندي.

- إنني القائد يا سيد!

- أهنئك. يبدو واضحاً أن الصفاقة قد أصبحت رتبة في وطننا.

أخفى حيرته ومذلته بالنظر بحذر إلى آليا إيمار، كما لو أنه يتوقع صدور إهانة أخرى منها. كانت الفتاة قد نزعت طرحة الزفاف وراحت تشم علبة بنّ فتحتها للتو. تخلصت من حصار نظرات العسكري بالتوجه نحو موقد لكي تغلي الماء، ووضعت البن في فنجانين لتعد القهوة على الطريقة اليونانية. بدأ الجنود العائدين من تفتيش الغرف بالاصطفاف حول قائدهم.

- يا سيد فرانك - قال القبطان مضفياً نبرة ميلودرامية على صوته - إنك واقع في مشكلة كبيرة.

- وما الذي تعرفه أنت عن مشاكلي أيها الرجل الصغير!

- لقد وفرت الوسائل لكي تهرب جماعة من الماليسيين، قتلة جنودنا،

إلى إيطاليا.

- آه، لا أيها القائد. لقد استولوا على يختي بالقوة وهربوا.

- وبقيادة ملاحك الخاص، مدير الدفة الإيطالي؟

- حسن، أنت تعرف كيف هم النبوليتانيون. لا بد أنه قد باع السفينة الآن في بيساكا لثري من فينسيا.

- مواطني العزيز: ما يوجه إليك في هذه اللحظة بالذات هو تهمة الخيانة الوطنية.

- لهذا الكلام إيقاع أوبرا.

- ولكن العقوبة ليس لها أية علاقة بمشهد «ساينت»[1] يا فرانك.

- «السيد فرانك» من فضلك.

- يا سيد فرانك.

- وما هي العقوبة على هذه الجريمة؟

- محاكمة سريعة والإعدام.

تمطى جيرونيمو في المقعد متثائباً، ثم اتجه نحو الموقد وأوقف يد آليا إيمار التي كانت تحاول إمساك إناء القهوة بيدها العزلاء.

- مازلتِ لا تعرفين أدوات مطبخي. الماء يغلي في هذا الإناء بسرعة أكبر مرتين من أي إناء آخر، ولكن ذراعه تسخن مثلما يسخن قعره. لذلك عليك أن تمسكي به دوماً بخرقة.

فعل الرجل ذلك وسكب الماء المغلي قطرة قطرة في الفنجانين الصغيرين.

- وبالمناسبة، إنه هدية من البروفسور تورينتيس.

عاد مولينهاور إلى التصفيق بيديه لكي ينتبه إليه. وقال:

- هل تعرفت حضرتك على البروفسور تورينتيس؟

- لقد حظيت بالشرف الكبير في التعرف على البروفسور اللامع تورينتيس.

- الذي هو في الأصل من لوغرونيو.

---

[1] ساينت sainete: مشهد تمثيلي قصير يهدف إلى الترفيه بتقديم مواقف هزلية.

- ماذا هناك بشأنه يا رجل؟

أحس مولينهاور لأول مرة بأنه يعود ثانية إلى الوقوف على أرض صلبة. وحك بطرف حذائه وخزة أحس بها في ربلة ساقه الأخرى.

- لقد مات يا سيد فرانك.

اقترب هذا نحو الطاولة، ووضع فنجان القهوة الساخنة على الشرشف، ورفع الملعقة الصغيرة.

- غير ممكن أيها القائد. فقد شارك في الليلة الفائتة بكل سعادة في حفل زفافي.

- يسعدني أنك عدت إلى مناداتي بلقب «القائد». إن هذا يعيد بعض الرسميات التي تليق بالسادة. هل يهمك أن ترى جثة صديقك تورينتيس؟

- أفضل أن أراه حياً. فلا تتلاعب بمشاعري.

تفادى الجنود نظرة تواطؤ من قائدهم وخرجوا من الغرفة لبرهة. دنا جيرونيمو من آليا إيمار وضغط بشدة على يدها. بدأ إناء القهوة يصفر، وكان مولينهاور نفسه هو من أطفأ النار.

أحضر أربعة رجال جسد المخترع المثقوب بالرصاص، ووضعوه باستياء على السجادة، ثم رجعوا للاصطفاف حول قائدهم، ونظراتهم مصوبة إلى أحذيتهم. جثا جيرونيمو إلى جانب العالم ورفع رأسه ببطء وقربه من وجهه وألصق شفتيه للحظة ببشرة العجوز الباردة. ثم ابتعد بعد ذلك بنعومة، واتجه إلى زوجته وهمس في أذنها بأن تنسحب إلى غرفتها.

فقالت له الفتاة هامسة:

- أريد أن ألقى مصيرك نفسه يا جيرونيمو، مهما كان ما سيحدث.

أزاح زوجها خصلة شعر متهدلة على جبهتها ومنح نفسه لحظة ليتأمل هذا الجمال غير المسبوق في حبيبته.. عذوبة الإنهاك.. متاهة حب عويص.

- اذهبي إلى غرفتك أيتها الصبية. فالوضع قد يسوء هنا.

- لن يفعلوا لك شيئاً. فأنت نمساوي.

- هنا بالضبط تكمن المشكلة. فالتهمة هي خيانة الوطن.

لقد جلس مولينهاور الآن على المقعد، ووضع القبعة على ركبتيه، وأمال وجهه بدفع رأسه إلى الوراء على المسند ليتجنب شعاعاً من الشمس كان يسقط على حاجبيه.

– إنك تقودني إلى موقف حرج يا سيد فرانك. فقد حرمتني من تحقيق هدف حملة الصيد التي قوضتها بوضعك يختك تحت تصرف جماعة القتلة. واضطراري إلى إعدام أحد مواطنيّ يجرح قلبي النمساوي بعمق، وصدقني أنني لست ممن يسعدهم موت أحد أبناء بلدهم. ومما يزيد غمي هو اضطراري إلى إعدامك في يوم زفافك بالضبط، ودون أن تكون عروسك الرائعة قد استمتعت كما يبدو بمنافع حبك.

استعجلها جيرونيمو وهو يمد إليها مفتاح غرفة النوم في قبضته:

– انصرفي إلى غرفتك يا آليا إيمار.

فقال القائد ساخراً:

– هذا يعني أنه سيكون من البربرية تحويل العروس إلى أرملة.

وقالت آليا إيمار وهي ترفع ذقنها بكبرياء:

– أطالبك باحترام بلادي وزوجي أيها القائد.

– سأفعل ذلك يا سيدتي. أعدك بشرفي العسكري بأننا لن نلمس زوجك ولو بوردة من سيدة. سنأخذه إلى سفينتنا، ونقدم له قمرة تليق بمقامه، وسنطعمه ونقدم له الشراب كأمير، وعندما نصل إلى سالزبورغ ستتولى محكمة عسكرية البت في مصيره، ولا بد أن الحكم سيكون في مصلحته بفضل مساهمات مصرف فرنك في موارد الوطن.

– وكم من الوقت ستستمر هذه المحاكمة؟ - سألته آليا إيمار وهي ترفع المفتاح البرونزي إلى أسنانها وتعض عليه.

– البيروقراطية النمساوية ليست أسرع من المالية. خلال سنتين سترين عودته إلى البيت. أنت في التاسعة عشرة والعريس في الثانية والخمسين. إنه مستقبل واعد!

وبحركة تكسر اعتداله أشار إلى رجاله بأن يعتقلوا فرانك ويقيدوا حركته بالقوة. ووجهت جماعة من خمسة جنود بنادقها باتجاه آليا إيمار بعد تلقي غمزة من قائدهم.

- لقد أصبحت حياتك بمنجى من الموت عملياً يا جيرونيمو فرانك. ولكن يتوجب على عاهرتك الماليسية بالمقابل أن تكون كريمة مع فتياني.

فصرخ جيرونيمو وهو يحاول التخلص من الجنود الذين يحتجزونه:

- لا يمكنك عمل ذلك أيها القائد.

- أنا لن أفعل ذلك يا ابن بلدي. فلست أحب مضاجعة الهنديات. أما هؤلاء الشباب فلا وساوس لديهم.

اقتاد الجنود الزوج إلى الشارع الترابي، وأوقف أحد البحارة الفتاة الراكضة نحو زوجها بصفعة على وجهها. تظاهرتْ برفع يدها إلى وجهها المضروب، ودون أن تتيح للجندي الوقت للدفاع عن نفسه غرست المفتاح البرونزي في عينه. صرخ الجندي الشاب من الألم، وانقض زملاؤه على آليا إيمار يمزقون ثوب زفافها.

بقي جيرونيمو يسمع صرخات آليا وشتائم الجنود إلى أن فصله صمت قاطع عن المشهد. لم يعد يسمع الآن سوى وقع كعوب الأحذية على الأرض المبلطة، وأنفاس مولينهاور المتهدجة وهو يقود جماعة الجنود نحو المرفأ والقرية المقفرة، هذا العش المتواضع الذي ساقته إليه الأقدار في أحد الأيام.

وفي زخم تلك اللحظة تذكر الليلة التي رأت فيها آليا إيمار أسطوانةً ذات بطاقة حمراء تدور في الفونوغراف وسمعها تقول «موزارت» وهي في حالة من النشوة، وكما لو أن كلمة السر تلك هي المفتاح السحري لفهم الحياة في بعدها السوي الذي صاغه الرب. فقد صاغ الخالق الكون تاركاً لرجال الكوكب ونسائه عملاً غير مكتمل. ولم يعد بإمكان أحد أو شيء أن ينأى بتفكيره عن محاولة فهم الكمال. إننا نبحث عن أسس وجودنا في ما قد مضى، ونثبتها في بدايات ونهايات، قال ذلك لنفسه ووجنتاه تتوقدان بالدموع. ولكن لم يكن ذلك هو ما شاءه الرب يا آليا إيمار.

استنشق بعمق الهواء الذي يأتي في دفقات من البحر.

- هل لاحظت ناقوس برج كنيستنا أيها القائد؟

أطبق مولينهاور يده على مقبض سيفه، وألقى نظرة سريعة على المعبد.

- ثباته في هذه الحال هو معجزة.

فرد جيرونيمو:

- إنه معجزة. كم أرغب في أن يُقرع الناقوس في هذه اللحظة.

- لا توهم نفسك. فالجميع غادروا القرية. بمن في ذلك الخوري الذي طلب تدخل البابا.

- أليس هناك من يقرع الأجراس؟

- أؤكد لك ذلك يا سيد فرانك.

- في بعض الأحيان تُسمع أربع دقات دون أن يحرك أحد الحبل.

- هذا يتطلب منا الانتظار حتى الساعة الرابعة، وأنا مستعجل في العودة إلى البيت.

- آه، لا. دقات الناقوس ليست بهذه المنطقية. إنها تُقرع أحياناً ببساطة. وقد يحدث ذلك في أي ساعة.

ترك جيرونيمو الريح البحرية المالحة تجفف دموعه على خديه. واتخذ مولينهاور مظهراً وقوراً، وأومأ لفرقة البحارة لكي تخفف من الخشونة التي تقتاد بها الأسير.

- إنني مدين لك بتوضيح يا سيد فرانك. أريد أن أقول لك إن كل هذا الذي حدث ما هو إلا تداعي وقائع مؤسف، وأنا لستُ إلا مجرد...

- ... مجرد «جندي» يا مولينهاور.

- جندي! أمروني بتنفيذ عمل رهيب، عمل لا يُبقي لدى الماليسيين أي رغبة في التمرد على الإمبراطورية إلى الأبد. إعدام الشبان الذين فروا في يختك كان سيشكل نجاحاً باهراً بالنسبة لي. ولكنك حلت دون ذلك يا ابن بلدي.

- أفهم ذلك.

- وواجبي هو الذي أوحى إلي باللحظة العصيبة التي مرت بها زوجتك. إنها ليست منا، والحدث، ضمن ما أحاط به من بهجة حفلة الزفاف، والاحتفال القيامي، سيكون أسطورة تستمر قروناً.. سيكون تاريخاً يا سيد فرانك. وأنا مجرد جندي... جندي ينفذ عملاً رمزياً.

وصلوا إلى الشاطئ، وكان الرمل مغطى ببقايا نباتات بحرية وأصداف

محار ألقى بها البحر في الليل. فعرقلت هذه الأشياء مسيرة الجنود نحو الزورق الذي سيحملهم إلى سفينة القيادة. وعندما لامسوا الماء، توقفوا بانتظار اقتراب المجذف بالزورق.

تأسف الأسير لأوردته المائلة إلى الحمرة، ثم رفع ذراعيه في وجه الريح المحسنة. ودنا عندئذ ليقول بسرية لجلاده:

– هل يمكنك أن تكون وطنياً يا ابن بلدي وتسمح لي بتحقيق رغبة كبيرة؟

– أجل، إذا كان بمقدوري تحقيق ذلك.

– ما أتلهف إليه هو ملك يدك تحديداً: إنه مسدسك أيها القائد.

– سلاح خدمتي؟

– لا يذهبن بك الظن إلى أنني أريد أن أواجه أسطولك الذي لا يهزم بكامله.

– آه، لا. ولكن إذا كان هذا هو قرارك، فيمكنك الحصول على المسدس. خذ.

– وأريد أن أطلب منك معروفاً أخيراً من أعماق روحي، هل تسمح لي بأن أجذف في الزورق وحيداً باتجاه سفينتك؟

– هذا طلب غريب. ولكنني أتفهمه من جهة أخرى. كل هؤلاء الشبان حساسون جداً.

– لك قلب من ذهب أيها القائد مولينهاور – قال فرانك ذلك وهو يتقدم نحو الزورق ويدفعه باتجاه المياه العميقة. ثم ركب فيه ووضع المسدس على حبل ملفوف، وبقي لدقيقة يضبط التجذيف في الميمنة والميسرة. وبينما هو منهمك بذلك سمع صوت القبطان الجاف وهو يضع يديه حول فمه صارخاً:

– يؤسفني أننا تعارفنا في هذه الظروف يا سيد فرانك. فلو أتيح لنا الوقت لتمتين علاقتنا لكنت عرفت بأنني لست شخصاً سيئاً.

وافق فرانك على ذلك مبتسماً، وعندما صار على بعد أمتار قليلة عن الشاطئ، انقض على المجذافين بغضب عبدٍ مجذف وسمح لدموعه بأن تسيل ممزوجة بالعرق، بعد أن صار بعيداً عن أنظار جلاديه. بصق على

الزبد اللعاب المر الذي يجمّد فمه، وفك حذاءه اللامع، ملاحظاً بسخرية أن إحدى فردتيه ملوثة بلطخة كبيرة من كريما كعكة الزفاف.

توقف عن التجذيف، ووضع المجذافين على طول الزورق مثل صليب، استنشق هواء وافراً، متأكداً برضى من مرونة رئتيه السليمتين، أرهف سمعه متوسلاً حدوث معجزة دقات الناقوس الأربع، وتحسس جسده آملاً في أن يكون قد احتفظ بسيجارة.

ولكن لم يكن ثمة تبغ ولم يُقرع الناقوس.

وضع جيرونيمو فرانك فوهة المسدس فوق جيب قميصه وأطلق بفعالية على القلب.

- 35 -

- في أحد الأيام أحبني أحدهم في تشيلي، ولم أحبه. - قالت القنصل المسنة ذلك وهي تتحرك مثل كاتدرائية مأتمية بين الأثاث الباهت من الشمس - وفي مرة أخرى أحببتُ في إيطاليا ولم يحبوني. بأي مقياس يمكن قياس وحدتي؟ الناس يتذكرونني في وطني بملابس الريف وتنورة مملوءة بفتات الخبز. منذ سنوات لم أرجع إلى هناك. ماذا يمكنني أن أخبركم عن بلادي؟ أنها بلاد خفيفة، متقلبة. وهناك جرح نحيل يقطعها من أقصاها إلى أقصاها. ولماذا أعود إليها؟ في اليوم الأول سيخرج الناس إلى الشارع ليقولوا ها هي ذي «الإلهية». وفي اليوم التالي سيعلقون «ها هي ذي». وفي اليوم الثالث سيبصقون من بين أنيابهم ويقولون: «ها هي ذي مرة أخرى عجوز البراز».

جلست بأبهة كردينال وجالت بعينيها الرماديتين على جماعة الماليسيين. وأخبرتها حاسة شمها مقدماً بأنه ليس لديهم أية ملابس إضافية، وأن رأس مالهم الوحيد هو هذه القمصان المضمخة بعرق القطارات الريفية الإيطالية. ولكن فضولها دفعها إلى الرغبة في معرفة ما يحملونه في أكياسهم. فأومأت إلى رينو كوبيتا لكي يفتح كيسه ويعرض محتوياته: لفافة من خيوط القنب للصيد، سكين صدئة، وسكين أخرى حادة النصل، وصورة امرأة شابة لها نظرة ذاهلة كمن هي مستسلمة للموت، وزوج من الأحذية الجديدة ربما هي أصغر بنمرتين من قياس قدميه العاريتين الطافحتين بالأورام.

- لدي استمارة أسئلة صارمة قبل منحكم تأشيرة دخول إلى وطني. ما الذي تبتغونه من الذهاب؟

فقال رولاندو الطويل:

- السلام يا مادونا. نريد السلام وملعباً لكرة السلة.

- وما الذي يدفعكم إلى الظن بأنكم ستجدون السلام في تشيلي؟
- البعد.
- هناك لعنة تحلّ بكل البشر الذين يريدون السلام. فهنا توشك أن تندلع حرب، وقد وضع العسكريون أحجاراً في أفواه الناس. إنهم بُكم. ألسنتهم مثقوبة. وفي بلادي البائسة يجهلون نصف أوربا وآسيا كلها، ولكنهم يبدون آراءهم حولها بحماس لا يُجارى.
وقال رولاندو الطويل:
- هل لديك عمل كثير يا مدام؟ أتريديننا أن نرجع في يوم آخر؟
- إذا ما رجعتم في يوم آخر فسيكون علي أن أنزل من الطابق الثاني مرة أخرى، وستتعفن ساقاي في الطريق.
- هل تشعرين بالمرض يا سيدتي؟
- أشعر بالوحدة.
استغرقت فجأة في مراسلاتها الرسمية، واستطاعت الجماعة أن تلمح أنها تملأ ورقة بأرقام تسجلها بحبر أسود. بقيت ساهية لبعض الوقت عن جماعة المهاجرين وهي تجمع وتطرح بصوت خافت.
- إنهم مدينون لي برواتب ثلاثة شهور. حقيبة حكومتي الدبلوماسية تصل في مواعيد فصلية: الربيع، الخريف، الشتاء، ولا شيء سوى ذلك. Never more!. هناك من يكرهني في الحكومة. ربما يكون الرئيس نفسه. كم سعر كيلو البندورة الآن؟
- لا نعرف يا صاحبة السعادة. نقودنا لا تُقبل في أي مكان.
- هل لديكم ورقة نقدية منها؟
أشار رولاندو إلى استيبان كي يريها ورقة نقد. فتفحصتها السيدة القنصل وحكت جبهتها الجنوبية التي تشبه جبهة جنرال متجهم، وسألت:
- ومن هو هذا الأبله؟ سأتقلب في قبري إذا ما طُبعت صورتي على أوراق النقد يوماً.
أخرجت قطعاً نقدية معدنية وطلبت من رولاندو الطويل أن يذهب إلى السوق ويشتري ثلاثة كيلوغرامات من البندورة، وخستين وشيئاً من العلف.

- أيها السادة، أنتم ستذهبون إلى بلادي، وعلي بالتالي أن أقدم لكم عشاء تعويضياً مسبقاً. وبينما أنتم تلتهمون سلطة خضار إيطالية سأتولى أنا إعداد أوراقكم. مع أنكم تبدون أشبه بجماعة من المجرمين - وأشارت باتهامية إلى استيبان - على الرغم من عذوبة عيني هذا الصغير.

- إننا أناس محبون للعمل يا سيدتي. أناس شرفاء.

- أجل يا بني. شرفاء بقدر ما هم شرفاء أولئك الإسبان المتأنقون الذين أسسوا بلادي. لقد ضاجعوا الهنديات وملؤوا تشيلي بأولاد الزنا، ولكنهم عندما أرادوا الزواج أرسلوا في طلب آنسات من مدريد. والمرة الأخيرة التي ذهبتُ فيها إلى إسبانيا قال أحدهم في خطاب «تكريم» لي بأنني قد شكرت الإسبان الذين أقاموا تلك العلاقات مع الهنديات. وعندما أردت توضيح أقوالي، نهض شخص فج له وجنتان منتفختان من النبيذ، وقال: «ما لا تعرفه هذه السيدة هو أن الإسبان لم يضاجعوا الهنديات هناك إلا لأنهم لم يجدوا قروداً.»

رفعت السيدة مؤخرتها بمشقة، ومنحت لنفسها هنيهة لكي تعيد ترتيب عظامها، ثم مشت بخطوات غير منتظمة نحو استيبان، وقربت عينيها من حدقتيه الزرقاوين. ثم استندت إلى أحد كتفيه حين غشاها دوار، وقالت له:

- أنت غامض جداً. ولكنك تعبق برائحة إسطبل. اذهب إلى تلك الغرفة وانتظرني. أما أنتم، فساعدوا دون كيخوتي في إعداد لوازم السَلَطة.

فقال لها استيبان كوبيتا متألقاً بكل ما يعرفه من الإيطالية مئة بالمئة:

- Non capisco[1].

بينما كانت جماعة المهاجرين تنتشر في القرية، نظرت المرأة بشفتين متهدلتين إلى السفن التي تدخل خليج جنوة، ثم أدخلت استيبان إلى الحمام، وفتحت على حوض الاستحمام دفقاً من الماء الساخن فغطى الغبش خلال برهة قصيرة الزجاج والبورسلان.

---

[1] بالإيطالية: «لم افهم».

ذهل الشاب لهذا السائل الذي يبدو وكأنه يخرج من فرن تحت أرضي.

عندئذ قدمت إليه المرأة روباً من نسيج سميك وأبيض، ووضعت أملاحاً تحت الماء المتدفق فأحدثت زبداً لبنياً، وأومأت إليه بإشارات واضحة أن يتعرى وينزل في الماء. احمر استيبان خجلاً، ولكنه استطاع أن يتأخر متظاهراً بالاهتمام بالبخار وبصور جبل قاحل على الجدران، إلى أن خرجت السيدة من الحجرة. وعندئذ تخلص الفتى على الفور من حقيبة كوبيتا العجوز الجلدية التي كان يعلقها على كتفه، ومن القميص العابق برائحة فلاح، ومن الحذاء ذي المقدمة المفتوحة لتمكين الإصبع الكبرى من التعبير عن نفسها بحرية، ومن ملابسه الداخلية التي قرر أن يغطسها على الفور في الماء ليتفادى تفاقم حمرة خجله إلى حد قد يحرق معه وجهه.

وبقدر ما كان التعري سريعاً، كان النزول إلى الحوض بطيئاً. فقد كان الماء الساخن يحرق قدمه التي رأى أنها تكتسب حمرة سرطان بحري، وبحذر أكبر بكثير أدخل قدمه الثانية مثل متسلق جبال يبحث عن نقطة استناد في صخرة مقلقلة.

ولكنه عندما دخلت القنصل حاملة قميصاً أزرق فيروزياً على صينية، غطس إلى أسفل ليخفي عدته خجلاً. راحت المرأة تغرف الماء من الحوض بكفيها وتسكبه على شعر الفتى الأشعث، ثم وضعت عليه شامبو مصنوعاً من مح البيض وبدأت تفرك رأسه بنعومة انتهت به إلى الاسترخاء.

قالت الدبلوماسية:

- أنت وأنا علينا أن نتبادل الكلام. ولهذا السبب أرسلت كل قواديك إلى السوق.

- Non capisco, signora.

وواصلت كلامها دون مبالاة:

- أنت وأنا لدينا همّ كبير يثقل علينا. فالنكبات استنزفت عيوني وصرت أكاد لا أميز الأشياء بين الظلال. أما أنت فتحمل البكاء مثل لهب

في عينيك. أي محنة تثقل عليك يا فتى؟

- Signora, veramente, non parlo italiano[1].

- إنني أكلمك بالإسبانية أيها الأبله. وهكذا سيكلمك الناس في تشيلي.

فابتسم استيبان:

- تشيلي.

- أنا...

- مادونا...؟

- أنا أحمل كرب ميتتين. واحدة في تشيلي، وأخرى في البرازيل.

- تشيلي يا سيدتي.

- وكرب الوحدة. وهي موت ينمو كل يوم. إنها نبتة نهمة. «الوحدة»، الجحيم كله متضمن في هذه الكلمة.

اعتذر الشاب عن حيرته بالابتسام، وتناولت هي ماء من الحوض بإناء وراحت تسكبه على شعره. ثم وضعت رأسه على حافة الحوض وأومأت له بيديها البطيئتين أن يسترخي.

- استرخ يا استيبان. لقد كان تبادل الحديث معك ممتعاً. فأنت لم تعارضني ولا بكلمة واحدة.

الآن، في سكون هذه الحجرة في الفيلا القديمة التي بدت له فخمة وفاخرة، تمكن الفتى كوبيتا من التنفس بعمق، وأراد أن يلخص في لحظة مراحل حياته التي قادته إلى هذه البرهة. وكانت النتيجة الأكثر جلاء هي أنه ما يزال حياً. وطابق على الفور ما بين لقيته تلك ونظرة واعية إلى القميص الأزرق قائلاً لنفسه إن هذا كله لا يهمه في شيء. وربما كان الموت أكثر رحمة من غياب آليا إيمار الذي يجرحه ليلاً ونهاراً دون أن يحدث به طعنة قاتلة. كيف وصل إلى هذه الخاتمة؟ فحياته تبدو وكأنها قد بلغت حدودها القصوى وهو في العشرين من عمره.

كان يسمع السيدة تقول «تشيلي»، «الوحدة»، فيداهمه خواء شامل

---

[1] بالإيطالية في الأصل: «سيدتي، حقاً أنا لا أتكلم الإيطالية».

يكمل ألمه. لا شك في أن موته وهو في عز الشباب سيكون مقرفاً، ولكن لماذا التمسك بمزقة الحياة بكل هذا الخنوع. هل كان عليه أن يجاري أخاه رينو وأتباعه؟ أم كان عليه أن يهرب من سواحل ماليسيا مع آليا إيمار منذ أول يوم أحبها فيه؟ وكيف سمح للخجل والبلادة أن يقيدا لسانه وسلوكه بتلك الحال؟ وكيف توصل إلى استئصال تحرقه إليها مفسحاً المجال لجيرونيمو بالتسرب إلى حياتها؟ جيرونيمو وموزارت. وكذلك الكتب.

ومع تناسب حرارة جسده مع حرارة السائل الذي كانت حرارته تخف ببطء، أحس بأن الاسترخاء والجوع يضعانه على حافة الغيبوبة. عرف أنه يستطيع مقاومة ذلك بتجفيف نفسه بالمنشفة البيضاء ثم تمعن بعد ذلك كيف سيتناسب القميص الأزرق الفيروزي مع زرقة نظرته الكوبالتية. ولكن حاجته إلى هدنة استنفدت عضلاته باختلاط عدواني. حمل الدوار كل الدم إلى قدميه، وفقد الوعي وهو يفكر بكم هو جميل عدم التألم.

في أثناء ذلك كانت السيدة القنصل تقرأ في ملف من وزارة العلاقات الخارجية أنه يجب ختم التأشيرات على جواز سفر، وأنه يمكن في غياب هذه الوثيقة، وفي ظروف استثنائية، إعطاء تصريح مرور مؤقت يتضمن على الأقل صورة حامله، وبصمات أصابعه، والمعلومات الأساسية، مثل تاريخ ومكان الولادة، والمهنة أو الوظيفة، والعلامات الجسدية المميزة، والأسباب التي تدفعه إلى الهجرة إلى تشيلي.

استعدت لتطبيق القواعد النظامية، وفتحت المغلف الذي يحمل عنوان «تصاريح مرور»، وحين وجدته فارغاً مثل كيس شحاذ، كتبت ملاحظة لإرسالها في الحقيبة الدبلوماسية التالية طالبة تزويدها بكمية كبيرة من هذه الوثائق، ذلك أن مئات ألوف المنفيين والهاربين واللاجئين سيطرقون أبواب قنصليتها، نظراً إلى الحرب التي أصبحت وشيكة أكثر مما هي محتملة. ثم ركزت اهتمامها بعد ذلك على علبة مغلفة بورق أحمر كُتب عليها «جوازات سفر» بخط أسود كبير.

لم تجد في العلبة سوى جواز سفر واحد في حالة جيد، يحمل على غلافه رسم غزال الويمول ونسر الكندور فوق الشعار الوطني. أثارت فيها رؤية هذه الرموز الوطنية شيئاً من الرقة الخفيفة، وبمبادرة ضد

بيروقراطية ختمت اسمها على صفحة الغلاف الداخلية وكتبت بالحبر الأزرق «جواز سفر جماعي»، جاهلة أنها بعملها هذا تخلق وثيقة فريدة ولا سابق لها في تشيلي.

وحين بلغت هذا الحد، وبعد أن أثار حفيظتها الوقت الذي بددته في عملها القنصلي المضني، تذكرت استيبان، ملاحها في اليابسة، وابتسمت وهي تتذكر الإشارة إلى شاعر إسباني صديق كان قد سبقها في تأليف كتاب شعري بهذا العنوان[1]. ذهبت إلى الحمام لتتجده بمنشفة أخرى بيضاء ذات نسيج خشن، وجدت الشاب يطفو فاقداً الوعي وسط البخار. استخرجت المرأة قوة لا تجود بها إلا في أشد لحظات غنائيتها حميمية، فوضعت ذراعيها تحت إبطي الشاب، وبحركة خبيرة مثل حركات المنقذين في منتجع سان ريمو، سحبته وألقت به عارياً على بلاط الأرضية الخزفي المزين بأغصان زيتون، ثم بادرت إلى نفخ الهواء إليه بفتح فمه بقوة وضغط رئتيه في الوقت نفسه لدفع دفقة من الهواء عبر الفم.

حين خرج استيبان من غيبوبته وفتح عينيه بلزوجة غائب عن الوعي، عانق المرأة التي أنهضته عارياً واقتادته إلى غرفة النوم. وعلى السرير الزوجي الواسع كانت الملاءات تعبق برائحة النداوة والخضار، ولمح استيبان تمثالاً لمسيح خشبي هائل يكاد يسقط عن صليب غير متقن. عندما وضعته في السرير وغطته بدثار أولي، ضغط الشاب على وجنتيها وقرب شفتيها إلى أن لمسهما بلسانه.

ابتعدت الآنسة القنصل ببطء وهمست له وهي تضع إصبعين على صدغه:

- لستَ عشيقاً. وإنما ابن.

---

[1] الإشارة إلى الشاعر الإسباني رافائيل البيرتي (1904 ـ 1999) وديوانه «بحار في اليابسة».

- 36 -

لم افهم قط العبارة القائلة «إن الكتّاب لا يبحثون عن موضوعهم وإنما الموضوع هو الذي يجدهم» بكامل أبعادها مثلما فهمتها هنا. وهنا وجدت نفسي في جنوة لبضعة أيام بانتظار إبحار عابرة المحيطات «أُبرا بريما» التي سأهاجر فيها إلى أميركا بعد أن ضجرتُ من المضايقات الأوربية التي لا تسمح لأحدنا حتى بالعمل مراسلاً لجريدة بائسة في سواحل ماليسيا دون أن يجد نفسه محاصراً برغبات مالكيها التافهين ومطالبتهم برقة الأسلوب والتهذب إلى حد يدفع بأوسكار وايلد نفسه إلى اختيار الصمت. وهنا أقول إن بائع فول سوداني نصحني بحماس بأن أبدد أيام انتظاري للسفينة بزيارة رابالو لرؤية برج سيفيكا وهو بناء إغريقي روماني مشيد في العام 1400، وبوابة سالبناس المشيدة عام 1700. وشجعتني على الذهاب كذلك خساراتي المتهورة في كازينو سان ريمو، وانهماكي في ملامسة سجادة الروليت بدلاً من تلك التحف المعمارية المذكورة.

أرسلتُ برقية إلى جريدة «اللسان» في أغرام قلت فيها إنني سأتغيب عن جنوة لكي أتابع في رابالو المحادثات السياسية المزعجة لفريقي سفورزا وترومبيتش اللذين يريدان تثبيت الحدود بصرامة من أجل تجاوز الخلافات الحدودية بين سواحل ماليسيا وإيطاليا بأسرع ما يمكن، ويتلخص اتفاقهما في منح «فومي» صفة دولة حرة في الأدرياتيكي، ربما خلال عقد من الزمان.

وحيث أن جميع المحررين الصحفيين بمن فيهم أولئك الذين يتنبؤون بنتائج سباقات الفروسية في الصحف، كانوا يعرفون أن هناك حرباً رهيبة آتية وأن التسويات الحدودية ستنهار مثل قلاع من ورق بعد مرور

العاصفة، فإنه لن يخفى على قرائي أن رسم حدود بقلم الرصاص لن تلبث أن تمحوها الجزمات العسكرية ما هو إلا استراحة الزاد الأخير لسفورزا وترومبيتش، المفاوضين اللذين لا يجدان في سواحل المتوسط ما يضر بصحتيهما.

وبينما كنت بالقرب من بوميريغيو، في رابالو، وأنا في طريقي إلى برج سيفيكا، التقيت فجأة وعلى حين غرة بجماعة فتيان ذوي ثياب رثة وذقون غير حليقة، طوال القامة مثل لاعبي كرة السلة، وتعرفت فيهم من النظرة الثانية على فصيلة فوضويين جامحة من الماليسيين الذين كنت قد كتبت عنهم مقالة متحمسة لصحيفة تافهة خبيثة، لن أذكر اسمها هنا حتى لا ألوث أعين قرائي، وتسبب ذلك المقال في انتقادي سياسياً وحرماني من راتبي عن الشهر الأخير، وإلغاء مهمتي كمراسل في جزر تلك المنطقة.

صخب أولئك الشبان كان يأتي من المدعو رولاندو الطويل، وهو نوع من الصورة الكاريكاتيرية لدون كيخوتي لا يستخدم يديه للانقضاض على طواحين هواء وأشرار، وإنما على طابات كرة سلة وغدة يدخلها في الهدف دون خطأ عن مسافة عشرة أمتار. وهو شخص يبدو لي لطيفاً لأنه يتقن الإسبانية وكل ما فيها من حروف «الثاء» التي تذكرني بجدي المولود في مدريد والمتخصص بصناعة السجق. وقد كان هذا الشخص الطويل متعاقداً مع فريق رياضي من اشبيلية طوال خمس سنوات وملّ من تسجيل النقاط قبل اللاعبين المحليين القصار، ومن النتائج المتناقضة التي أدى إليها ذلك: فقد كان فريقه يحرز البطولة موسماً بعد موسم من جهة، ولكن جمعية كرة السلة اقترحت على البرلمان من جهة أخرى أن يطلب تصريح إقامة من الماليسيين «الذين يخلون بالتوازن الطبيعي للمنافسات المحلية». وحين رُفض منحه ذلك التصريح، انتقل رولاندو الطويل بثاءاته وكراته عائداً إلى جيما حيث كان صيداً سهلاً للفوضوية ودعواتها إلى قضايا وطنية محلية صغيرة ومثاليات كونية كبيرة.

كان الماليسي المرح يمشي في شوارع رابالو الآن وهو يمارس لعبة بهلوانية بثلاث حبات من البندورة كل واحدة منها بحجم بطيخة، بينما رفاقه يحملون سلة بصل، وبعض سلال الليمون، وحزمة من الخس

الساحلي الذي يجعل الأسنان تقرمش بمجرد النظر إليه. بمثل تلك الحمولة يمكن إعداد سَلَطة جديرة بموظفين إمبراطوريين.

وفي النظرة الثالثة تعرفتُ عليهم بصورة تامة: إنهم عصبة المسرنمين الذين كانوا يتنقلون في مرفأ جيما متلهفين للهرب من قوات الأميرال مولينهاور الذي نظم أوبرا هزلية دامية باغتصاب فتاة عذراء وتوجيه قذائف مدافعه إلى برج أجراس الكنيسة المحلية، لا لشيء سوى إدخال «مخافة الرب» بين الأهالي، مثلما تروي اليوم في تقرير قصير جريدة «اللندن تايم». ويقول عنه التقرير إنه ملاح مرعب اقترب من الجزيرة بسفنه بعد العمليات وجر إلى الكنيسة ضحايا «عملية الثأر» من أجل تفادي أن تبقر الكلاب بطونهم بأنيابها.

قالت لي غريزتي الصحفية «هيا يا غوميز ستالكيرا لقد جاء الخبر هنا للبحث عنك» وإذا كانت جريدة تايم الإنكليزية الرعدية قد رفعت حاجبها حيال تلك الوجبة من الرعب مطالبة بعدالة سماوية لهذا الخرق الواضح لحقوق الإنسان، فليس غريباً على الإطلاق أن تهتم كذلك بمقالة مكتوبة بقلمي المجازي تروي بالتفصيل الدقيق مصير المتسببين بالمأساة.

فتحت ذراعي بابتهاج حقيقي وكأنني أريد أن أحتضنهم جميعاً وصرخت بهم بالماليسية:

- مرحباً بأبطال الوطن، وأهلاً بملائكة الحرية!

ولا شك أن سماع لهجتهم في ذلك المنتجع البحري الغريب قد استثارهم، إذ أنهم تقبلوا بسعادة تربيتاتي والسجائر التي وزعتها عليهم وأشعلتها لهم بسخاء مرشح للانتخابات. وبعد تدخين علبة سجائر قبل أن تعلن ساعة القلعة المطلة على البحر الثانية، استجوبتهم بمبادرة فلسفية خاطفة عن المغزى الوجودي لحيواتهم منذ هذه اللحظة، فاعترفوا بأن هناك سَلَطَةً هائلة في مستقبلهم القريب، وهي تشغل كل لهفتهم إلى «المغزى» تقريباً.

وسألوني بتضامن لذيذ عما إذا كنتُ بحاجة إلى جواز سفر، ذلك أن لهم علاقات ممتازة تمكنهم من الحصول عليه، وإذا ما كنت أوافق، مع الاعتذار من الفرق الطبقي والمكانة الاجتماعية، بمشاطرتهم تناول

السلطة التي ينوون إعدادها في حوض حمام القنصلية التشيلية، إذا ما كان الفتى استيبان قد أخلى غرفة الحمام. فقلت لهم أن يحسبوا حسابي، وأخفيت عنهم ما كنت قد قرأته للتو في جريدة التايم.

تجار ماليسيون مستقرون منذ الزمن الذي كانت فيه إمارة فينسيا تزرع شرق الادرياتيكي تبادلوا مع جماعة الشبان كلمات من لغة مسقط رأسهم في سوق الجبن في رابالو ومزجوها بتقدمات من جامبون بارما (غير أصلي)، وبندورة وخس وليمون، وعروق من الهندباء، وفلفل، وزيتون أسود ومرّ، وجبن معزى طازج، ولتران من زيت الزيتون النقي جداً، وعلبة سمسم محمص، وأداة لتقطيع البصل إلى شرائح رقيقة، وعروق بقدونس، وخردل يضرب به المثل مجلوب من فرنسا، وخل من توسكانا، وكيس أبيض مملوء بالجزر، ومزيد من الزعتر، ومن الفجل ذي القنازع الحمراء فوق كومة من البطاطا.

وقد استنتجت أن التجار الطيبين الذين يعرفون أن الأسلاف قطاع الطرق كانوا يبحرون إلى أميركا في سفينة شراعية جنوية، وتكرموا بهذه المزرعة كي لا يفتقد الفتيان الطعام خلال الشهر الذي تستغرقه الرحلة. أما هدف الشباب الوطنيين فكان أكثر سخاء من ذلك: فقد أرادوا أن يقدموا بتلك الخضروات شكرهم لقنصل تشيلي على الازعاجات التي تحملتها في إعداد جواز مرور لهم إلى نهاية العالم. وهذه العبارة الأخيرة ليست مجانية، مثلما قد يشير المنتقدون، فمن أجل جس نبض الشبان الجغرافي سألت الشاب رينو كوبيتا أين هي هذه البلاد التي لها اسم قِط. فرفع كوبيتا سبابته ومدها نحو الأفق بإصرار من هو مصمم على تجاوزه.

حين دخلنا القنصلية، وهي بناء من طابقين، متواضع ولكنه أنيق، لم تولني السيدة القنصل أدنى اهتمام. وقالت لنا بلهجة إيطالية خشنة وكئيبة إنه ليس لديها للأسف سوى جواز سفر واحد، لأن كيس الوثائق الحمراء الآخر أكلته الفئران مع ممتلكات أخرى تفضل عدم ذكرها بالتفصيل لأن ذلك يسبب لها غضباً شديداً، وقد ترجمتُ ما قالته للمهاجرين.

ثم قالت على الفور إنها في تصرف قنصلي غير مسبوق، ستقدم حلاً هرطقياً لكي نتمكن من الذهاب لتكسير ظهورنا في بلادها بأسرع ما

يمكن. وقالت لنا - وأنا أترجم - إنها ستعطينا جواز سفر جماعياً، مع اثنتي عشرة تأشيرة مختومة على صفحاته، وهو وضع ربما أدى إلى سلسلة من المشاكل تتمثل في: أولاً، إقالتها من العمل القنصلي أو تخفيض رتبتها إلى منصب ملحق ثقافي في بلجيكا؛ وثانياً، الافتقار التام إلى وثائق سفر صالحة في حالة نشوب الحرب ولجوء أحد الملوك أو الجمهوريين إليها طالباً جواز مرور؛ وثالثاً، الحالة التجميعية التي لا يمكن معها للجماعة أن تتفرق أبداً، لأن التفرق عن الجذع (أي عن الصورة الجماعية) سيؤدي إلى تعفن الثمار في وحدانية غير شرعية.

وقالت محددة: أنتم منذ اليوم اثنا عشر شخصاً «تقريباً»، مثل حواريي العشاء الأخير، ومثل فريق كرة قدم. ولم أجد رغبة في التدقيق بخطئها في كنف كلمة «تقريباً» التي قدمت لنا بها جبل خلاصة طويل ومتشابك.

وعندما قلتُ مستشهداً بدوماس «الجميع للواحد والواحد للجميع» انتبهتْ المرأة إلى أن ملابسي، وأسلوبي، وثقافتي، وسخريتي لا تتفق تماماً مع فتيان الضواحي أولئك الذين تخلت عنهم يد الرب. وبرفة رمش من عينيها الخضراوين، بدت وكأنها تشاطرني ابتسامتي، وربما فكرتْ بأنني مندس من قبل الحكومة المحلية سأقتاد الجميع إلى السجن بعد «العشاء الأخير». ثم رفعتْ حذاء كبيراً صارماً متوسط الكعب، ووضعت قدميها فوق طاولة صغيرة عتيقة، وأطلقت هواء على ربلتي ساقيها بهز مروحة ذات أسلاك ناعمة مزينة برسم لجميلة تحمل أزهار قرنفل على أذنيها وفي فمها، وطلبت من الرفاق أن يبادروا إلى إعداد السَلَطة على هواهم.

وفي هذه اللحظة انتشر الفتيان في البيت بحثاً عن أدوات وأطباق، ووجد رولاندو الطويل استيبان كوبيتا في السرير الوحيد والرئيسي بانتصاب في منتصف الملاءة وميزان حرارة منتصب كذلك في وسط فمه، يشير براحة إلى 38 درجة.

ألقى البطاطا بقشورها وبكل شيء في طنجرة وبعد غسل الخضار الطازجة، وضعها مجتمعة في حوض الحمام، وهناك بالذات، لتجنب ضياع رحيقها، قطعها وتبلها بشراهة راقية.

ولكي أرد على كل ذلك الكرم الذي عاملوني به، ذهبتُ إلى الحانة التي

عند الناصية وطلبت من صاحبها أن يملأ لي برميلين من نبيذ المنطقة الرخيص، وهو حسب قول العلماء ينفع جيداً في حفظ الحشرات في أنابيب الاختبار عند الافتقار إلى مادة أخرى. وأحضرتهما بمساعدة رولاندو الطويل الذي اعترف بإحساسه بظمأ طاغ لم ينفع في إطفائه ماء الشرب في القنصلية.

وعندما رجعنا إلى القنصلية كان استيبان كوبيتا نفسه يوزع حصصاً من سلطة الخضار في طست كبير مثل مذراة فلاحية ومغرفة فنية من القرن الخامس عشر مازالت بطاقة السعر بالجنيهات الإسترلينية تتدلى من قبضتها. وكان قد أخرج الأداة الأولى من خزانة المطبخ، أما الثانية فمن فترينة للمقتنيات الأثرية. ولم يبد على المرأة التأثر حيال كل ذلك الصخب، وبعد جولتين من النبيذ وجولة من السلَطة، طلبت من حفنة القراصنة أن يغنوا شيئاً من موطنهم، لتنشيط الجلسة بشيء من الفولكلور. وقد خشيتُ كثيراً أن تدفع السذاجة شخصياتي البربرية إلى غناء «كارامبامبا الفواكه»، ولكنهم حيال وقار السيدة القنصل، غنوا برقة نصاً كئيباً للشاعر نازار، تقول كلماته:

اصعد، اصعد أيها الشاعر نازار
إلى برجك الحجري.
اجمع الكلمات
مثلما يجمع الراعي الغنم.
لا تُخرج أي شكوى من شفتيك
شفتي العجوز العذب والحكيم.

مضغت الدبلوماسية حبة بندورة كثيرة الرحيق ملأت بشرتها القاتمة بحمرة جنسية غريبة، ثم نهضت ببطء تثاؤب، والتقطت شرشفاً مطرزاً يغطي خزانة المكتب، ورفعته في الهواء مثل جنرالة تستسلم، وأعلنت بصوت عميق، يكاد يكون صوت مُدَخنة، أنها ستكافئ فن الماليسيين برقصة وأغنية من موطنها يسمونها «كويكا». وبالرغم من أن نبيذ المنطقة كان قد أرخى ركبتي ورنح نبضي، فقد تناولتُ دفتر ملاحظاتي ودونت أصوات أغنيتها التي أطلقتها السيدة برتابة مملة، كما لو أنها تقول وداعاً لأحد بالشرشف الذي تهزه بيديها، بينما هي تدور في الغرفة ضمن دائرة ضيقة.

ويقول النص:

إذا ما سلبوني الحياة في البستان،

أيها الياسمين،

فسوف أصير أرضاً بالكامل

لكي تنمو فيَّ.

انصرف أيها الموت اللئيم،

فلا مكان لك هنا.

حين صمتت المرأة بقيت جماعة الماليسيين، وأنا معهم، مستغرقين في النظر إلى السقف، كما لو أن ملاكاً سيسقط من تلك الغمامة ويتولى أمر مصيرنا الإشكالي. وقد أحسست أنا أيضاً بأخوة تربطني بهؤلاء الفتيان الذين قتلوا باندفاع تحرري مفاجئ دعاهم إلى حماية موطنهم. وكان ذلك النضال من أجل الوطن هو الذي يلقي بهم الآن بعيداً عن مملكتهم المتواضعة.

- كم عددكم؟ — سألت القنصل وهي تفتح جواز السفر.

- اثنا عشر شخصاً معي يا سيدتي.

- هلموا إذن جميعكم إلى الساحة، وحاذروا أن يسقط أحدكم في الطريق.

كانت الساعة الخامسة مساء في رابالو، وكان السياح الألمان والسويديون ينزلون من فنادقهم ويمضون نحو موقع الاستحمام وهم يحملون مظلات واقية من الشمس ذات زخارف معقدة لتمييزها عن المظلات المخططة ذات اللونين التي تملأ الشاطئ. ولم يستطع أي واحد من أعضاء تلك الجماعات الشاحبة منع نفسه من الالتفاف عند رؤية قاطرة الرجال المشعثين ذوي الذقون غير الحليقة التي طالت في يوم مثلما تطول ذقون النساك في خمس سنوات، وهم يمسحون بقايا المايونيز بأكمام قمصانهم التي كانت بيضاء، تقودهم نحو برج سيفيكا سيدة ترتدي السواد، تحرك ذراعيها مثل ملاك وهي تحاول أن تشرح لتلك الغمامة من الرجال ذوي الماضي الضئيل والمستقبل غير المؤكد مقدار جمال المشهد الذي يحيط بهم.

وفي الساحة، جعلت القنصل الجميع يمرون تحت فجوة السور، وطلبت

من مصور الكاميرا - الصندوق في الشارع أن يباشر عمله، دون أن يهتم في هذه المرة بفنه وإنما بحشر الاثني عشر رجلاً في إطار صورته.

- الصورة العائلية تكلف الضعف يا سيدتي.

- ليست صورة عائلية. إنها صورة جواز سفر.

- جواز سفر لاثني عشر شخصاً؟

- اثنا عشر يا دومينيكو.

- ألا تريدين الظهور معهم أيضاً. سألتقط لكم الصورة بالسعر نفسه.

سأتوقف عند هذا التفصيل، لأنه بعد أن مرّ الماليسيون بأبهة أمام العدسة تحت شمس تقلي، نسجت محادثة مع الفنان المصور وقدمت له عرضاً مقابل النيغاتيف. فباعني إياه بضعف ثمن الصورة بعد أن حممها مطولاً بسوائله السرية، وقلبها في ماء التطهير المقدس، وهزها لكي تجف في ذلك المكان الراكد الذي ليس فيه نسيم يكفي حتى لحمل بطاقة ترام.

وضعتُ الصورة في دفتر ملاحظاتي يراودني حدس غامض بأنها قد تنفعني في شيء ما يوماً، مع أنني كنت واعياً أن أولئك الأشخاص لا يمكنهم أن يوفروا ولو مجرد ملاحظة صغيرة على هامش كتاب الرب العظيم. وباستثناء القنصل، بنظرتها الصقرية، ونشاطها غير المتوقع وغير المحتمل، ولغتها المضمخة بالسخرية، وشيء من الحزن يشبه حزن آنسة مترملة، قد أثرت بي كشخصية قادرة على النزول على القمر أو الحصول على جائزة نوبل.

اتسعت ورقة الصورة اللامعة للأحد عشر شخصاً المتوقدين بالشمس، بالرغم من أن شحوب وجوههم كان يخفف كثيراً من ذقونهم الوقحة. وقد امتنعت أنا، وهو أمر مفهوم، عن التورط في الظهور معهم في الصورة.

في وسط الصورة يظهر الأخوان كوبيتا جديين كالأموات، وهذه حسب تنبئي هي المرة الأخيرة التي سيظهران فيها معاً في الوثيقة نفسها، ذلك أن لأحدهم غريزة الضواري المتحفزة للهجوم على أي شيء، بينما للآخر وداعة النعجة التي تنتظر أنياب الذئب الجهنمية وحسب. ولو قيض لكاتب أن يصفهما لأبرز في أحدهما الفظاظة، وفي الآخر الرقة. وهما ميزتان لا يمكن لهما حسب تصوري أن يغزوا بهما أميركا.

بهذا أنهي مقالتي التي سأكشف عن فكرتها في هذه الخاتمة. فهذه

هي أيها القراء الأعزاء سلالة المهاجرين الذين يذهبون مرة أخرى إلى العالم الجديد. لا يحملون في أكياسهم شيئاً، اللهم إلا الفقر وربما مذكراتهم. ولكنهم قادرون مع ذلك على إعداد نبيذ جيد إذا ما أعطتهم الأرض الكرمة، وزيت جيد إذا ما نبت الزيتون على الأشجار، إنهم شامخو القامة إذا لم يُذلوا، وحتى أنهم يعبقون برائحة جيدة إذا ما وُضعوا في حوض ماء ساخن يسلخهم.

إلى جريدة «اللسان» من أندريس غوميز ستالكير، مراسل في مرحلة انتقالية.

رتبت باولا فرانك مأتم أخيها بفعالية مدبرة منزل إنكليزية. لم يعرف أحد بأنها بكت. جيء بالجثمان إلى سالزبورغ بواسطة شركة برادات التقطته مباشرة من سفينة الأميرال في كوريتشا. وكان هذا قد وضعه في حاوية، وكتب عليها بخط عريض من أجل إعلام الجمارك: «ميت ثري».

وقد تلقى مولينهاور مكافأتين، إحداهما على مأثرته في تطهير جنوبي الإمبراطورية من المتمردين الإرهابيين، ويتمثل في وشاح الأميرة آماليا وهو وسام للتذكير بالأميرة التي ماتت في سن مبكرة. والمكافأة الثانية هي شيك مصرفي من السيدة فرانك، وهي لفتة رمزية للمساهمة الرقيقة والشجاعة التي أبداها «في إنقاذ أخي» من القوات المعادية ومن أسرة آليا إيمار ونواياها الخبيثة.

عُرض المتجر الأوربي للبيع في مزاد يأخذ في الاعتبار موضوعين رئيسيين:

المحل نفسه، وهو وحيد من نوعه في هذه الجزر السوداوية ونقطة مرور إجبارية في مسار السفن المتوجهة إلى اليونان أو إلى الشرق لتفريغ أو تبادل بضائع متهربة من الضرائب، ويمكنها استخدام المتجر كمستودع، أو فندق سياحي بنجمتين، أو صالون لقاء (وهي التسمية التي ألمح بها محامي السيدة فرانك إلى إمكانية تحويله إلى ماخور فيما وراء البحار)، أو مركز اعتقال للسجناء السياسيين أو العاديين الذين يملؤون سجون أغرام، بل ويمكن تحويله كذلك، إذا رغبت الإمبراطورية في إعادة بناء الجزيرة أخلاقياً، إلى مدرسة عامة من أجل صهر ماليسيي الجزيرة والجزر المجاورة ضمن الثقافة الإمبراطورية العظمى.

وقد جرى سحب وثيقة عقد القران من أرشيف البلدية دون عنف ولا

شهود، حتى إذا ما حاولت الآنسة البغي آليا إيمار اللجوء في أحد الأيام إلى محاكم سالزيورغ أو أغرام لتطالب بميراثها، لن تجد أوراقاً حتى لتنظيف أنفها. أما بشأن إبطال الطقوس الدينية، فقد انتظر المحامي العجوز، الدكتور غيسنر إلى أن ظهر الخوري في القرية آتياً من المغاور التي بين صخور الحيد البحري حيث توارى هرباً من إعصار مولينهاور، وبادر إلى الصلاة مطولاً أمام المذبح، بورع شديد جعل الأب نفسه يتأثر لإيمان ذلك المسن ذي الأنف المعقوف ونظارة قاضي التفتيش، فأحضر له وسادة من حجرة المقدسات يمكنه أن يريح عليها ركبتيه المصابتين بالتهاب المفاصل.

شكره المحامي مقدماً إليه شيكاً لإصلاح برج الأجراس بمبلغ يعادل ميزانية عشر سنوات من راتبه لكي يبادر إلى تنظيف ومسح آثار لطخة النبيذ التي لوثت البرونز الإعجازي خلال حفلة ذلك الزفاف المزعوم، وهي الحفلة التي لم يكن لها وجود بحمد الله، مثلما يُثبت عدم وجود سجل لعقود الزواج في هذه القرية، والواقع الذي شهده جميع الأهالي في المعبد خلال الزفاف حين رفضت العروس بحزم النطق بكلمة «نعم» عندما عرضتَ أنت نفسك عليها ذلك أيها الأب المقدس، وأنها بدلاً من ذلك، وكما هو التقليد الشائع في أسرتها المؤلفة من ساحرات وهراطقة ومومسات كبريتيات، غادرت المذبح، لتتوجه إلى وسط المعبد وهي تحرق عقد الزواج محاولة بذلك اقتراف عملية حرق كبرى تحول إلى رماد هذا المعبد المجيد ببرج أجراسه ذي التوازن المستحيل.

فليباركك الرب لأنك ألغيت مراسم الزفاف قبل أن يكتمل الزواج أمام عيني ربنا. ولا ريب في أن القديس بطرس سيستقبلك مبتهجاً يا أبتاه لأنك طردت الأشرار من المعبد، وأجبرتهم على إقامة طقوسهم الوثنية في عراء الطبيعة البهيمية حيث يسمح الرجال والنساء لحيوانات بأن تمتطيهم، وحيث العروس نفسها، في تصرف مستهتر وفاجر، قررت تسليم نفسها في ليلة الزفاف بالذات إلى أي مخمور يعترض طريقها. فدفع ذلك السلوك بجيرونيمو فرانك، خادم الرب البريء، والمخلوق الساذج الذي زرع العذوبة وحصد المرارة، إلى مهاوي الانتحار، حاكماً على جسده

بالجحيم وعلى روحه بالمطهر. ساعدني يا أبتاه على الصلاة من أجله، من أجل جيرونيمو فرانك، كي لا يُثقل عليه أحد أو شيء، وكي لا يهيم شبحه في جنبات هذا المعبد. فلنصلِ بحيث تعيد تضرعاتنا الرقة إلى روحه، ولكي يستعد، نظيفاً من الشهوات، للدخول في أبدية أخرى، في جنان الرب.

ابتلع الخوري بريجل ما في أنفه ورفعتْ ترسانة من الدموع تفاحة آدم في عنقه، وهو تحوّل مفاجئ ما كان له أن يمر دون أن تلحظه نظرة المحامي غيسنر المواربة، الذي كان يرصد تأثير كلماته في ارتعاش فقرات أصابع الكاهن. فأراد أن يخفف من حزن رجل الدين بالتربيت برقة على ظاهر يده وأن يعدّل في أثناء ذلك من وضع الشيك بحيث يتمكن الخوري من تقدير قيمته.

ولكن الأب، وقبل أن ينتبه إلى هذه الحركة، تقدم نحو المذبح بالسلطة التي يتيحها له كونه سيد المكان. وبقي منتصباً أمام تمثال المسيح، ورأى فيه احتضار أم الأخوين كوبيتا عندما كان داء السرطان ينهش عظامها، ويحطمها ألماً، ولكنه يُبقي على إيمانها سليماً.

وسمع مرة أخرى صوته، وقد أرهفته الكآبة، وهو يعاهد المحتضرة على أن يرعى ابنيها القلقين. ورأى في الغمامة نفسها آليا إيمار في يوم مناولتها الأولى: إدراكها المزهو لجمالها وهي في السابعة من عمرها، عندما بدت البنات الأخريات من حولها وكأنهن كورال يحيط براقصة البالية الأولى.

وتذكر العالم تورينتيس وهو يقيس المسافة ما بين برج الأجراس والأرض، ويؤكد له - وهنا ابتسم - بأن ما يراه غير ممكن «نسبياً» من وجهة النظر العلمية. ثم مسح عينيه بكم مسوحه، واتجه إلى التمثال الجبسي لمريم العذراء والطفل ذي الخدين المتوردين الذي يحمل تاج ملك، وطلب من الشخصيتين البارزتين المغفرة على هرطقته.

وعندئذ رفع شيك الدكتور غيسنر بيده اليمنى بحركة مصارع روماني، وأبقاه عالياً لكي يراه المحامي جيداً، ووضع الوثيقة المصرفية على لهب يتصاعد ضعيفاً من إحدى الشموع الموضوعة في شمعدان تكريماً للسيدة

مريم العذراء، ولم يسحب يده من فوق الشمعة إلا عندما أحرق اللهب نصف الورقة. ثم ترك البقية تحترق بين أصابعه، وبدا له أنه عقاب صغير لا بد منه أن تحرق النار أظفاره ورؤوس أصابعه وتسبب له بعض الألم. بعد ذلك داس على البقايا المتفحمة على البلاط ونظر بذقن مرفوعة إلى غيسنر وقال له:

- اعذرني لانعدام الأصالة.

- 38 -

عند خط الطفو تقريباً، وملتصقين مثل الطوابع بالأنابيب التي تصعد من المراجل، أدرك الماليسيون في اليوم التالي وهم قبالة سواحل برشلونة أن التآلف مع البحر الذي كانوا يتبجحون به، ما هو إلا بداية رواية رعب. فالسباحة من الصخور الناعمة حتى الفنار هي شيء، وشيء «آوخر»، مثلما يلفظها النمساوي جيرونيمو، هو شق الأمواج في بحر مائج مثل البحر المتوسط. والعشاء على السفينة الذي كان يرتد أحياناً عبر الطريق الفموي، كان لائقاً مع ذلك حتى في الدرجة الخامسة؛ وكان عيب هذه الدرجة هو وجودها عند بالوعات السفينة، ولكن مزيتها الكبرى كانت في مجاورتها لأعشاش الفئران: وهي أول وأسرع وسيلة إنذار للهرب في حال غرق السفينة.

كان الحديث يدور أثناء تناول الفطور حول شؤون عابرة المحيطات، وعند الغداء يكون موضوع الحديث هو الحرب العالمية الوشيكة، والتي ستكسبها ألمانيا دون ريب، أما في الليل فكانت المناقشات تدور حول المواخير. وفي هذا المجال كان الأتراك واليابانيون يروون مآثر المشروبات ذات الطعوم الكريهة، ونراجيل التدخين، والحقن الشرجية بمقويات الانتصاب، ولحس البظر مع أفاعي البوا المدربة، وبتر حلمات السلطانات.

أما الماليسيون الوجيزون الذين تتلخص تجربتهم الايروتيكية في ممارسات متوحدة وسط الزبد البحري وهم يتخيلون نهدي المعلمة بياتريس، فكانوا يبتلعون مفاخرهم مع اللعاب.

وهكذا راحت الليالي تنقضي ما بين تقيؤات، وسبات، ودوار، وانتصابات، واستمناءات، ودموع وتمزقات بسبب البعد عن الوطن. وبدأت إلى جانب ذلك الأحلام بتشيلي مزهرة، حيث الأنهار مثل محيطات عذبة تغذي كروم أعناب هائلة، حباتها الشفافة مترعة بالشمس والماء حتى أنها تتفزر بمجرد النظر إليها، وبالحديث عن تشيلي منجمية مكللة بمناجم خصبة تتيح لهم ملء أيديهم بتبر الذهب وطلاء أنوفهم وأسنانهم به

ليظهروا مثل آلهة براقة من كرنفال فينيسي.

الأخوان كوبيتا وحدهما، بمظهر سلالتهما السوداوي، كانا ينأيان عن العرف الجماعي. فيبقى استيبان منطوياً على نفسه في برد سطح السفينة، متلفعاً بدثار خشن من صناعة عسكرية، يخربش في دفتر أعطته إياه القنصل التشيلية. وقد نصحته بأن يكتب كل كروبه وهمومه، لأنه بذلك فقط يتوصل إلى مرونة ذهنية تتيح له أن يستعيد شفافية روحه الجميلة، الملطخة ببراز خجل وتردد يطهوه في جزع غير مرضٍ. وقدمت له كذلك أقلاماً، وممحاة، ومبراة، ونشافة، وكان رأس قلمٍ الرصاص المدبب ينغرس في لسانه مسبباً له ثقوباً وقروحاً أكثر مما يوفره له من الأفكار الملهمة.

ابتداء من سواحل كتالونيا تزودت السفينة بأسماك القُدّ التي كان الطاهي الغاليسي يقدمها مقلية مع البيض بعد أن يغمسها في الخل لكي يخفف من ملوحتها. فكان النهم ينفتح، والعطش لا يفارق. في البدء لم تعرف العنابر السفلية أكثر من الماء العكر وبعض البيرة الفاترة، ولكنهم ما أن أصبحوا عند مستوى جبل طارق حتى تبدت الأخوة الديمقراطية لدى جميع الراغبين في الهرب والنجاة بمؤخراتهم من الحرب، وخفتْ حدة الحدود فيما بينهم وتدفقت هيكتولترات من النبيذ الأحمر. ولم يكن هناك أحد باستثناء استيبان، يمكنه القول في منتصف الليل الصيفي إنه ما يزال بكامل قواه العقلية في السفينة المخمورة.

أما رينو كوبيتا فلم تكن السوداوية في الواقع هي ما يشغل اهتمامه. فمنذ وقت مبكر من الرحلة لفت انتباهه شاب مربوع له مظهر مروض خيول، كان يقبع وحيداً، وبعيداً عن الريح، ويشكل دمى مصغرة من مادة لدنة يمنحها هيئة ملاكمين يتواجهان في منافسة. وبين وقت وآخر يبدل وضعية القبضة، موجهاً مخلب المهاجم إلى فك الخصم، ولاوياً عنق الضحية كما لو أن فكه قد انخلع.

وكان الرجل يبتعد عن الدمى ويرسمها على الورق، ويقيسها في بعض الأحيان، وفي أحيان غير قليلة يبدل وضع الضوء بعقب شمعة ليضعها وراء كتفي الدميتين المتلاكمتين. وعندئذ يهزهما، أو يحركهما بدقة ميلمترية، ويسجل ملاحظات حول التأثير الذي تحدثه ظلالها على الجدران.

ودون أن يعرف رينو سبب تلك التمارين، قاده الفضول، أو ربما

الحدس، إلى متابعة كل حركة من حركات الضرب تلك، ولعجزه عن كسر حاجز اللغة مع الرجل المربوع الذي يتكلم الإنكليزية، كان يكتفي بمراقبته حتى ساعة متقدمة من الليل، عندما يتيح توافق الظلمة أن تتخذ ظلال الدمى المتصارعة على الجدار المشقق بالصدأ سواداً وهيئة مشابهة للواقع، وكان الرجل يتجاهل في أول الأمر وجود رينو الذي يتأمله بفم مفتوح مثل سمكة ابتلعت الشص، ولكن مع توالي الليالي والدوار البحري، بدأ ذلك الشخص يتوجه إليه بتعليقات مقتضبة، كان الشاب المالیسي يرد عليها بهز رأسه دون أن يفهم شيئاً. إلى أن حدث في إحدى المرات أن غطى الظلام الدميتين المتلاكمتين على الشاشة الخلفية، فأومأ إليه الرجل بأن يقف مقابله ويحرك قبضتيه ببطء مثل من يشد لجام فرس.

ويبدو أن ذلك التعاون قد كشف للفنان شيئاً مهماً، لأنه وضع على الطاولة في اليوم التالي زجاجة ويسكي وكأسين، ودعا رينو إلى الجلوس معه، بينما هو يزيد من مرونة ومطاوعة الدمى بالمطاط والكرتون والأسلاك والشمع. ولم تخرج من فمه مع ذلك أي نظرية حول تلك التحولات المثيرة للهواجس، أما رينو، فلم يوجه من جهته أي سؤال عن الهدف من تلك الدمى، والسبب في ذلك هو أحادية اللغة التي تغلبت على الفضول.

والحوار المفهوم الوحيد بينهما جرى بعد زجاجة الويسكي الثالثة، في اليوم الرابع من الإبحار، عندما مدّ إليه الرجل الضخم يده دون أن ينظر إليه وقال:

– ويللي.

رأى الشاب المالیسي تلك الكف المناسبة والموثوقة، وأحس للمرة الأولى حتى الحشفة نفسها بأن خروجه من وطنه كان له شيء من المغزى. فأمسك اليد بحماس وشدّ عليها قائلاً:

– رينو كوبيتا.

– Glad to meet you[1] ، يا رينو.

– Glad to meet you، يا ويللي.

– I haven't realized you speak English so well[2].

– Yes.

---

[1] بالإنكليزية في الأصل: «أنا سعيد بالتعرف عليك يا رينو».

[2] «لم أكن أعرف أنك تتكلم الإنكليزية جيداً».

- You seem to be very interested in my work[1].

وأصاب الشاب في الإجابة:

- Yes.

فسأله الرجل الضخم:

- Why? (لماذا؟)

ورد رينو:

- Yes.

أحاطه ويللي بنظرة مرحة أكثر مما هي ساخرة، ثم عاد إلى أشكاله ودماه وقرب منها نار شعلة محتضرة من عقب شمعة لجعلها أكثر مرونة. وعلق بعد ذلك من بين أسنانه:

- You don't speak a shit English[2] - وقد قال ذلك في الوقت الذي كان فيه لهب الشمعة يخمد بالضبط.

- Yes. قال رينو كوبيتا وهو يُخرج من جيبه شمعة جديدة بيضاء، متمدنة ودينية، كان قد سرقها من كنيسة السفينة، ووضعها على الطاولة بعدم مبالاة متكلفة.

فهتف الأمريكي وهو يشعلها:

- Boy, oh boy. You're really something[3] يا رينو.

- Yes. قال رينو كوبيتا وقد فهم لأول مرة لغة شكسبير مئة بالمئة.

عند اجتياز حوالى نصف الأطلسي، كان الشاب المالييسي قد بدأ بمساعدة ويللي في صنع تشكيلة جديدة من المصارعين. لم يكونوا ملاكمين في هذه المرة، وإنما نوع من الحيوانات ذات الكروش الناتئة أسماها «ديناصورات»، وهي كائنات سكنت الكوكب قبل ملايين السنين، وقد انقرضت بفعل الغبار والظلام الذي نشأ من ارتطام مذنب بالكرة الأرضية، وما تزال صورها عالقة في أذهاننا بفضل أسطورة الوعي الباطن التي تفترض أن كل إنسان يخزن في أعماقه هوة تضم كل تاريخ البشرية.

وكان سبب مجيئه إلى أوربا هو التحدث حول تقنية تحريك الصور مع الأخوين لوميير في مختبرهما في فرنسا، وحول الاستفادة من الوعي

---

[1] «تبدو مهتماً كثيراً بعملي».

[2] «أنت لا تتكلم الإنكليزية اللعينة.»

[3] «أيها الفتى، يبدو أنك ذو شأن بالفعل.»

الباطن الجماعي من خلال «الشاب يونغ» - Yang Yung - وأضاف مستغرقاً في الضحك، «إنه يُخرج أشباحاً من الروح مثلما كان الصياد يُخرج أسماك السردين في زمن العصا».

لا حاجة إلى القول أن رينو كوبيتا لم يفهم من الحديث التقني الفلسفي سوى الصورة المجازية الأخيرة، وبما أنهم قدموا إليهم عند الغداء سمكاً مقلياً، فقد أحس بوهم أنه صار أبا لسانين بالفعل.

وهكذا كان أحد الأخوين كوبيتا يقضي الوقت في تقديم مساعدة يتلقى مقابلها ويسكي في مختبر الدكتور ويللي (الذي طلب منه أن يدعوه «أوبي» قبل يومين من بلوغ شواطئ أميركا الشمالية)، بينما كان استيبان يكتب مذكراته على متن السفينة، وهي تستند أساساً إلى صورة آليا إيمار. وتبدو الفتاة فيها بعيدة المنال، نائية، غاضبة وفي حزن مترفع لا يشجع الفتى على الاقتراب منها. وكان استيبان يعيد قراءة صفحاته ولا يجد أي سبب آخر سوى الخوف من الصد لأنه لم يتخذها خطيبة له منذ أيام المدرسة. فكان يتساءل بخطابية: لماذا أضعتها، إذا كان هو نفسه من لعق جراحها بلسانه عندما تدحرجت في إحدى المرات عن الجبل ونزفت ركبتاها؟ وبعد ذلك، عندما جاءه الإلهام بمواصلة تقبيل فخذيها حتى الوصول إلى الشعيرات الأولى من عانتها، ألم تضع يديها على وجنتيه قائلة له كفى، كفى، بنبرة يضخمها هو الآن بفعل البحر المحيط غير المتناهي والزمن الضائع، فتبدو وكأنها تصرخ به: عضني، أنقذني، باركني؟

حين لمح ويللي أوبي تمثال الحرية بمنظاره، صرخ:

– مستقبل العالم أيها الفتى في الديناصورات. فإذا ما تمكنتُ من إقناع أحد المنتجين بأفكاري فإنني سأحصل على ما يكفي من الدولارات لإنجاز حلمي المحبب: صناعة فيلم عن غوريلا يتسلق ناطحات سحاب نيويورك ويرعب أهالي منهاتن والعالم بأسره. الأمر كله يتلخص في إضفاء المرونة على حركة الدمى بحيث لا تظهر كل الصور مكسورة ويتضاعف الوهم بالواقع. وما يبقى بعد ذلك هو مسألة أضواء وخدع سينمائية. أموال كثيرة ستُنفق في هذا العمل أيها الفتى كوبيتا. Lot of money in this business

– Many يا أوبي.- كرر رينو بعينين متلألئتين.

تطوع شاب إنكليزي استبدل الحكم عليه بالسجن في ابيردرين بالخدمة في بالوعات السفينة ليكون مترجماً بينهما:

- أوبي يريدك أن تعمل معه في نيويورك. في بناء الديناصورات.

- قل له إن ذلك يسعدني.

- وهو يسأل إذا ما كان لديك جواز سفر وتأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة.

- لدي جواز سفر.

- هل يستطيع أن يلقي عليه نظرة؟

أخرج رينو حصيلة «العشاء المقدس» في القنصلية وعرضه وهو يمسح عليه براحة يده فوق طاولة نماذج الدمى. استولى الذهول على ويللي أمام ذلك العمل الفني الجماعي ولم يستطع إلا فتح زجاجة الويسكي ناسياً أن يقدم جرعة إلى السمكريين اللذين معه، وبعد أن سكب مقداراً لا بأس به فرك عينيه خشية بدء مشهد هذيانات مرعبة.

- يقول إنك لا تستطيع الدخول بمثل هذا البراز إلى الولايات المتحدة. ليست لديك تأشيرة.

فأشار الفتى بإصبعه إلى خاتم القنصلية.

وأوضح رجل ابيردرين:

- هذا تصريح بالدخول إلى تشيلي. هذه الليلة سنصل إلى الولايات المتحدة، وهي رأس العالم. أما تشيلي ففي أسفل، في مؤخرة العالم.

ابتسم رينو:

- إنها ذيل الديناصور.

- ذيل الديناصور - ضحك ويللي، وقدم ورقة من فئة العشرة دولارات إلى رينو مرفقاً إياها بقبلة مدوية على جبهته.

خبأ المالیسي الورقة النقدية دون دراماتيكية وأجلس ويللي بحماس إلى جانب مجموعة الدمى، والكرتون، وبقايا الأسلاك، والخشب، والنشارة، والمعجون، وتناول مالجأ وراح يضغط به بمحبة بنيوية صدر محدثه، وقال له:

- قبل أن نفترق يا أوبي، أخبرني كيف سيكون الفيلم الذي سيُصنع من ديناصوراتنا.

نظر الأمريكي إلى الأكوام المبعثرة على سطح السفينة نظرة قائد

استراتيجي يعيد ترتيب قواته المشتتة بعد هجوم نهائي بطولي، وعانق رينو قبل أن يتنحنح.

- إنه فيلم عن الحلقة المفقودة، The missing link، وسيكون بطله وحشاً خرافياً نسميه «تيوفيلو الرأس العاجي». يصل إلى أرض يقطنها خصمان رهيبان هما: «الدوق» و«الفك الحجري». وكلاهما يحاول الاستحواذ على ديناصورة تدعى «آرمانيتا وجه الوردة». فتطلب السيدة الديناصورة من الخصمين الفظين أن يبحثا لها عن طعام، وتعدهما بأن تسلم نفسها لمن يجلب ألذ وأفخم طريدة لعشائها. هل تتابعني؟

- Yes.

- حسن. يحاول الوحشان اصطياد شيء بقوسيهما وسهامهما، ولكن الشيء الوحيد الذي يجدانه هو طائر خرافي ضخم يخرج من عشه وينقر عقبيهما. وعندئذ يظهر «بيل المتوحش»، وهو الحلقة المفقودة... إنه مسخ مريع يغطيه الشعر، ويدخل على ضفة بحيرة في صراع مع برونتصور. وهذا المجسم الذي تراه هنا هو البرونتصور.

- Yes.

- فيحوّل البرونتصور بيل المتوحش إلى كتلة براز، ويقتله.

- يتركه مثل غائط - يضيف رينو بأكاديمية وهو يعجن في يده قطعة من الصلصال.

- يحوّله إلى براز. ثم يغطس عندئذ في البحيرة. وفي هذه اللحظة بالذات يظهر تيوفيليو الرأس العاجي وحين يرى اقتراب الدوق والفك الحجري، يسارع إلى وضع قائمته فوق جسد بيل المتوحش وكأنه هو من قتله. فلا تستطيع الأنثى مقاومة كل تلك الشجاعة، وتهجر المتوددين إليها، وتبقى مع تيوفيليو.

- ثم ماذا؟

- النهاية.

- No fuck?. (بدون مضاجعة؟)

- الجمهور سيتخيل النهاية بالطبع.

- Big fuck. (مضاجعة عظيمة.)

- Dinosaure fuck. (مضاجعة ديناصورية.)

- Good film. (فيلم جيد)
- كل ما أحتاج إليه هو منتج يقدم لي خمسة آلاف دولار.
- وكم هو هذا المبلغ؟
- مثل عدد أصابع يديك مكرراً ألفين وخمسمئة مرة.
- Many fingers!. (أصابع كثيرة.)
- Quite a lot. (فعلاً كثيرة.)
- Good film. Excellent film. (فيلم جيد، فيلم ممتاز.)

نظر رينو بحزن إلى البرونتصور. وجعله يرفع أحد مخالبه ثم راح يُنزله لقطة فلقطة، وهو يلوي في الوقت نفسه رقبة الدمية، مثلما يجب أن يحدث لو أنه كان مساعد أوبي في مختبر.

- وكم ستكون مدة الفيلم يا معلم؟
- خمس دقائق.
- أخبرني بافلوفيتش بأنه رأى فيلما في دار للسينما مدته ساعتان، واسمه «كوفاديس».
- ومن هو بافلوفيتش؟
- إنه ابن عاهرة.
- عندما أصنع فيلم القرد الضخم ستكون مدته ساعتين.

وضع الشاب عينيه على زجاجة الويسكي التي كانت نصف منتهية، فسكب له الأمريكي جرعة وافرة.

- ما الذي تفكر فيه يا رينو؟

تذوق الفتى الشراب بطرف لسانه، ومر به على شفتيه مستمتعاً بالطعم اللذيذ والدافئ، وتنهد قائلاً:

- ساعتان. مليون دولار. مئتا ألف إصبع.

– 39 –

في إحدى اللحظات فكرتُ بأن البعد
سيبدل جسدي وسيفرغ روحي
وبأن كل أجراس الموانئ
ستُبعدني عنك، ستحملني بعيداً.

الأيام بطيئة، لجوجة ومتشابهة
لا تترك شيئاً خلفي ولا تضع شيئاً أمامي
بحر الزبد والماء غير المبالي
يبلل عيني ولا يهدئ جبهتي.

في كل ليلة تسقط على رموشي
أشباح نجوم، أضواء الفجر
ضحكات الربان على مائدة النبيذ
حاضري الغامض هو قدري الوحيد.

يقولون إننا سنصل هذه الليلة إلى نيويورك. ويقولون إن القبطان سيحبسنا في العنبر. سيزودنا بعصي مكانس لنبعد بها الجرذان. وإن رجال الجمارك سيصعدون إلى السفينة وهم يضعون أقنعة وسيرشوننا بالبنزين للقضاء على القمل. ويقولون إن كل ذلك ما هو إلا مزاح يردده القبطان. الشيء الوحيد الذي أملكه أنا هو الألم وهذا الدفتر الذي أجمع فيه أشعاراً من لا شيء، ومن أجل لا شيء، مجرد كلمات.

انتزع رينو الأوراق من أخيه استيبان ودسها بغضب تحت الفراش.

- لا تتدخل في أموري.
- وما السيئ في ذلك يا تيبي؟ إنني أخوك.
- كنت أخي. ولم أعد الآن أخاً لقاتل.
- لقد صنعنا تاريخاً يا فتى.

- أنت من ورطنا جميعنا بهذه المشكلة. إن دماء خبيثة تجري في عروقك يا رينو.

- ما فعلته قد حدث. ولن نتقلب إلى الأبد في الأمر نفسه. هنا مستقبل أمامنا وماض مجيد وراءنا. بعد سنوات سيقرؤون عنا في المدارس. سنكون الورثة الجديرين باسم كوبيتا العجوز!

- إننا من تأكلهم البراغيث، وتعضهم الجرذان.. من تعفن المراج اللعينة جلودهم، ومن أصبحوا بلا خطيبة، وبلا زوجة، وبلا وطن.

- أتقول وطن يا تيبي؟ هذا هو الوطن!

- هذا براز؟

- أينما نذهب أنا وأنت سيكون الوطن. لستَ بحاجة إلى التفكير بأ أفضل معكرونة هي التي كانت تطهوها الجدة.

- لقد رأيت في خريطة موقع تشيلي.

- وماذا؟

- إنها بعيدة يا رينو. تبدو كمكان لا يمكن الرجوع منه.

- يقولون إنك إذا انحنيت في الطريق ونبشت التراب تجد ذهباً. قطع ذهب كبيرة بحجم خصيتيك. ولديهم هناك نشيد وطني حسي. يقولون فيه إن تشيلي هي نسخة سعيدة من الجنة. كلها خضراء، تملؤها الطيو والعصافير، والأنهار تتدفق في كل الأنحاء، والبحيرات صافية والفتيات باهرات الجمال، طويلات القامة، متكبرات، ساخنات، ولهن أثداء كبيرة.

- أهذا ما يقوله النشيد الوطني؟

- أقسم لك. وأتمنى لك حظاً وافراً في تشيلي.

- ما معنى هذا؟

- لن أذهب إلى هناك يا أخي. الحقيقة أنني جئت لأودعك.

- وإلى أين ستذهب؟

- لن أذهب يا كلبي الصغير. سأبقى هنا.

نهض رينو واقفاً ومسح التراب المختلط بالصدأ عن النافذ المستديرة. ولم يكن هناك في الخارج سوى ليل المحيط التام.

- رينو؟

- ليس لديك جواز سفر، ليس لديك تأشيرة، وأنت ممتلئ بالقمل. لن يسمحوا لك بالدخول.

- عانقني.

- لقد قتلتَ فتى مسكيناً أعزل!

- كان عدواً أيها الأحمق. إذا لم تقتله اليوم، سيقتلك غداً.

- بل كان طفلاً بديناً مسكيناً.

فتش رينو جيوب بنطاله وضع كل شيء على الغطاء الذي بلون القهوة والموشى بآثار العثة وقرض الفئران.

- لا يوجد الليلة قمر ولا مدّ بحري. سأقفز من مقدمة السفينة مستغلاً توقفها. وسأدخل سباحة إلى نيويورك يا أخي.

- إننا على بعد ليلة من الإبحار. ستنفجر رئتاك وأنت تسبح هذه المسافة.

- سأشتغل مع أوبي في الاستوديو بصنع دمى الديناصورات. وعندما نحصل على أموال، سنصنع قصة مرعبة. إنها قصة غوريلا يأكل ناطحات سحاب نيويورك. سنكسب من ذلك مليون دولار.

اتجه استيبان إلى الباب وأغلقه بالمزلاج.

- لن أسمح لك بالخروج من هنا.

- لقد تدبرت أموري طوال الحياة دون أب. ولستُ بحاجة لمن يرعاني الآن.

- لستُ أفعل ذلك من أجلك أيها الأبله. لن أسمح لك بالقفز إكراماً لأمنا.

نظر رينو إلى ممتلكاته فوق الطاولة وقسمها إلى قسمين. وضع في الجهة اليسرى فرشاة الأسنان، ومفتاح البيت في سواحل ماليسيا، وربطة عنق حدادية سوداء، وكرة من أوراق النقد الماليسية ومغلفاً فتحه وأخرج منه صفحة جريدة لاريبوبليكا التي روى فيها بافلوفيتش مأثرته. ووضع في الجهة الأخرى ورقة نقدية من فئة العشرة دولارات، ومطواة صغيرة مشحوذة الحد جيداً، وصفارة حكم كرة سلة، وشمعة.

- يمكنك الاحتفاظ بهذا القسم. واعتن جيداً بالجريدة لأنها ستذكرك بأنك تنحدر من أسرة وطنيين ولستَ قملة مجهولة.

- سأرمي بما يذكرني بك إلى القمامة.

- واستخدم فرشاة الأسنان. نظف أسنانك جيداً. لأن رائحة كبريت وعفونة تنبعث منك. ستجعل فتيات تشيلي يتقيأن.

- ستلتهمك أسماك القرش يا رينو.

- المياه هنا باردة، ولا توجد فيها أسماك قرش.

- لن تتحمل السباحة حتى الشاطئ. وخفر السواحل يجوبون البحر بزوارقهم. سيطلقون رصاصة على عنقك.

- كل شيء من أجل السينما.

فتح ذراعيه وأومأ له بكل أصابعه أن يأتي إليه ليعانقه.

أظهر ابتسامة خرجت من أعماقه، ولم يستطع أخوه أن يتجنب تذكر وجه أمه. كان هناك الكثير مما يحثه على الذهاب إليه، ولكن شيئاً صامتاً وعنيداً كان يمنعه.

- أي جنون أصابتك به السينما؟

- إنها تجارة القرن. ديناصورات، غوريلات، مريخيون. إنها الفرصة الكبرى. إننا على بعد ذراعين عن المجد.

- إننا؟

- اقفز معي يا تيبي! تخيل! نيويورك، والفتيات بفراء النمس، والزنجيات يرقصن تورومبا في البارات، والقطارات التي تئز، والشوارع المضاءة في حفلة متواصلة، وأنت وأنا معاً: ابنا كوبيتا بعضوين منتصبين متصلبين وأقل من عشرين سنة! وما هو ثمن كل هذه الأمجاد؟ مجرد تبلل بماء البحر!

- أنزل ذراعيك يا رجل. تبدو مضحكاً مثل فزاعة عصافير.

- أي فزاعة عصافير! إنك تموت لهفة للذهاب معي، ولكنك خائف.

- لا أملك أوراقاً ثبوتية.

- سنصنعها.

- لا أعرف الإنكليزية.

- سنتعلمها. النقود تعني money. والمضاجعة تعني fucking. وفيلم سينمائي يعني movie.

- الكلمة الأخيرة التي قالتها لي آليا إيمار هي «تشيلي»، وربما في أحد الأيام...

- ما الذي سيحدث في أحد الأيام؟ - صرخ رينو وهو يتخلى عن موقفه السابق ويضرب قبضة يده براحة اليد الأخرى:- هل ستأتي لتدس نفسها في سريرك الذي من الماس والياقوت في تشيلي؟ لقد كانت على رأس منقارك ولم تفعل لها شيئاً!

- بدافع الوقار يا رينو! وهذه كلمة لا تعرفها أنت.

- سوف تتعفن بسرعة دوارية يا تيبي. في الحادية والعشرين ستسقط أسنانك وفي الثلاثين سينحني ظهرك من كثرة التذلل. لو كانت لي عيناك لصرت ملك العالم!

- آليا إيمار رأتْ شيئاً في أعماق هاتين العينين. لقد كانت رحلة انطلقنا بها معاً. طريق أعظم بكثير من هذا الذي قطعناه. كل شيء كان يمضي على ما يرام إلى أن خربته أنت باغتيالاتك القذرة ودمائك الفائرة.

وضع رينو المطواة في جيبه وعقد ربطة العنق السوداء على جبهته.

- عليك أن تحسم أمرك يا استيبان كوبيتا في هذه اللحظة: إما نيويورك أو البراز!

كانت كلمة «نعم» على شفتيه وغطاها بالمرور عليها بلعاب لسانه. رغب في أن يضرب مثل المراهقين كف رينو وينسل معه في ممرات السفينة الدافئة إلى المقدمة. حاول جعل أعصابه تدفعه إلى النطق بالكلمتين اللتين كانتا ناضجتين على شفتيه: نيو يورك. ولكنه صمت مكابراً ومشوشاً.

فتح رينو مزلاج الباب بضربة من ظفره واختفى في الممرات دون أن يلتفت. وعندئذ فقط بدا التأثر على استيبان ولحق به نحو المقدمة. كانت تُعزف موسيقى جاز في صالون الدرجة الأولى، وقد رآه أحد الحراس دون مبالاة وهو يمر، وحياه متثائباً.

وصل إلى مقدمة السفينة حين كان أخوه يمد ذراعيه إلى الأمام،

ويثني ركبتيه، ويدفع جسده بطرفي قدميه مثلما كان يفعل من فوق صخور الشاطئ في الجزيرة، حين كان يحمل بين أسنانه خطافاً من الحديد ليصطاد به الأخطبوطات بين الصخور. وسمع استيبان صوت ارتطام الجسد بالماء، وتمكن من رؤية الحارس وهو ما يزال يتثاءب وينظر من خلال النافذة إلى الفرقة الموسيقية التي ترتدي سترات متعددة الألوان.

أطل من فوق حافة السفينة، وميز ما بين بياض الزبد البحري الوقور والخفيف جسد رينو كوبيتا متوجهاً نحو الشاطئ، رآه يحرك ذراعيه بقوة، بشراسة، بتصميم، ويضع المطواة مفتوحة في فمه ليستخدمها إذا ما هاجمه أحد تلك المسوخ التي كان يرسمها في أحلامه، أو ليقطع بها وريد عنقه إذا ما شارف على الاختناق أو اكتشفه خفر السواحل وأصابوه برصاصة.

- 40 -

في يوم ثالث من حزيران، قدّمت فصيلة الماليسيين أوراق اعتمادها إلى السلطات البحرية في ميناء أنتوفاغستا في شمال تشيلي. وكانوا قد منعوهم من النزول في بوينس آيرس، لأن رئيس إدارة الهجرة لم يجد في أي اتفاقية، ولا في ملاحظات الدروس التي دونها في شبابه، أية بنود استثنائية تسمح له بالاعتراف بصلاحية جواز سفر جماعي. مع أن هذا الجواز مكتوب بلغة إسبانية متقنة، وممهور بخاتم جمهورية تشيلي الشقيقة، وهو قانوني مثل بصمة إبهامه بالرغم من أنه صادر في إيطاليا.

إنه يعرف بأن جواز السفر الجماعي مسموح به لأم تسافر مع أبنائها القاصرين، ولكن ليس هناك بين أولئك الفتيان ذوي الذقون غير الحليقة والحواجب الشرسة، والبناطيل الملوثة بالدقيق والمني، من يمكنه التشبه بسيدة منجبة. وبما أنه هو نفسه سليل مهاجر إيطالي، فقد دعاهم إلى تناول بيرة وطنية، وطلب من النحيل أن يخبره برأيه عن الاحتمال الوشيك لنشوب حرب عالمية، وأحضر لهم شرحات شواء مقرمشة من الخارج وطرية من الداخل، ثم أعادهم إلى السفينة موجهاً إليهم النصيحة الحكيمة بأن البلد الوحيد الذي يقبل جواز سفر بمثل هذه المواصفات الجماعية هو تشيلي، لأنه إذا كان هناك من تجرأ على إصداره، فلا بد أنه يعرف أن هناك التزاماً للاعتراف به في حال تقديمه إلى السلطات المحلية.

وبعد إبحار جليدي، قدر الماليسيون الزمن خلاله حسب درجة البرودة في باتاغونيا، وبعد المرور بجبال جليدية، رست السفينة في ميناء بونتا أريناس وسط عاصفة ثلجية جعلت قطيعاً من النعاج يرتعش تحت ندف الثلج على الرغم من صوفه الكثيف.

لم يشأ أي واحد من المهاجرين سحب يده من جيبه لإبراز جواز

السفر. وبينما هم متدثرون ببطانيات حملوها من فراشهم، اكتفوا بالنظر مذهولين إلى عمال الميناء الذين كانوا يرفعون الحيوانات في رافعة وينزلونها إلى عنبر السفينة وهي تثغو فرحاً لهربها من ذلك الجو القاسي.

ومع أنهم كانوا قد دخلوا الأراضي التشيلية، إلا أن أحداً لم يطلب منهم أي وثائق، كما أن أحداً من طاقم السفينة، أو معاون ريانها، أو حتى الريان نفسه، لم يطلب منهم مغادرة المركب. صعد جنديان ليذرعا سطح السفينة دون أن يبديا اهتماماً بالتفتيش، وعندما قدم إليهما القبطان زجاجة وايت هورس وكرتونة سجائر، نزلا إلى المرفأ وكل منهما يربت على ظهر الآخر بسعادة.

عندما واصلت السفينة تقدمها باتجاه الشمال، طرأ تحسن ملحوظ على وجبات الطعام. فقد أضيف السجق إلى العدس، والقواقع البحرية إلى الرز، وصارت البطاطا المهروسة تُقدم مع بيضتين مقليتين، وأضيف إلى شوربة الخضار نوع أسماك يصعب نطق اسمه، وتبين بعد طول مراس أنه «كونغريو». كما قُدمت إليهم قواقع ومحار ورخويات ذات أصداف غنية بالعناصر المعدنية، كان الماليسيون يلحسونها بشراهة، ثم يعضون عليها بعد ذلك محاولين، دون جدوى، تفتيتها والتهامها في تكريم متأخر لستاموس مارينـاكيس. وبعد العشاء، وسط تأرجحات المحيط الهادي، كان بعض المسافرين الذين صعدوا إلى السفينة من بونتا أريناس يتناولون جيتاراً ويبدؤون الغناء، في اليوم الأول ألحان فالس، وفي اليوم الثاني إيقاعات تورومبا، أشد موضوعاتها كآبة هو الرحلة في عرض البحر:

إذا ما هوت نجمة من السماء
فستبهر عيني بضوئها
وقدماي المتوحدتان دون دليل
ستمضيان إلى الجحيم.

ولكن إذا ما تبدى وجهكِ
في منعطف سعادة،

فسوف يموت الحزن حسداً
وتغرق قُبلتي في شعرك.

فلتبحر، فلتبحر،
لا فرق أينما ذهبت
فصليب الجنوب، صليب الجنوب
هو دوماً حيثما تكونين.

عندما فاجأ الماليسيون رولاندو الطويل، الملاح في مياه متأججة، وهو يحاول إنزال سروال معاون القبطان، عزلوه وأقسموا أن ينزلوه من السفينة في المرفأ التالي إذا ما لمحوا هناك شيئاً يشبه امرأة ولو من بعيد.

الشاطئ الذي وصلوا إليه في ذلك الثالث من حزيران كان خفيف الشمس، قليل الغيوم، رقيق النسمات، بعيداً عن الأنظار، هو شاطئ مدينة أنتوفاغاستا. ومع أن القرية بدت ضئيلة للماليسيين مثل جزيرة مولدهم، إلا أن ظهور امرأة في المرسى بثديين مرتفعين وشعر كهرماني، أوحى إليهم بأنهم عند عتبات الفردوس. «صليب الجنوب هو دوماً حيثما تكونين». نزلوا بأكياسهم الممزقة، ممشطين شعورهم بصفعات من الماء المالح، متيبسين بتأنقهم بقمصان مغموسة بالنشاء، تفوح منهم رائحة الطحالب والأعشاب البحرية.

اجتمعوا شامخين وساذجين بالطريقة نفسها التي يبدون بها في صورة جواز السفر، ولكن في نسخة محسنة بفضل الطعام المغذي، والرغبة، والفرح بامتلاك بلاد تدعى«أنتوفاغاستا» أو شيء من هذا القبيل. لم يتمكنوا مطلقاً من النطق بتلك الكلمة ذات التلال والحجارة، ذات اللعاب الصابوني الذي يجعل الأسنان تصطك: **أنتوفاغاستا** هي بالنسبة إلى تسعين بالمئة منهم بداية ونهاية المتاهة الهيروغليفية: **أنتوفاغاستا**.

احترم مفتش الجمارك التوقيع المرافق للختم القنصلي، وبالرغم من دمعة الرقة التي طفرت من عينه عندما قال «صغار مساكين مزرقين من البرد»، إلا أنه انتهر النحيل موجهاً سبابته المتسلطة والمغطاة بالشعر إلى صدره:

- ينقصكم أبله هنا يا صاحبي. هذا ذو الوجه الببغائي.

- لقد سقط في الماء أيها القبطان.

- وهل أكلته سمكة قرش مع خصيتيه وكل شيء فيه؟

- مع لوزتيه وكل شيء أيها القبطان.

- هذا جميل! يروقني أن تسموني قبطاناً.

مهر الجواز بخاتم ضخم على الصفحة التي تحمل توقيع السيدة القنصل، وقال بصوت راعد:

- أفضل دار للعاهرات موجودة عند تقاطع شارعي برات وإسميرالدا. وأفضل بار عند تقاطع ماتا مع سوكري. وأفضل مستشفى للموت فيه هو مستشفى الدكتور ريندبتش الذي يتكلم المالبسية ويحقن الإبر. والشاعر الوحيد في البلدة مصاب بتشمع الكبد ويبيع مستودع خموره بأقساط شهرية. المضاجعة الأولى مع العاهرات مجانية، والثانية بالدين، والثالثة تُدفع مضاعفة. وإذا ما وجدتُ أحدكم منفصلاً عن الجماعة، فسوف آمر برميه بالرصاص باعتباره فوضوياً. احملوا قملكم وبراغيثكم وابقوا مجتمعين دوماً، ولا تنسوا هذا الوطن الذي احتضنكم بذراعين مفتوحتين. رددوا معي!: «تحيا تشيلي، أيها البراز!».

- تحيا تشيلي، أيها البراز! - رددت الجماعة بدقة، مشكلة هناك بالذات أساس فرقة كورال «ماليسيو دوم» التي ستحرز شهرة عالمية بعد عدة سنوات.

عندما أصبحوا على أخشاب رصيف المرفأ، وكما لو أن استيبان يتابع إيقاع نبوءة بطيئة، تكاسل متخلفاً عن مؤخرة الجماعة، وضيع الوقت في النظر إلى قدميه إلى أن انعطف الشبان عند الناصية وهم يتلعثمون بأغنيات أمومية.

عندما رفع بصره، وجد على بعد متر عنه الصحفي بافلوفيتش: كان يضع يده في جيب سترته السوداء وهو يهم بإخراج شيء منها.

- لقد كانت رحلة طويلة يا استيبان كوبيتا.

- طويلة، حزينة، مبللة، وغير مجدية يا دكتور بافلوفيتش.

نظر بنفور إلى الهضاب المتواضعة، وإلى الشوارع الترابية، وإلى الأفق

المتكلس، وحسك الأسماك بين شقوق الرصيف البحري، وصمت الظهيرة، والهواء الخفيف، ولم ير في كل الدائرة التي أحاطت بها عيناه زهرة واحدة، أو شجرة، أو نبتة، أو شجيرة، أو عرقاً أخضر في أي مكان.

- لا يوجد ماء، أليس كذلك؟
- يوجد، ولكنه ماء مالح.
- وهل يوجد قمح؟
- لا يوجد.
- هل يوجد شعير، أو ذرة؟
- لا يوجد.
- هل يوجد تين؟
- لو كان موجوداً لما وجدته.
- هل يوجد تفاح أو أجاص، فول، حمص، عدس أو بطاطا؟
- لا يا فتى. لا يوجد.
- ألا يوجد شمندر، أو كرنب أو سلق؟
- لا يا استيبان. لا يوجد. ولا يوجد كذلك عسل ولا شمع نحل.
- أين يمكنني أن أعمل إذن؟ لستُ أرى شجرة ولا نبتة.
- في الساحة يوجد طاووس. والبحر مليء بالسمك.
- ولكن الأرض يا دكتور، أي براز تعطيه الأرض؟
- لا شيء يا فتى. كل ثروات هذه الأرض في باطن الأرض.
- لستُ أفهم.
- براز يا فتى.
- لا يوجد شيء يا دكتور. هذه البلاد هي العدم عارياً.
- توجد جريدة رائعة. وأنا أكتب فيها.

فرك استيبان وجهه وأحس بعينيه جافتين من كثرة الرمل والتراب، من الصمت المطبق والرعديد. ابتلع لعابه وهو يمسح العرق عن جبهته. كان الصحفي في أثناء ذلك يضغط على الورقة التي في جيبه، وقبل أن يُخرجها تنحنح بعد أن بلل شفتيه مطولاً.

- وهناك أخبار سيئة يا بني.

مدّ إليه الورقة دون أن ينظر إليها. ولكنه ما إن ترك الرسالة في يدي استيبان حتى فك ربطة عنقه الرمادية عن ياقته المنشاة. ومسح بقبضته ريشة طائر لمست شاربه.

فتح استيبان الرسالة والتهم زخم نظرته النص في قضمة واحدة.

«السيد استيبان كوبيتا. أنتوفاغاستا. يؤسفني أن أخبرك بأن آليا إيمار قد اغتصبت من قبل قوات معادية. ويؤلمني أن أؤكد انتحار السيد جيرونيمو فرانك قبالة القرية. أتمنى لك حياة جديدة أكثر سعادة في تشيلي. مع تحيات الأب بريجل، سواحل ماليسيا.»

داهم جسد استيبان تنميل خجل. لوى المدّ الخانق ركبتيه ووخز سرته دوار منفلت. أغلقت حلقه دموع كبيرة، ودارت جبهته بجموح، تحركها حمى دوار مفاجئة.

خرّ على ركبتيه فوق الأرض، وغمس أنفه مثل كلب في التراب القاحل، وقال:

- هناك إله!







عرس الشاعر

المؤلف

ولد أنطونيو سكارميتا في مدينة أنتوفاغستا (تشيلي). ودرس الفلسفة والأدب في بلاده ثم في نيويورك. عاش طويلاً في أوربا والولايات المتحدة، حيث عمل ككاتب سيناريو، وأستاذاً، ومخرجاً سينمائياً.

ترجمت مجموعاته القصصية ورواياته إلى أكثر من عشرين لغة، ولقيت روايته ساعي بريد نيرودا نجاحاً واسعاً. وقد حصل الفيلم المأخوذ عنها على خمس تنويهات أوسكار.

عرس الشاعر هي عمله الأول بعد ذلك النجاح العالمي.

الرواية

مصرفي نمساوي ثري وبوهيمي، يدعى جيرونيمو فرانك، يتخلى عن كل شيء ويستقر في جزيرة صغيرة من جزر الادرياتيكي، حيث يعيد افتتاح «المخزن الأوربي الكبير». وسرعان ما يحدد زواجه من الشابة الجميلة آليا إيمار.

يتم وضع تصور مسبق لحفلة زفاف استعراضية. ومع ذلك، فإن العروسين لا يشاركان تماماً في البهجة الشعبية. فجيرونيمو تثقل عليه الاسطورة التراجيدية لصاحب المتجر السابق وزوجته الشابة. أما بالنسبة إلى آليا فإن حب استيبان كوبيتا - المتحدر من رجل الجزيرة الأسطوري - هو ما يسبب لها القلق والارتياب. تندلع حفلة الزفاف الرائعة في حدث شعبي يتجاوز كل الشخصيات وينقلهم من المرح إلى المأساة.

قصة حب أسطورية قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكية وتهكمية إلى أوربا ما قبل الحرب العالمية الأولى، ولكنها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الذين وصلوا إلى تشيلي في بدايات القرن العشرين.

ISBN => 2-84305-306-4
EAN => 9782843053061